



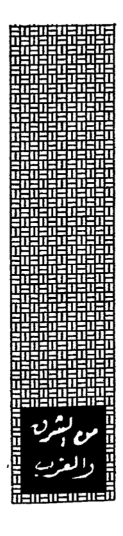


بين الدين والحياة

بقلم
عبد المنعم النمر



ا.د. محمـــود ديــــاب
جراح بالمستشفى الملكي بمصر


من الشرق
والغرب


بين
الدين
والحياة
بقلم



بسم الله الرحمن الرحيم

« رَبَّنَا آتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ، وفي ٱلآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »

وصل اللهم على رسولك الكريم وآله وصحابته والتابعين .

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي . . .

عند ما اتجه الغرب — منذ قرون — للاستيلاء على الشرق ، ولا سيما قلبه النابض — العالم الإسلامى — اتخذ وسيلتين للهجوم : الهجوم الفكرى ، والهجوم المسلح . وكان يعلم — كما علمنا — أن الهجوم الفكرى أشد خطرا وفتكا ، وأبعد أثراً من الهجوم المسلح ، ولذا وجدناه يركز هجومه على معالم الإسلام ومبادئه ، وأتاحت له قوته المادية ، فى السيطرة ، وفى أدوات النشر والإذاعة ، أن يروج لباطله ، وبث الشكوك فى حقائق الإسلام ، وما جاء به من مبادىء قويمة ، توفر السعادة للمجتمع . . وكان لهذا أثره على عقول بعض المسلمين المثقفين ، وأحياناً على قواد الفكر والثقافة ، فانساقوا فى تياره ، ورددوا اتهاماته ، وانصرفوا عن مبادئهم ، وحلا لهم أن يمجدوا كل ما هو غربى ، وينتقصوا كل ما هو شرقى ، مهما يكن وثيق الصلة بعقيدتهم .

وكان ذلك نجاحاً .. له خطره وقيمته فى أعين الغربيين ، لامن الوجهة الدينية فحسب، بل من أجل خدمة أطماعهم فى السيطرة على الشرق كذلك ؛ لأن المسلم حين ينهار ، ويتنازل عن بعض عقائده ومقدساته ، لا ينتظر منه أن يتماسك ، أو يحافظ بعد ذلك على أية

مثل كريمة أخرى ، بل يسارع إلى التفريط فيها ، لأنها ليست عنده أغلى من دينه الذى خرج عليه ، وأنكر مثله ومبادئه !

ومن هنا كان خطر الانهيار الدينى فى النفوس ، غير قاصر على الفرد وحده ، بل يمتد كذلك إلى المجتمع كله ، إلى كيان الدولة ، وتماسكها ونهوضها .

ومن الأفكار الخبيثة التى سلطها أعداء الإسلام عليه ، أنه دين لا يتفق والحياة ، ولا يتمشى مع تطورها ، وأنه شىء والحياة شىء آخر ، أو أنه شىء والدولة ونظامها شىء ، يقصدون بذلك عزل الدين عن التدخل بابداء وجهة نظره فى الحياة ، وقد ساعدهم على ذلك بعض مفكرى الإسلام الجامدين — من حيث لا يشعرون — وبعض الحكام المسلمين ، من الطغاة المترفين ، الذين يحلو لهم التحلل من مبادىء الإسلام وآدابه ، فى حياتهم وحكمهم . فسرت موجة التحلل فى النفوس ، وانفلت الناس من التأدب بآداب دينهم ، أو اتخاذه إماماً لهم فى سلوكهم ، حتى أصبح مقياس الدين عندهم لا وزن له ، واتخذوا بدله من المقاييس ، ما يتناسب ورغبتهم فى التحلل ، فأصبح الخروج عن مبادىء الدين تقدماً ، والطعن فى تعاليمه ومقدساته تنوراً ، وما يفعله الغربيون — ولو تعارض مع مبادىء الدين — حضارة يجارونهم فيها . . وليس هناك ما هو أشد فتكا بالأمة ، وهدماً لكيانها ، مثل اضطراب المعايير أو انقلاب المقاييس فيها .

لهذا كان من واجب كل إنسان يغار على أمته ، أو يتولى فيها أى مركز قيادى ، أن يعمل لبعث الروح الدينية فى النفوس ، وإحياء القيم الروحية فيها ، ليكون ذلك على الأقل تحصيناً لها ضد عوامل الهدم والانحلال ، وركيزة قوية تنبعث منها انطلاقة الأمة لكل نهضة ، وكل تقدم وخير .

ولا شك أن مما يساعدنا على بعث الروح الدينية فى النفوس ، أن نعيد النظر فى بعض الأفكار الدخيلة على الإسلام ، والتى تعتبر أثراً من آثار الانحلال ، أو الانحراف ، أو الجمود الفكرى . . فى العصور السابقة ، فنعمل على تنقية الإسلام من هذه الشوائب ، التى عكرت صفوه ، ونفرت منه بعض أهله ، ونقدم المبادىء والتعاليم ، والأفكار الإسلامية ، صافية صفاء المنبع الذى نستمدها منه ؛

كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، محاولين جهد المستطاع ، أن نربط بين هذه الأفكار الصافية ، وبين الحياة السليمة المستقيمة ، كما يريدها الله لعباده .

***

من أجل هذا كله — صديق القارىء — عنيت بكتابة هذه الأبحاث ، التى أقدمها إليك الآن ، راجيا أن تجد فيها ماقصدت إليه ، وأن تجد فى تنقلك بينها غذاء فكريا متنوعا ، ونزهة نفسية ، تبعد عنك ما قد تحسه أحيانا من ملل ، حين تتابع موضوعاً واحداً من أول الكتاب إلى آخره . .

ولعله يسرك — كما سرنى — أن تكون هذه الأبحاث قد أخذت طريقها إلى قراء اللغة الأوردية فى الهند وباكستان حين حرصت « دار المصنفين » فى « دلهى » على ترجمتها وتقديمها لاخوانك المسلمين هناك .

والله حسبى وهو المستعان ؟

عبد المنعم النمر

١ – الدين والدنيا

إن الله سبحانه وتعالى حين قال لملائكته « إنى جاعل فى الأرض خليفة » كان يعلم الدور العظيم الذى سيقوم به الإنسان فى عمارة الكون ، واستخراج مكنوناته ، والتوجه إلى الله فى تفكيره وتأملاته ، لذلك رد الله عليهم ، وقال لهم : « إنى أعلم ما لا تعلمون » فمن المعقول إذن أن يكون دور الإنسان فى هذه الحياة محل عناية ورعاية هامتين من الله سبحانه . . . وعلى الإنسان أن يفهم هذا الدور ليؤديه كما أراده الله .

وقد صور كثير من الكتاب والوعاظ وجود الإنسان على الأرض على أنه مجرد وسيلة إلى بلوغه الآخرة ، بحيث تصبح دنياه تافهة ، لا تستحق منه أى اهتمام أو مجهود ، ولم يكن هذا التصوير حقيقة ، بقدر ما أرادوا به الحد من غلواء المفسدين فى الحياة ، فكأنهم قابلوا التطرف بالتطرف ، لكن المسلمين تأثروا بما سمعوه كثيراً من تصوير الدنيا هذه الصورة المنفرة ، حتى ظنوا أن كل سعى فيها ، إنما هو جرى وراء شهواتها ، فقعدوا عن السعى ، واعتقدوا أن التدين يقتضى من الإنسان أن يقعد فى حجرة ويفغر فاه ، ليرسل الله له من يلقى فيه ما يشبع به بطنه ، وسرت حكايات كثيرة من هذا القبيل بين المسلمين ، فخدرتهم عن العمل ، وتركوا ميدان الحياة لغيرهم ، ممن يحسن الفهم ، ويحسن العمل فى الحياة .. فكان له عز الحياة ، سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

إن حياة الإنسان على هذه الأرض ، ومصارعته للأهواء ، وتعميره للكون ، وتفكيره فى خالقه ، كل ذلك من المقاصد الأولى من خلق الانسان ، فقد أراد الله منه أن يجيد حياته على الأرض ، ويحسن استغلال ما فى الكون ، لكل ما فيه خير له ولبنى جنسه ، مما يغذى الروح والجسم معا . أراد الله من الانسان أن يستغل الأرض ويمشى فى منا كبها ، ويجعل حياته عليها ، جنة له ولإخوانه ، فيها الراحة النفسية والطمأنينة والسلام .

وفى سبيل تهيئة هذه الجنة الأرضية لخليفة الله فى الأرض ، أرسل الله رسله ، وسن شرائعه ، وأخذ الأقوام الخارجين على هذه الشرائع بالعذاب الشديد فى الدنيا قبل الآخرة ليؤدب من بعدهم ، ويلجئهم إلى الحياة المستقيمة ، والعيشة المطمئنة ، ولم يرسل الله الرسل — رسولا بعد رسول — إلا بعد أن ينسى الناس شريعة السابق منهم ويتألبوا على تعاليمها ، وتصير حياتهم مصابة بشتى الأمراض والعلل التى تحتاج إلى دواء ، فيأتى الرسول ليردهم إلى الصواب ، فى أسلوب حياتهم وتفكيرهم ، ويضع أمامهم وسائل السعادة فى هذه الحياة قبل الآخرة من جديد . . ضامنا لهم الوصول إلى هذه السعادة ، متى ساروا على الطريق المرسوم . وقد جعل الله الجنة والسعادة بها فى الآخرة جائزة ومكافأة لكل من يترسم طريق السعادة فى الدنيا . فالجنة أعظم جائزة مغرية لخليفة الله ، كى يسلك الطريق القويم فى دنياه ، والنار أشد رادع وزاجر ، لكل من ينطلق وراء شهواته ، يؤذى الناس .. ونفسه ، ويسىء استغلال مواهبه ، وماخلقه الله من أجل سعادته ... فالجنة والنار وسيلتان من الوسائل التى جعلهما الله لحمل الإنسان على العمل الطيب ، وحسن استغلال الدنيا وإحسان الاستخلاف فيها .

فالحياة السعيدة على وجه الأرض ، غاية الغايات من خلق الكون ، وخلق الإنسان وإرسال الرسل ، وسن الشرائع ، وخلق الجنة والنار .

فليس من السهل إذن على العقلاء الفاهمين أن يهون الدعاة والوعاظ من شأن العيش والعمل على هذه الأرض ، أو من شأن دور الإنسان فيها ، ومن المغالطة أن تجعلها شيئا عارضا تافها لا يستحق من المؤمن أى مجهود . ومن

الإساءة إليها وإلينا أن نعتقد أننا فيها غرباء ، وقد خلقت بكل ما عليها من أجلنا ، وجعل الإنسان فيها سيداً بين كائناتها .

وإذا كانت الجنة جائزة لمن حسنت دنياه ، فإنه يمكن القول إنه لا سبيل إلى النعيم فى الجنة إلا عن طريق النعيم الحقيقى فى الدنيا ، وعلى قدر توفيقنا فى اكتساب دنيانا والفوز بها ، وتحقيق معانى خلافتنا فيها ، يكون توفيقنا فى آخرتنا ، فهناك ارتباط وثيق إذن بين الدين والحياة ، أو بين الدنيا والآخرة . ولكن الناس لم يفهموا هذا ، ففرقوا تفريقا شاسعا بينهما ، حتى كأنهما ضدان لا يجتمعان .

ولقد فهم بعضهم أيضا أن السعادة فى الدنيا ، إنما هى الانطلاق من القيود والجرى وراء الشهوات ، وتحصيل المال والمركز بأى طريق يرونه موصلا لذلك .. وهم ضعاف ، قصيرو النظر ، قليلو الإدراك لحقائق الأمور ، ولذلك يجىء فهمهم للسعادة فى الدنيا فهما ناقصا بعيداً عن الصواب .

إنهم يريدون السعادة لأنفسهم والله يريد السعادة لهم أيضا . ولكن عيبهم أنهم لا يرتضون رأى الخبير الحكيم ، الذى يرسم لهم الطريق السوى لبلوغ السعادة ، ويجرون وراء خيالاتهم وأوهامهم ، وما يظنونه سعادة لهم ، فتكون النتيجة أن يصطدم كل منهم بالآخر فيشقون . حتى لو ظن أحدهم أنه وصل إلى أمنيته ، فإنه لا يلبث أن يجد نفسه بعيداً عن السعادة الحقيقية ، ويراه الناس كذلك ، فيرثون لحاله ، ويندم آخر الأمر على ما بذله من جهود ، وما ناله من فشل فى صورة نجاح .

ولأضرب مثلا يوضح ما أقول :

الناس يريدون تحصيل الأموال الكثيرة ، والله يريدها لهم أيضاً ، ولا يحرمهم منها ، وقد رسم لهم طريق الوصول إلى غايتهم من تحصيل المال ، وذلك بالجد والكد والصدق ، وعدم إيذاء الناس . وهذا طريق سليم مضمون لتحصيل المال . ومن سار فيه ضمن المال فى رضا نفس ، واطمئنان قلب ، واستطاع أن يستغله للحياة والمتعة الكريمة التى يريدها الله ، ولكن بعض الناس لا يتحمل السير فى هذا الطريق السوى ، وتطغى عليه شهواته ، فيتخذ للوصول إلى المال

طرقا معوجة ، فيها الغش وسلب الحقوق ، وقد يجمع مالا كثيراً من هذا الطريق أيضا ، وربما يظن أنه أصبح سعيداً بما جمعه من مال . . ولكنه فى الحقيقة قد بعد عن السعادة الحقة عند الله والناس ، بل وعند نفسه أيضا إن تيقظ ضميره فيما بعد وأحس ما اقترفه من أخطاء فى طريقه إلى الغنى .

فهذا وذاك وصلا إلى المال ، ولكن شتان ما بينهما . . فالأول سعيد بكده وماله الذى حصله ، وأنفق منه على المحتاجين ، مرضى عنه من الله والناس ، اكتسب الدنيا والآخرة معاً . . والآخر سعادته كسراب بقيعة ، لا يلبث أن تتكشف له الحقيقة المرة ، ويطارده غضب الناس عليه ، وينتظره غضب الله ، خسر الدنيا والآخرة . . وقد التبس الأمر على بعض الزهاد والوعاظ فذموا طالبى المال وطالبى الدنيا أياً كانوا . . وهذا خطأ أو على الأقل مبالغة ضارة ربما تنتج خمولا وقعودا ، أو تنتج خروجا على الدين ، وانتكاساً عليه .

والقول الوسط الذى يجب أن نقوله ويفهمه كل مسلم ، أن الذى يطلب المال من وجهه ولا يضر الناس ، بل يحافظ على حقوقهم ، محقق لكلمة الله وحكمته فى تعمير الأرض بالإنسان ، وكل قرش يكتسبه يستعين به على الحياة ، أو يساعد به محتاجاً ، أو ينشىء به صناعة أو يسد به نقصاً فى أمته ، إنما يكتسب معه رضوان الله . . فليجمع المال اذن بالغاً ما بلغ ، وليتمتع بنعمة الله فى الحدود المرسومة المعقولة ، فانه عند الله من المقربين ، وهو خير وأولى عند الله والناس من الرجل السلبى الذى لايكتسب ، ولا يساعد أحدا ، كما أنه خير ممن يجمع المال من طرق غير سليمة ، وإن الله لم يعب على قارون إلا غروره بجمع المال وعدم مراعاة حق الله والناس فيه . . وقد كانت نصيحة العقلاء التى أقرها الله له « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » .

وهكذا كل طريق موصل للسعادة الحقة فى الدنيا هو موصل كذلك لرضا الله والسعادة فى الآخرة .

إن الله يحب الأغنياء المتقين ، والأقوياء المخلصين ، والصناع المتقنين ، والتجار الأمناء والزراع الأوفياء « فالمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » و « اليد العليا خير من اليد السفلى » .

فلا يقل أحد إن هناك تعارضا بين الدين والدنيا ، ويطلقها قضية عامة ، ولا يقل أحد أن الدين يحول بيننا ، وبين الغنى الشريف والمتعة الحلال ، فان هذا جناية على الدين والدنيا معا ، وعليه أن يقول إن الدنيا والآخرة كما أرادهما الله شيئان متلازمان ، السعادة فى أولاهما أساس للسعادة فى أخراهما ، أما التعارض فهو بين الدنيا كما يريدها الناس مدنسة بالغش والكذب والنفاق والخداع والشر ، وبين الدين ، بل وبين كل عقل سليم . علينا أن نقول « إن الدين كما شرعه الله نقياً من الخرافات ، وتزيدات المبطلين هو فى خدمة الدنيا أو بعبارة أخرى هو وسيلة لتحصيل الدنيا ، والمتعة فيها كما يريدها الله ، وكل ما يحقق مصلحة الناس وسعادتهم فى دنياهم ، فهو من شرع الله ، وكل ما يجلب الشر فهو بعيد عن شرع الله لم يأمر به ، فالدين وسيلة لتحسين الدنيا وإسعاد الناس فيها ، فهل يعقل أن يتعارض معها ؟ ! أنه يكون حينئذ متعارضاً مع نفسه ومبطلا لهدفه .

إنه لم يتفق عقل سليم مع الشهوات المنحرفة ، ولم تتفق سعادة الإنسان ومصلحته مع الجرى وراء شهواته ، فكيف يريدون من الدين أن يقر دنياهم المليئة بالشرور والشهوات ! ! ؟ إن الدين يحارب الشر فى الإنسان ويحارب كل شرير مخادع لأنه يكون جرثومة فساد فى المجتمع السليم .

إن الدين يدفعنا إلى أن نكون أقوياء فى الدنيا قبل كل شىء . . فى جسمنا وعقلنا ورأينا وثروتنا ، وصناعتنا وخلقنا .. وهذا هو ما يريده الإنسان .. ولكنه كثيراً ما يخطىء الطريق إليه إن بعد عن نور الهداية الذى أقامه الله . . فاطلبوا الدنيا إذن أيها المسلمون بكل ما تستطيعون من قوة فى نور هذه الهداية .. اطلبوا المال ، اطلبوا العلم بكل فروعه وحققوا لأنفسكم العزة التى جعلها الله لكم .. ولا تتركوا بابا أو وسيلة لتحصيل الدنيا والقوة فيها ، إلا ولجتموه على هدى من نور الله ، واجعلوا شعاركم ودعاءكم دائما قول الله ..

« ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »

٢ – المترفون ودعوات الرسل والمصلحين

قال تعالى :

« وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ».

(آية ٣٤ من سورة سبأ)

هذه دراسات نفسية واجتماعية للأفراد والمجتمعات ، القديمة منها والحديثة ، أوحى إليّ بها دراساتي للقرآن الكريم ، وهي دراسات بعد أن نقرأها أو نسمعها ، نحسها في وجودنا ومحيطنا الذي نعيش فيه حتى لكأننا نلمسها ونحسها بكل حواسنا .

ففي كل مجتمع من المجتمعات أيا كان هذا المجتمع ، وفي كل زمن من الأزمان ، طبقات متعددة ، طبقة وجدت حظها ونعيمها في ظل الوضع الراهن ، والنظام القائم ، فهي فيه صاحبة النفوذ الفعال ، والكلمة المسموعة ، والجاه النافذ ، والثراء الواسع الذي يقبل عليها ، والذي يساعدها الوضع القائم على الازدياد منه ، والتوسع فيه من كل وجوهه ، مشروعة أو غير مشروعة ، فهي من أجل ذلك تحرص على بقاء هذا الوضع ، حرصها على حياتها ونعيمها ، وتبذل من مالها وجاهها الكثير في سبيل الإبقاء عليه ، حتى يبقى لها في ظله ، ما هي فيه من جاه ونعيم .

وبجوار هذه الطبقة ، جماعة تعيش في ظلها وأتباع ينعمون على موائدها ، ويقبل عليهم النفوذ باسمها ، فهم يجدون نعيمهم في نعيم أسيادهم ، ولهذا يربطون حياتهم بحياة المترفين ، ويعيشون بأفكارهم ويرددون نغماتهم ، ويصبحون ببغاوات لهم ، وإمعات يحيون بروح غيرهم ، ويفكرون بعقول غير عقولهم ، فهم لا كيان لهم ، خاصا بهم ، وإنما هم تبع لغيرهم .

ومع هذه الطبقة المترفة وحاشيتها ، طبقة أخرى كادحة تعيش على هامش الحياة ، فهى تكدح وتشق ، لكن لا تستطيع أن تنعم بكدحها وكدها ، ولا يتوافر لها جزاء جهودها ، وإنما يذهب إلى جيوب المترفين ، أو يستولى عليه الأغنياء المنعمون ، فلا يتركون لهم إلا القوت تفضلا منهم ومنة وإحسانا إن أرادوا ، وإلا حرم هؤلاء الكادحون من قوتهم وتضوروا جوعا ومشوا عراة ، وعاشوا كالحيوانات أو أقل .

وهذه الطبقة الكادحة ، تعيش منغصة ساخطة متبرمة بالحياة ، لكنها لا تستطيع أن تبدى رأيها ، أو تظهر سخطها ، أو تبين لأسيادها ألمها ، أو تبث إليهم شكواها لأن ذلك — فى عرف السادة المترفين — تمرد جزاؤه الحرمان من النعيم الذى يموتون فيه !! جزاؤه — السجن والتعذيب والطرد والتشريد ، ثم لا يجدون لأنفسهم نصيرا ولا معينا ، لأن الحاكمين من هذا الطراز ، فيصبر هؤلاء على مضض ويعيشون وهم كارهون . يتنسمون الخلاص فى كل نسمة تهب عليهم ، ويترقبون النور مع المشرق كل صباح ، ويتوقعون الكارثة لأسيادهم مع ظلام الليل ، يتوقون إلى الفكاك من هذا الأسر ، ويأملون الخلاص من هذا الذل ، وقلوبهم تنطوى على حقد دفين ، ونار ملتهبة ، تحرق الأرض ، وتحيلها خرابا ، ويظلون هكذا وهم ينتظرون الحرية والعدالة على يد قوى من الأقوياء ، أو نبى من الأنبياء ، أو داعية من الدعاة المصلحين ، الذين يدعون إلى المحبة والعدل ، والحرية والإخاء والمساواة ، فإذا وجدوا ضالتهم فتحوا عيونهم وقلوبهم ، وأحاطوا بالداعية الجديد ، رمز خلاصهم وتحريرهم ، يؤيدونه وينصرونه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، حتى يوفر لهم الحرية والعدالة التى إليها يتوقون .

ولذا نرى موقف هؤلاء من الدعاة والمرسلين والزعماء المصلحين على مر التاريخ ، غير موقف المترفين فهؤلاء الكادحون المظلومون يرون إنصافهم وخلاصهم على يد هذا الداعية المصلح ، ويرون فيه منقذا ورحيما ، وهم لا يطلبون إلا رفع الذل عنهم ، وتوفير الحرية لهم ، وهذا الرجل الذى يدعو للعدل والمحبة ، والمساواة والأخوة ، هو ضالتهم ، ومثلهم الأعلى فى الحياة ، فلا غرابة فى أن

يتمسكوا به ، ويفتدوه بما يستطيعون ، لأنهم إنما يدافعون عن أنفسهم ، ويتعلقون بنجاتهم وحريتهم .

أما المترفون الذين يعيشون على كد غيرهم ، وينعمون بجهد المسخرين من إخوانهم ، وأبناء جنسهم ، والذين وجدوا فى غنائم وقوتهم فرصة لظلم الناس ، وكبت حرياتهم ، ونهب ما بأيديهم ، والذين استغلوا جاههم ونفوذهم لخدمة أنفسهم ومن حولهم ، فوسعوا ثرواتهم وبسطوا على الناس مساوئهم — أما هؤلاء المترفون فيرون فى كل داعية مصلح شبحا مخيفا ، يقض مضجعهم ، وينغص عليهم معيشتهم ، ويقوض عليهم سلطانهم ، فهو العدو المبين لهم ، العدو الذى سيسحب منهم كل سلطان ونعيم ، لأنه يدعو إلى الحرية للناس أجمعين ، وهم لا يحبونها إلا لأنفسهم فقط ، ولا يعيشون إلا على استعباد غيرهم ، من عباد الله الضعفاء ، وهو يدعو إلى التسامح والمحبة ، وهم يكرهون هذا الخلق ، ويحبون البطش والتكبر ، والقهر والتجبر ، ثم هو يدعو إلى الأخوة بين الناس أجمعين وهم يأنفون من هذه الأخوة ، ويرون أنهم خلقوا من طينة غير طينة الناس ، وأصل غير أصلهم ، ويصور لهم غرورهم أن الدم الطاهر الذى يجرى فى عروقهم ، ليس كالدم الذى يجرى فى عروق هؤلاء الفقراء .

ثم هو يدعو إلى العدل ، وهم يكرهون العدل ، ويحيون على الظلم ، وكأنه الهواء الذى يعيشون فيه ، وهل يعقل فى نظرهم أن يسووا بينهم وبين فقير مسكين ؟ . . . وهل يرضون بالقصاص منهم إذا اعتدوا على آخر ليس من طبقتهم ؟ ، وهل يسمح السيد أن يقتص من نفسه لأجير عنده ! ؟ ثم هو كذلك يدعو إلى المساواة وهى فى نظرهم خلق مرذول يحط من شأنهم ، مع أنها الخلق الفاضل الذى يجعله الرسل والمصلحون شعارهم ، فهل يقف الغنى مثلا فى الصف ليأخذ دوره كما يقف الفقير ؟ وهل تسرى عليه القوانين كما تسرى على الضعفاء والمساكين ؟ . إن ذلك فى نظره محال ، والموت عنده أهون عليه من هذه المساواة ! !

ثم إن هؤلاء المترفين نعموا بالحياة ، وجمعوا ثرواتهم فيها فى ظل وضع صنعوه لأنفسهم ، أو على الأقل ، وافق هواهم ، وساعدهم على التوسع فى ثرواتهم ، وقد

اطمأنوا إلى حياتهم ، وإلى تزايد أموالهم ، واتساع نفوذهم فى رحاب هذا النظام لهذا كله يحرصون عليه ، ويحاربون كل من يحاول مسه بسوء ، حرباً عنيفة لا هوادة فيها ؛ لأنهم المعرضون لهذا السوء ، فهم يدفعون عن أنفسهم ما استطاعوا ، ويثيرون الغبار والشكوك حول هذه الدعوة الإصلاحية ، حتى يقضوا عليها وتبقى لهم الحياة ، ويظل لهم السلطان .

فما هذا الذى يدعو إليه ذلك المغرور الذى يسمى نفسه رسولا ومصلحاً ؟ وما هذه النغمة المرذولة ، والبدعة الممقوتة التى يدعو إليها ، من عدل وتسامح ، وأخوة ومساواة ؟ وهل يعقل هذا ؟ وهل نطيقه ونسكت عليه ؟ ! بل لقد استغرب المشركون أن يدعو محمد إلى عبادة الله وحده « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد »[1].

وهكذا صور لهم عقلهم المغتر أن يقولوا هذا ، ويستبعدوا أن يكون هناك إله واحد ، ويدّعوا أنها مؤامرة لقلب نظام العبادة ونظامهم الذى يعيشون فى ظله وفى رحابه ، فلا عجب إذن إن رأيناهم يتعجبون من هذه المبادئ الجديدة التى يدعو إليها الرسل ، ولا يطيقون سماع شىء منها ، فما هى فى تصورهم إلا عكس للأوضاع ، وقلب لمقامات الناس . وحط من كرامات الأغنياء ، وتسوية لهم بالفقراء . . . . وما كان ذلك ليجوز صدوره من هذا الداعى « المتجرىء » الخارج على الأوضاع ، فلا بد إذن من إيقافه عند حده ، حتى لا يغرى بهم العامة ، ويبث فى نفوسهم مبادئه الجديدة الخطرة ، لابد من كبت أنفاسه ، والحيلولة بينه وبين الناس ، حتى لا يفسد عقولهم ، ولو رصدوا فى سبيل ذلك معظم أموالهم ، فان ما يدعو إليه سيذهب بكل أموالهم ، وجاههم ومقاماتهم ثم تدور فى نفوسهم دمدمة متسائلين : من هذا الداعى ؟ وما أصله ؟ وابن من هو ؟ وعلى من يتطاول ؟ وما الذى يريد ؟ ويقولون : لقد كرمنا الله فأعطانا من رزقه الواسع الخير الوافر ، ومنّ علينا بالجاه العريض ، أليس ذلك دليل رضاه ؟ إنه لو غضب علينا لما أعطانا ،

---

(١) سورة « ص » : ٤ ، ٦

ولما أبقى فى أيدينا هذه الأموال ، ولما جعلنا سادة مسموعى الكلمة فى قومنا ؟ « وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين »[1] .

ثم ما هذا الذى يدعو إليه ، هل يريد أن يأتى بجديد ، وهل هو بذلك جدير ؟ لو كان ما يدعو إليه خيراً لكنا أسبق الناس إليه ، بل لكنا أحق الناس بالدعوة له ، فنحن أصحاب العقول الراجحة ، والأفكار النيرة ، والنظرة النافذة ، ونحن وحدنا الذين ندرك مصالح الناس ، ونعرف مكان الخير لهم ، وما كان لأحد سوانا أن يتطاول علينا ، فيدعى أنه يدرك ما ندرك ، ويفهم ما نعجز عن فهمه ، ويصل إلى مالا نستطيع الوصول إليه ، ويرسم لنا طريق حياة جديدة ، نحن أولى برسمها ، لو كان فى ذلك خير للمجتمع ، ويحكى القرآن هذه النفسية المعقدة للمتكبرين المتنعين عن اتباع الرسول فيقول « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم »[2] .

يقصد هؤلاء المترفون بكل هذا ، أن يوهنوا من عزم الداعية ، وأن يشككوا الناس فى قيمة ما يدعو إليه ، وفى سبيل هذه الغاية استباحوا كل شيء ، وادعوا — غير مبالين — احتكار العقل كما احتكروا المال ، وادعوا احتكار الفضل كما احتكروا المال والعقل !! فالله قد جمع لهم فى زعمهم كل مظاهر الحياة الدنيا وفضلها ، فلم يعودوا فى حاجة إلى من يدلهم على طرق الخير فيها وقد ساعدهم على هذا الاتجاه ، والادعاء المغرور ، أن الناس حولهم ، قد زينوا لهم كل ما يصدر عنهم ، ونفخوا فيهم ، فصوروا لهم أفكارهم السطحية أنها آراء عميقة ، وقبلوا آراءهم الخاطئة على أنها حق ، يستحق الثناء والتقدير ، وأغرقوهم فى بحر من الملق والنفاق ، فعاشوا طول حياتهم ، ومنذ نعومة أظفارهم ، على أنهم موهوبون فى العقل ، كما وهبوا المال ، ولم يجدوا طول حياتهم معارضة لأفكارهم ، أومناقضة لآرائهم ، فظنوا أنهم الجديرون بكل فضل فى هذه الحياة ، وأنه لا يجوز لغيرهم أن يقف منهم موقف الناصح المرشد ، أو موقف الموجه للناس ، دون أن يكون تابعاً لهم ، أو مستمداً رأيه من آرائهم ، وغادوا أكثر من هذا فأعلنوا وجوب احتكارهم للرسالات ، قياساً على احتكارهم

(١) سورة سبأ : ٣٥
(٢) سورة الأحقاف : ١١

للمال والجاه ، وانتقدوا اختيار الله لرسله من أوساط غير أوساطهم ، كما انتقدوا أن يكون أتباع الرسل فقراء ، وجعلوا ذلك من عيوب الرسول ورسالته « وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »[1] استعظاماً لأن تكون الرسالة لمحمد الفقير ، وطلباً لأن تكون لأحد عظيمين فى مكة أو الطائف ، فما كان يليق فى نظرهم أن يقوم محمد اليتيم الفقير ، بتوجيه الناس ، بينما هناك من العظماء من هو أولى منه ، وذلك غرور ، دفعهم إليه المال والجاه ، وخضوع الناس وانقيادهم لهم ، حتى ظنوا أنهم الأجدر بكل فضل فى هذه الحياة ، وما علموا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

* * *

ولعلنا نستنير أكثر من هذا حين نستعرض فى تفصيل طبيعة هؤلاء وموقفهم من أصحاب الدعوات كما قصه القرآن الكريم . . . والقرآن حين تحدث عن الرسل الكرام وما لاقوه من أقوامهم ، بدأ بأقدم الرسل وهو نوح عليه الصلاة والسلام . وكان موقف المترفين هو أبرز شئ فى قصة قومه حين جاءهم وقال لهم « إنى لكم نذير مبين ، ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم[2] » .

وكان الذى تصدى لنوح عليه السلام يكذبه ويسفهه ، ويرميه بالضلال ، ومختلف أنواع الاتهامات ، هم المترفين الذين أحسوا لأول وهلة خطر دعوة نوح عليهم ، وعلى مركزهم فى قومهم ، فلم يخلوا بينه وبين الناس ، والقرآن حين يتحدث عن هذه الطائفة المعارضة يختار الأسلوب المختصر ويعنون لها بكلمة واحدة وهى « الملأ » فيقول فى تصوير رد هؤلاء على نوح فى سورة الأعراف ، « قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين » ويقول فى سورة هود « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا » أى لا امتياز لك علينا يجعلك تتكلم عن الله وتتحمل هذه الرسالة ، والملأ هم السادة والقادة والكبراء والأشراف لأنهم يملئون القلوب هيبة والمجالس أبهة ، أو لأنهم — فى نظرهم ونظر أتباعهم — ملئوا بالأحلام والآراء الصائبة كما يقول المفسرون ، وهم الذين كثر

---

(١) سورة الزخرف : ٣١

(٢) سورة هود . ٢٥ ، ٢٦

مالهم وملئت خزائنهم بالمال ، هؤلاء الناس المترفون هم الذين تصدوا للرد على نوح يرمونه تارة بأنه — بدعوته التي يدعو إليها — مستغرق في ضلال مبين واضح ، ثم لا يكتفون بهذا بل يعرجون على من اتبعه من المؤمنين ، ويطعنونهم بالأسلوب الذي يحلو لهم دائماً والنغمة التي يستسيغونها ، فيرمون هؤلاء المؤمنين بالخسة والدناءة وضعف الرأي وسذاجة التفكير ، لا لشيء إلا لأنهم فقراء فيقولون له « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل . بل نظنكم كاذبين »[1] فأتباعك إذن لا يعتد بهم ، ولا يحتج بآرائهم ، وليست لهم مكانة في وسط الناس ، حتى تعتز بهم ، وتفرح باجتماعهم حولك ، فهم أراذل ضعاف العقول، ومن أجل هذا اتبعوك ، ولو أنهم كانوا أغنياء مثلنا ، رزقوا المال والعقل ، لكان موقفهم منك هو نفس موقفنا الآن ولما وقعوا في حبالك ، وصاروا من أتباعك ، ثم تثور في نفوسهم العظمة الكاذبة ويهاجمون نوحا من هذه الناحية ويتعللون بأنه لا يمكنهم — وقد تجمع الفقراء حوله — أن ينضموا إليه ويجلسوا معهم في مكان واحد ويصير الجميع أتباعا ، يستوون في ذلك معهم ، وقد عاشوا طول حياتهم أسياداً لهؤلاء ، لا يقربون مجالسهم ، ولا يجرءون على مخاطبتهم ، إلا في ذلة وخفض جناح ، فكيف يجلسون معهم اليوم في مكان واحد تابعين جميعا لرسول واحد وهو نوح عليه السلام ، ويعبر القرآن بأسلوبه الموجز البليغ عن هذه النفسية فيقول على لسانهم « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون »[2] ثم يمكرون ويتقدمون إلى نوح ، يريدون أن يحملوه على طرد هؤلاء الفقراء في سبيل أن ينضموا إليه ، لأنهم لا يطيقون أن يجلسوا معهم في مكان واحد ، ولكن نوحاً يفسد كيدهم ، ويضع مبدأ للتفاضل غير مبدئهم ، ويحتفظ بأصحابه ويرفض طردهم ، ويرد على هؤلاء المترفين ويقول لهم : « وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون ، ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون »[3] وسورة الشعراء تحكي لنا رد نوح في أسلوب

---

(١) سورة هود : ٢٧

(٢) سورة الشعراء : ١١١

(٣) سورة هود : ٢٩ ، ٣٠

جيل آخر : « قال وما علمى بما كانوا يعملون ، إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون ، وما أنا بطارد المؤمنين ، إن أنا إلا نذير مبين [1] ».

وهذه هى طبيعة المترفين دائما وموقفهم من أصحاب الدعوات ، حتى لتجد هذه النغمة التى ضربوا عليها فى عهد نوح ، تتخطى هى نفسها الأجيال والقرون ، ويحكيها القرآن عن المترفين فى عهد محمد صلى الله عليه وسلم ، دون أن تتغير نفسيتهم أو تتهذب عقليتهم فقد مر الملأ من زعماء قريش على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعنده صهيب وعمار وخباب ، ونحوهم من ضعاف المسلمين ، فقالوا : أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ ! ! « أهؤلاء من الله عليهم من بيننا » ؟ أنحن نكون تبعا لهؤلاء ؟ أطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ، وذهب هؤلاء الأشراف المترفون إلى أبى طالب عم الرسول وقالوا له « لو أن ابن أخيك طرد عنا هؤلاء الأعبد فانهم عبيدنا وعتقاؤنا وأجراؤنا كان أعظم له فى صدورنا ، وأطوع له عندنا ، وأدعى لاتباعنا إياه ، فذكر ذلك أبوطالب للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له عمر بن الخطاب : لو فعلت يارسول الله حتى ننظر ما يريدون بقولهم ، ومايصيرون إليه من أمرهم ، فأنزل الله فى شأن هؤلاء ، ومايتحدثون به قوله تعالى « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون ، ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ماعليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين » [2]

فنغمة المتكبرين هى نغمتهم دائما ، وغطرستهم فى عهد محمد ، هى غطرستهم فى عهد نوح عليهما الصلاة والسلام ، بل لاتزال هذه النغمة ، وهذه الغطرسة متغلغلتين فى نفوس المترفين إلى اليوم ، وستظلان إلى ماشاء الله ، لأن هذه حالة نفسية ، طبع عليها الناس ، فهى تلازم وجودهم أينما كانوا ، وفى أى زمان وجدوا ، حتى لتكاد تتشابه الكلمات والمواقف قديما وحديثا ، وكأنها صورة

---

(١) سورة الشعراء ١١٢ ، ١١٥

(٢) سورة الانعام : ٥٢ ، ٥٣

مكررة ... فإذا اجتمع العمال والفلاحون أو أصحاب الحرف ومن لا مطامع شخصية لهم ، حول داعية مصلح ، يؤيدون فكرته ، ويشدون أزره ، ويناصرون دعوته ، صاح المترفون صيحة الخائف المتكبر ، صيحة إخوانهم فى عهد نوح : من الذى يتبع هذا الداعية وهذا الزعيم ؟ أليسوا هم الرعاع والغوغاء ؟ وإذا قام من أبناء الشعب الفقراء داعية مصلح ، عابوه بفقره ، أو فقر أسرته وأقاربه ، وحاربوه نفس الحرب ، وبنفس الأسلحة التى كان يحارب بها القدماء الرسل والدعاة .

وقد دعانا وجه الشبه القوى بين ما قاله قوم نوح ، وقوم محمد لهم إلى أن نستطرد ونتخطى الأجيال ، ومن بعث فيها من الرسل الكرام ، لنربط بين هذه الأوجه من الشبه ، ولنضع أمامك صورة نفسية واحدة لهؤلاء المترفين ، المستنكفين من اتباع غيرهم ، أيا كانت دعوة هذا الغير ، ومهما يظهر لهم وجه الحق فيها ، يستوى فى ذلك المترفون فى عهد نوح ، وفى عهد محمد ، وفى عصرنا هذا ، وفيما بعدنا من عصور .

وبعد هذا نعود إلى تتبع ما قصه القرآن الكريم ، عن المترفين من أقوام المرسلين ، بعد نوح عليه السلام ، وإننا لنجد التشابه التام فى موقف المترفين مع كل رسول ، مهما يختلف الزمان ، والقرآن الكريم يعرض لنا هذا التشابه فى ألفاظ متشابهة ، فهود عليه السلام قد أرسله الله إلى عاد ، فكفروا به وعاندوه ، ويحكى القرآن موقفهم فى ردهم على دعوته لهم فيقول « قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين »[1] . واعتدوا بقوتهم ، ونأوا بجانبهم عن اتباع هود ، وتحدوه فى استكبار ، ويحكى القرآن هذا الاتجاه منهم فيقول « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ »[2] . وصالح عليه السلام يدعو قومه ثمود إلى الهدى والخلق الكريم ، فيتصدى له المترفون كذلك ، ويبرز القرآن موقفهم هذا

---

(١) سورة الاعراف : ٦٦

(٢) سورة فصلت : ١٥

فيقول « قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ، أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون»[1].

وشعيب عليه السلام يتجبر معه المترفون من مدين ، ويتوعدونه بالطرد من قريتهم ، إن لم يرجع عن دعوته ، ويعد إلى أفكارهم وملتهم ، ويقص القرآن موقفهم هذا حين يقول « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا »[2] ويقولون له فى تكبر واستعلاء : « وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز »[3] .

ولعل قصة موسى مع فرعون الذى طغى تحكى لنا أبرز ما فعله المترفون مع الدعاة المصلحين ، لقد كان أول شىء جابه فرعون به موسى ، أن عيره بفقره وحاجته ، ومن عليه بتربيته له فقال له « ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين[4] » وكان فرعون مثال التجبر ، أو التكبر والطغيان ، حتى ليصفه القرآن الكريم أبلغ وصف فى هذا الباب فيقول : « إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين[5] » .

وموسى عليه السلام يحس نفسية فرعون هذه حين كلفه الله بالذهاب إليه ، فيتجه إلى ربه يسأله المعونة ويقول « واجعل لى وزيراً من أهلى هرون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى[6] » .

ويلاقى موسى من فرعون والمترفين من حوله أشد ما لقيه رسول من قومه فقد أخذ فرعون يستخف به ويقول « أم أنا خير من هذا الذى هو

---

(١) سورة الاعراف ٧٥، ٧٦
(٢) سورة الاعراف : ٨٨
(٣) سورة هود : ٩١
(٤) سورة الشعراء : ١٨
(٥) سورة القصص : ٤
(٦) سورة طه ٢٩ — ٣٢

مهين ولا يكاد يبين»[1] ويعيره بأنه لقيط ، أشرف على تربيته ، وموسى يغمزه في أول الأمر غمزا خفيفا ، لكنه مر ، ويرد عليه في لطف ، ويشعره بأن الذى ساقه إلى بيته ليربيه ، إنما هو خطؤه ، حين استعبد بنى إسرائيل ، وقتل أبناءهم واستحيا نساءهم ، فليس المقام مقام منة ، وكيف تمن على بهذا الذى كان نتيجة أخطائك وجبروتك ، فلو لم يكن هذا الطغيان ، لنعم موسى فى مهده يربيه آباؤه ويحنون عليه ، ولما تعرض هو للقذف به فى اليم ، ثم إلى العيش فى بيت فرعون لقيطا يعير بتربيته ، ولما شعرت أمه وأخته بهذه الهزات النفسية وبموجات الحزن والكمد تغرق فيها وهى تقذف بابنها فى النهر ، حتى ليكاد قلبها ينخلع منها وراء فلذة كبدها ، لولا أن الله ثبتها وربط على قلبها لتكون من المؤمنين .

يحكى الله رد موسى على فرعون هذا الرد فى أبلغ أسلوب فيقول على لسانه موجها الكلام لفرعون فى استفهام تهكمى تعجبى « وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل »[2] ويستمر الحوار خفيفا من جانب موسى ، ثقيلا من جانب فرعون المترف المتأله حتى يصل إلى حد تهديد موسى بسوء المصير الذى يعرفه فيقول له « لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين[3] » وأنت تعرف ما يصيبهم ، ولكن موسى يستدرجه ويأتى له بعلامات صادقة على رسالته « فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين »[4] فيفغر فرعون فاه هو ومن حوله ، ويسقط فى أيديهم ، ويرون هذا شيئا عجيبا حقا ، ويحس فرعون حرج موقفه ، ويرى أن زمام رياسته على رعيته يكاد يفلت من يده ، فيلجأ إلى نغمة ذات تأثير قوى على نفوس المترفين من حوله ، وسرعان ما تؤثر فيهم هذه النغمة ، وهل هناك ما هو أقوى منها على نفوس المترفين ، انها نغمة التخويف من موسى أن يقلب نظام الحكم ، ويستولى على أرضهم ، ومنابع ثرواتهم ، ويشردهم بعد عز ، ويستذلهم بعد سلطان « قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون »[5] .

(١) سورة الزخرف : ٥٢
(٢) سورة الشعراء : ٢٢
(٣) سورة الشعراء : ٢٩
(٤) سورة الشعراء ٣٢، ٣٣
(٥) سورة الشعراء : ٣٤، ٣٥

وتجد هذه النغمة طريقها القوى إلى نفوس الحاشية والمترفين ، فيسارعون إلى ترديدها ، متهمين موسى بأنه إنما يحاول مادة ، ويريد سلطاناً وجاهاً « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين »(١). « إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى »(٢).

والإخراج من الأرض ، وانتزاع السيطرة من السيد ، هما من أخطر الأشياء على نفوس المترفين ، وهل لهما إلا النفوذ والسيطرة على الأرض ، فماذا يبقى لهم بعد ذلك ؟ إن ذلك شىء تعبأ له الجيوش ، وتذهب ضحيته نفوس ونفوس . وتستعمل لدفعه كل الحيل والطرق ، ومن أجل هذا اقترح المترفون حول فرعون ، أن يجمع السحرة ويحشدهم من جميع النواحى ، لينازلوا موسى ويبطلوا كيده ، ويقضوا على مآربه ، ليحولوا بينه وبين اتباع العامة له .. وهكذا تتجمع ضده قوى السلطان ، وقوى المال ويجد نفسه محاصرا بهما ، وهل هناك حرب أعنف وأشد من محاربة المال والسلطان حين يجتمعان ؟ لقد رأينا فى التاريخ القريب والبعيد كيف تجمع المال والسلطان واحتشد المترفون وذوو الجاه ضد الأفكار الصالحة ، والجهود النافعة ، وكيف لاقى أصحاب الدعوات من هؤلاء مالاقوا من الإعنات ، وعلى مد البصر من تاريخنا يجد الإنسان أمثلة حية ، وشواهد ملموسة ، تمثل صراع الحق وجنوده مع جماعة السلطان والمال ، المتكتلة حول الباطل ، وكيف كان المترفون يتغلبون ، ويخفتون أصوات الدعاة ، ويكممون أفواههم ، ويطاردونهم ويحرمونهم حق الحياة الذى يتمتع به المبطلون .

لقد امتد الزمن بموسى وهو يصارع المترفين ، الذين لم تؤدبهم النوازل ، التى حلت بهم حتى وجد أخيرا ألا فائدة ترجى منهم ، وأنهم سادرون فى غيهم ، ووجدأن

---

(١) سورة يونس ٧٨

(٢) سورة طه : ٦٣

مالهم هو الذى يملى لهم فى غيهم ، وترفهم هو الذى يبعدهم عن الحق ، ويضع غشاوة ثقيلة على أعينهم ، فلا يبصرونه ، وينقادون لزعيمهم فرعون فى بطشه وجبروته وعناده للحق ، فيسيرون جميعا فى موكب الباطل ، يجد موسى هذا فيتجه إلى ربه يدعوه ويقول : « ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » (١) ، وموسى إنما دعا هذه الدعوة حين أحس أن المال والسلطان يعميان الناس عن الحق ، ويبعدانهم عن الاستجابة ، ويربطانهم بالباطل ، يدافعون عنه وعن وجوده ، فلم ير بدآ من إزالة العقبات من طريق الحق « فدعا واستجاب الله له ، وأعلمه بذلك وقال : قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » (٢) .

ثم تتوالى النكبات على فرعون وقومه ، ولكنه يظل فى تمرده على الحق ، حتى لا يدعه يرحل ويتركه ، بل يصر على متابعته ، حتى يقضى عليه ، فيطارد موسى وهو راحل عنه ، ولكن الله الذى يدبر الأمور لتنفيذ وعده ، يحرس موسى ويهيىء له سبيل النجاة ، ويشق له البحر ، ليسير إلى الجانب الآخر ، ويحاول فرعون أن يتابعه من نفس الطريق ، فيطبق الله عليه وعلى جنوده البحر ويغرقهم ، ثم يتيح لهم انتشال جثة فرعون ، ليكون عبرة لمن بعده من الطغاة المفسدين .

ودعوة موسى عليه السلام على فرعون وملئه إنما هى بمثابة حكم أصدره عليهم بإعدامهم ، وبمصادرة المال الذى صدهم عن سماع الحق ، والاحتكام إلى الحجة والبرهان ، وساقهم إلى ظلم الناس واستغلالهم ، واستعبادهم والسيطرة على أفكارهم ، وهو حكم مسبب ، سجله القرآن بهذا الأسلوب ، الذى يقرؤه الملايين من المسلمين وغيرهم ، صباح مساء إلى أن تنقضى الدنيا . « ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك » فهو يقدم لدعوته بأن هذا المال الذى أعطاه الله لفرعون وقومه ، كان سببآ فى وقوفهم منه ،

---

(١) سورة يونس : ٨٨
(٢) سورة يونس ٨٩

ومن دعوته موقف العناد والإيذاء ، وأنه دفعهم إلى الطغيان والتمرد ، وإنكار الدعوة ، والتآمر ، لقتل موسى والقضاء عليه ، ومن أجل ذلك أصدر حكمه عليهم بالإعدام ، ومصادرة الأموال التي جرأتهم على الظلم والضلال والإفساد ، ولو كان في يد موسى قوة يستطيع بها أن ينفذ حكمه لنفذه ، ولكنه كان ضعيفاً مجرداً عن السلطان ، وليس في يده إلا سلاح الإيمان ، والاتصال القوى بالله ، وهو حسبه وكافيه ، فاتجه إليه ، وهو القوى المتين ، يدعوه أن يطبق عليهم هذا الحكم العادل ، الذى استجاب الله له ، ونفذه فيهم وأخبر عن ذلك فقال « قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ، وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق ، قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين ، الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون »[1] .

وكانت هذه هى نهاية جماعة من المترفين فى حقبة من التاريخ ، مع رسول من رسل الله ، الدعاة إلى الإصلاح .

وإذا استعرضنا بعد هذا كله مصاعب محمد عليه الصلاة والسلام فى مكة ، حيث بدأ دعوته نجدها كلها من فعل المترفين ، وأصحاب المناصب والسلطان أيضا ، مما ينقض ما تذيعه الأبواق الهدامة ، من أن الإسلام مخدر للشعوب ، وللطبقات المهضومة ، إذ أنه يقر الظلم واستغلال الأغنياء للفقراء ، إذ لو كان كذلك لما قام فى وجهه هؤلاء المترفون الذين نقموا احتضانه للفقراء والضعفاء وإنصافهم . فقد كان محمد من أشرف قبائل العرب ، ولكنه كان يتيما فقيراً ، حرم عطف الأب وحنان الأم منذ طفولته ، ولم يرث منهما شيئا يستحق الذكر ، ويعينه على الحياة ، فنشأ فى كفالة عمه وجده ، وكانوا برغم شرفهم فى قومهم ، متوسطى الحال ، لم يرتقوا إلى طبقة الأغنياء ، وشاركهم محمد معيشتهم ، ورعى الغنم ، وعمل أجيراً فى قومه ، ولكنه مع هذا تميز بالخلق ، وتفرد بحب قومه ،

---

(١) سورة يونس .

وتقديرهم له ، فحين اختاره الله هاديا لهم كان موضع الرضا التام منهم جميعاً ، لكنهم استكثروا عليه أن تكلمه السماء ، وتحوز هذا الشرف الذى لا يستطيع أحد الوصول إليه ، وحينئذ رأى المترفون أصحاب الجاه أن لابد من الوقوف فى وجهه ، والقضاء عليه حتى لا يفقدوا منزلتهم بجانبه ، وبمقدار ما أحسوا على أنفسهم خطر دعوته ، كانت مقاومتهم له ، ومن هنا نجد تشابها غريباً ، وتوافقاً تاما ، بين ما قاله المترفون السابقون لرسلهم ، وماقاله مترفو العرب لمحمد صلى الله عليه وسلم. فقالوا عن الضعفاء الذين اتبعوا محمداً منكرين عليهم اتباعهم له ، ومستهينين بهم « أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا » وقالوا « لو كان خيراً ما سبقونا إليه » ظانين أنهم أصحاب العقول الراجحة ، والأفكار النيرة الناضجة ، مما أحلهم مكان الصدارة بين الناس ، فلا يعقل أن يكتشف العبيد الأرقاء ، وهؤلاء الضعفاء ، من الفقراء ، الخير فى دعوة محمد دونهم ، أو أن يصلوا إلى ما لم يستطع المترفون الوصول إليه ، ويقول هؤلاء فى اعتداد وتكبر ، نحن قادرون على تمييز الخير من الشر ، ووزن الدعوات بما فيها ، كما أننا لا نحجم مطلقا عن اتباع الخير ، وتتبع مصادره أينما كانت ، فلا يعقل والحالة هذه أن نجد فى دعوة محمد خيراً ، ثم نحجم عنها ، أما هؤلاء الذين سارعوا إلى اتباع محمد ، فهم بلهاء لا عقل لهم ولا رأى ولا تفكير ، إنما هم إمعات سطحيو التفكير ، ولو فكروا قليلا كما نفكر ، لوقفوا من محمد نفس الموقف الذى نقفه منه اليوم . . . .

وينساب هذا الكلام هنا وهناك فى أوساط مكة ، ويعملون على غزو أفكار الناس بهذا المنطق المتكبر ، حتى يوقفوا سير الدعوة ، ويصدوا عنها الأتباع ، ثم تمر الأيام ، ويخترعون أسلوبا جديداً يتقدمون به إلى محمد ، لعلهم يفسدون عليه أتباعه المخلصين ، ويرضون نزعة الكبر فى نفوسهم ، فيقترحون عليه أن يقصى عنه هؤلاء الفقراء إذ ما كان لهم — ومنزلتهم معروفة — أن يجلسوا وإياهم حوله ، يجمعهم مكان واحد ، فليطردهم إذن من مجلسه ، وينظفه من أمثال صهيب وعمار وبلال ، حتى يستطيعوا أن يقبلوا دعوته ، ويحيطوا به ، ويجالسوه ، تماما كما طلب قوم نوح من قبل .

ولكن الله الذى يحرس دعوته من أن تقع تحت سيطرة هؤلاء المترفين ، وجه رسوله التوجيه الكريم ، الجدير بدعوة المساواة ، التى لاتعرف التفاضل إلا عن طريق الجهد والعمل ، ودافع عن هؤلاء المؤمنين الفقراء ، وأنصفهم ، فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ماعليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم ، فتكون من الظالمين »[1].

وقد روى أحمد وغيره عن عبد الله بن مسعود سبب نزول هذه الآية فقال : مر الملأ من قريش على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعنده صهيب وعمار وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا يامحمد : أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أنكون نحن تبعا لهؤلاء ؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك فأنزل فيهم القرآن « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم — إلى قوله — أليس الله بأعلم بالشاكرين » .

ويستمر هؤلاء على خطتهم التعسفية الباطلة ، متمسكين بافتخارهم بالمال والأولاد ، جاعلين ذلك هو كل الخير ، الذى يقارنون به كل دعوة طيبة ، ويعتبرونه علامة من علامات رضا الله ويقولون « نحن أكثر أموالا وأولادا » ثم لايقفون عند هذا الحد ، فما لهذا يقصدون ، ولكنهم يقصدون نتيجة أخرى ، حكاها القرآن عنهم بعد ذلك مباشرة وختم بها الآية قائلا عن لسانهم « ومانحن بمعذبين » أى كما يدعى محمد ، وهم بهذا يضعون مبدأ التفاضل فى الآخرة ، قياسا على التفاضل الذى لمسوه فى الدنيا ، بكثرة المال والولد .

ثم إذا سمعوا آيات الله بينات واضحات ، تدعوهم إلى الهدى والإيمان ناعية عليهم عنادهم وكفرهم لجئوا إلى أساليبهم ، فى المفاضلة بينهم وبين المؤمنين فى الدنيا فيقولون « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا »[2] والفريقان هنا : المؤمنون الفقراء ، وهؤلاء القائلون من الأغنياء الذين أفلسوا من الفضائل ، وخلت قلوبهم

---

(١) سورة الأنعام : ٥٢ .
(٢) سورة مريم : ٧٣ .

من الإيمان فلجئوا إلى حطام الحياة ومظاهرها ، وأعراضها التافهة يقيسون بها الفضل ، ويجعلونها أساس التمايز ، ويقولون من منا صاحب المال والجاه ، ومن منا صاحب البيوت الفاخرة والرياش والأثاث ؟ ومن منا تزدان المجالس به ؟ أنحن الذين نجمع الفضل من أطرافه ، فيحتكم إلينا الناس ، وتزدحم مجالسنا بمظاهر العز والترف ، وأكابر الرجال ، أم المؤمنون الذين جاءهم من العبيد عندنا ، والذين لا يملكون إلا أطماراً بالية ، وكسرة جافة متعبة ، ولا مجلس لهم إلا حيث يجلس العبيد ، هناك فى الأكواخ وأطراف الشوارع ، حيث لا يقرب أحد منهم مجلسنا ؟ فمن ذا الذى يقول إنهم خير منا ؟ وهل هؤلاء من الذين يتباهى بتبعيتهم أو ينتصر بجمعهم ، أو يعتز بقوتهم ؟ وهكذا يظلون يضربون على هذه النغمة التى لا يملكون سواها .

وهذا شأن كل من خلت نفسه من الفضائل ، وقصرت عن معالى الأمور ، وتعطلت من جميل الأخلاق ، فإنه يلجأ إلى أشياء أخرى ، يكمل بها نقصه ، ويظل يرددها شعوراً منه بنقصه ، أو درءاً لما عسى يظنه الناس فيه ، فكلما جلس فى مجلس أخذ يفتعل المناسبات ، ليذكر الناس أنه ابن فلان ، وابن عمه فلان ، وعندهم من الأملاك كذا ، ومن مظاهر النعمة كذا ، والناس من حوله يستثقلونه على نفوسهم ، ويتندرون بكلامه إذا خلا بعضهم إلى بعض ، لكنه لا يحس هذا ، أو يحسه لكنه لا يريد تركه ، فهذه بضاعته الوحيدة التى لا يملك سواها ، ولا يعترف بغيرها ، فمثل هذا الجاهل الفارغ الذى امتلأت يده بالمال ، لا يعترف بعلم ولا ذكاء ، ولا خلق ، ولا يضع شيئاً من هذا كله فى مقاييسه للحياة ، وهو منطقى مع نفسه وحالته إذ لو اعتبر شيئاً من ذلك لأصبح فارغاً ، ولعد من سقط الحياة برغم غناه ، وهو بالطبع لا يريد ذلك بل يستميت فى سبيل الإبقاء على نفسه ، ويرتكب فى سبيل ذلك حماقات وادعاءات يضج منها الخلق الكريم ويستغيث ، ومثل هذا الأحمق الدعى الفارغ نكبة على المجتمعات ، وسوس ينخر فى عظامها ، ويهوى بها إلى الحضيض ، وكثير من الناس الآن يلاقون من أمثال هذا الفارغ الكثير من العنت والضيق ، بجده المتعلمون إذا تزودوا بالعلم ، ورجعوا إلى قراهم ؛ ليقفوا وجهاً لوجه أمام الجهال الذين لا يطيقون سماع صوت الحق ،

ولا يستطيعون الوقوف أمام أضواء العلم ، ويجده الموظفون الذين تعلموا تعلما راقيا ، حين يدفعهم حظهم ليعملوا تحت رياسة جاهل مغتر برياسته ، ويجد الإنسان أينما ذهب ، أمثالا لهؤلاء الأدعياء الفارغين ، يملئون الدنيا بثرثرتهم ، ويلوثونها بسوء تصرفاتهم ..

ولو تركت المجتمعات لأمثال هؤلاء لأصبحت مجتمعات فارغة من العمل ، مترعة باللهو واللعب ، يطفو على سطحها الفارغون ، ويصبحون حينئذ من أهم الأسباب لنكبتها وانحلالها ، ونزول أسوأ العذاب من أجلهم بها ، وتتمثل فيهم القاعدة الحكيمة ، التى قررها القرآن الكريم فى وضوح واستقامة « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

وكان مما ينشرح له صدر الرسول والمؤمنين معه ، أن الله تعالى هو الذى كان يتولى الرد على ادعاءات هؤلاء المترفين ، وإبطال ما كانوا يتشدقون به من الفخر ، وما يدعونه من الفضل القائم على المال والولد ، فكلما وجه المشركون المترفون إلى المؤمنين طعنة من طعناتهم ، نزل الوحى يعلم الرسول كيف يرد عليهم فى قرآن خالد يتلى إلى يوم القيامة ، ليضع به أسس حياة فاضلة ، بعيدة عن الدعاوى والغرور الكاذب ، وينقض به ما كان يريد هؤلاء المترفون أن يضعوه للحياة من أسس فاسدة قائمة على الشهوة والهوى .

فإذا قالوا للمؤمنين : « نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين » نزل الوحى يعلم محمداً كيف يرد عليهم ويقول لهم : « قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى » .

وبعد أن يبطل دعواهم يقرر فى نفس الآية أسس التفاضل الحقيقية ويقول « إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ، والذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون» (١)

---

(١) سورة سبأ : ٣٧ — ٣٨

قل لهم هذا يامحمد رداً على ادعائهم الفضل فى الدنيا والآخرة بالمال ، وضع للحياة هذا الأساس القائم على العمل والمجهود وحسن الخلق .

وإذا سمع المترفون آيات الله تتلى عليهم ، ترفع من شأن المؤمنين ، قالوا لهم ، يشمخون بأنوفهم معتزين بجاههم « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا » فلا يمر كلامهم دون أن يتولى الله الرد عليه ، فيقول لهم ليكسر أنوفهم « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئيا » فمن تكونون أنتم يا مترفى مكة بجانب السابقين المترفين فى القرون الأولى ، الذين كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ؟

ويكثر القرآن من ترداد ما حدث لأمثالهم فى القرون السابقة لينزع من أذهانهم فكرة التفاضل على المؤمنين ، بمالهم وقوتهم وجاههم ، ويحطم فى نفوسهم الغرور الذى استولى عليهم ، وجعلهم يعتقدون — خطأ — أن النعمة التى يرفلون فيها ، دليل على رضا الله عنهم ، فى الدنيا والآخرة ، وأنهم لهذا سوف لا يعذبون ، كما قالوا « وما نحن بمعذبين » وإذن فليسوا فى حاجة إلى دعوة محمد مطلقا ، فكان التكرار بضرب الأمثال بإهلاك أمثالهم السابقين ضرورة لابد منها ، إزاء أخطائهم وغرورهم ، ليثبت ذلك فى نفوسهم ، فتستمع إليه يقول فى سورة التوبة مخاطبا نوعا منهم بأنهم « كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم — أى الحظ من المال — كما أستمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون »(١)

ويقول فى سورة الروم لافتا نظرهم ، دالا لهم على طريق الصواب وموضع الاعتبار « أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »(٢) .

---

(١) آية : ٦٩
(٢) آية : ٩

ويقول فى سورة فاطر[1] « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا ، استكباراً فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا . . . . أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ، وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا » .

ويقول فى سورة غافر[2] « أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق » ثم يأتى فى آخر السورة نفسها ، فيكرر هذا المعنى فى آيات أخرى يقول فى ختامها « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون » .(٣)

وتجد الصورة البارزة لطغيان المترفين ، واعتزازهم بمالهم ، ونسيانهم مصدر النعمة التى يرفلون فيها ، يرسمها القرآن واضحة قوية بارزة فى قصة (قارون) ويبين فى جلاء ، كيف كان مصيره ، ليعتبر من يعتبر فهو يقول « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لاتفرح إن الله لايحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين » فتأخذ قارون العزة بالإثم ، ويستولى عليه غروره ، ويقول « إنما أوتيته على علم عندى » وبذلك ينكر نعمة الله عليه ، ويدعى لنفسه كل الفضل ، فيقول الله ردا عليه : « أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة ، وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » ويستمر القرآن بعد ذلك فيعرض على المترفين المتكبرين على دعوة محمد

---

(١) آية ٤٢ — ٤٤
(٢) آية ٢١
(٣) آية ٨٤ — ٨٥

مآل هذا الطاغى المتكبر « فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون » فافهموا واعتبروا أيها المتعالون ، المعتزون بما أعطاكم الله من نعمة ، ناسين فضله عليكم ، ومتخذين المال مقياسا للفضل ، ووسيلة لاحتقار المؤمنين — مع أنهم أحسن منكم عند الله ، لأنهم ساروا على الطريقة التى رسمها لهم مولاهم ، وكانوا فى حياتهم الدنيا مثلا فاضلة ، يقرر لهم ذلك فى قاعدة عامة فيقول « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين »[1] لعلهم بعد ذلك ينزعون عن غرورهم واستكبارهم فى الأرض بغير الحق ، وينظرون إلى دعوة محمد نظرة مجردة من الهوى والشهوات .. ليصلوا إلى الحق والهدى .

ونسير مع القرآن فنجد آيات كثيرة أخرى تضرب على هذه النغمة وتقرع أسماع المترفين المتكبرين ، بدوى الهلاك والدمار ، لمن كان على شاكلتهم من الأمم السابقة ، فيقول فى سورة محمد « وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم »[2] . ثم يقول فى سورة أخرى هى سورة ق .

« وكم أهلكنا قبلهم من قرن (أى جماعات) هم أشد منهم بطشا فنقبوا فى البلاد هل من محيص»[3] ؟ ..

وفى سورة القمر بعد أن قص فيها قصص الرسل السابقين ، وتكذيب أقوامهم لهم ، اعتزازا بقوتهم ، وذكر ما نزل بهم من الهلاك والدمار ، نتيجة موقفهم الشاذ من رسلهم ، يناقش الله المكذبين من قوم محمد ، وأمامهم النذر المخيفة فيقول « أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ، أم يقولون

---

(١) الآيات كلها من الربع الأخير من سورة القصص
(٢) آية : ١٣
(٣) آية : ٣٦

نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر »[١] ثم بعد آيات قليلة يعود فى صراحة فيقول لهم « ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر » .

كل هذا ليتعظ هؤلاء المترفون ، ويرجعوا عن غرورهم وتكبرهم ، وافتخارهم بالمال واتخاذه مقياسا للتفاضل فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وحتى لا يقولوا للمؤمنين « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا » .

ويعرض لنا القرآن صورة من تفكيرهم المادى الذى يريدون أن يطبعوا به الحياة ، برغم ما نزل عليهم من تبكيت لموقفهم هذا ، فيبرز لنا اقتراحاتهم المادية ، التى أرادوا أن يعجزوا بها محمدا حين قالوا له « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً » والذى يعرف طبيعة البلاد العربية الجبلية الصخرية ، يدرك مدى تعنت هؤلاء فى هذه الاقتراحات ، ثم يقولون « أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء[٢] » وهم فى هذا كفرعون ، حين استصغر كل معجزات موسى التى أتى بها إليه — كما جاء فى سورة الزخرف ، وقال « فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أوجاء معه الملائكة مقترنين » أناس يقيسون كل شىء فى الحياة ، بمقاييسهم هم ، ويعتبرون المال جماع الفضائل ، ورأس المقاييس وكل شىء فى الحياة حتى إنهم ليستصغرون شأن محمد ، ويستكثرون أن يبعث الله رسولا من الفقراء ، ويترك كبار الماليين بالحجاز ، الذين يرشحهم مالهم للمكانة العالية فى قومهم ، فكانوا — على زعمهم — جديرين بالرسالة واصطفاء الله . . . كأن الله يجب عليه أن يسايرهم وينزل على عقليتهم ، ويقيس شأن الحياة بمقاييسهم فهم يقولون « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » يريدون الوليد ابن المغيرة فى مكة ، وعروة بن مسعود الثقفى بالطائف ، والوليد هذا هو المترف الواسع الثراء ، الذى أنزل الله فى شأنه بسورة المدثر « ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالاً ممدوداً ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد » .

---

(١) آيات ٤٣ — ٤٥

(٢) من سورة الإسراء ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣

وغنى الطائف هو أحد إخوة ثلاثة قصدهم الرسول ، حين ذهب إلى الطائف يطمع أن يجد فيهم نصيراً لدعوته .. فاستكبروا ، وعتوا ، وجابهوه بمنتهى السخرية والاستهزاء ، وقالوا له رداً على دعوته لهم : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك » وهو رد يصرخ بنفسية القوم المادية ، التى تحتقر الفقراء ، ولو كانوا فضلاء ، — إذ لا قيمة للخلق والفضل عندهم — والتى ترى فى اختيار الله لمحمد رسولا اختيارا غير موفق ، لأنه ليس بغنى !!!

وقد رد القرآن عليهم ، وأفهمهم أن الرسالة ليست تابعة للمال والغنى .. وأن فى الحياة ناحية مادية وأخرى معنوية أدبية ... وإن الحياة المادية ليست تابعة لرضا الله أو غضبه ، فإنه يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، فليس معنى كثرة المال فى يد شخص أنه حائز على رضا الله ، أو أنه من الفضلاء فى الدنيا والآخرة ... فحين دعا إبراهيم ربه أن يرزق المؤمنين ثمرات الحياة الدنيا وطيباتها ، قال له الله « ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » فقيم الحياة المادية لا تتداخل مطلقا فى قيمها الروحية ، وليس بصحيح أن الله يتخذ المال مقياسا يقيس به قيمة عباده ، ليوزع عليهم رحمته ورضاه — كما أنه لا يأتى نتيجة الرحمة والرضا . وكفر الإنسان بربه لا يحرمه من طيبات الحياة الدنيا ، ولا يمنع أن يكثر ماله ويتوطد مركزه ، لأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، فمدتها قليلة ، ونعيمها مهما كثر ضئيل ، ولذلك يعطيه البر والفاجر ، ويشترك فيه المؤمن والكافر ، ولولا أن تنعم الكفار وإغداق المال عليهم وإغراقهم فى زينة الحياة يغرى النفوس ويجذبها للكفر ، لاختص الله الكفار بذلك ، لأنه لا قيمة له عنده ، فما تعتمدون عليه أيها الأغنياء وتتخذونه المقياس الوحيد للتفاضل ، لا وزن له عند الله ، وهو شىء تافه عنده أما القيمة الحقيقية فهى للخلق الكريم ، والعقيدة السليمة فى الدنيا ، ثم لنعمة الجنة وزينتها فى الآخرة ... وهذا شىء لا يحصل عليه الكفار ، بل يحرمون منه لأنهم لم يدفعوا ثمنه ..

فالمال وحده لا يؤهل لرضا الله ولا يرشحكم للوجاهة عنده ، ولا يرفع من قيمكم المعنوية ، ما دمتم قد فقدتم منبعها الأول ، وهو الخلق الفاضل والعقيدة السليمة ،

لأن الناحية المعنوية لها قيمها ومقوماتها ، وهى قائمة على زاد من الخلق والتقوى ، ولا يحوز هذا الفضل ، وهذه المنزلة كافر بربه ، أو معتد أثيم على سننه ، بل يختص الله بها عباده المؤمنين « يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » فتدخل الكفار فى تقسيم رحمة الله على الناس إنما هو خروج عن الأدب وغرور .

ونستطيع أن نفهم هذا وأكثر منه فى رد الله على الذين استكثروا إرسال محمد ، هذا الرد القوى الذى يوبخهم ويبكتهم حين يقول عنهم « أهم يقسمون رحمة ربك » إنها لجرأة ! ! ! وإنه لغرور ! ! « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً » هذه هى الحكمة ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً ويحتاج بعضهم إلى بعض ويحسون ضرورة التعاون فينتظم بذلك نظام الكون . . ولم يرد من هؤلاء أن يتخذوا المال ذريعة لاحتقار المجردين عنه ، ويغتروا به ، ويخرجهم غرورهم عن حد الاعتدال ، فما قصدنا من التفاوت أن يحتقر الغنى الفقير ، أو أن يحتكر الفضل ، ويحمله غناه على البطر ، والوقوف فى وجه المصلحين ومحاربتهم .

واذا كان الله قد أعطى الدنيا بعض عباده ، وخصهم بالمال فذاك شىء بسيط . أما الذى له قيمته فهو رحمة الله . واختياره محمداً للرسالة . والله يختص برحمته من يشاء « ورحمة ربك خير مما يجمعون ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا ، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين » فهل فهمتم أيها المترفون ! ؟ ولكن أنى لهؤلاء أن يفهموا ، وأن يرتدعوا وقد أطغاهم المال ، فعموا وصموا ثم عموا وصموا ؟ ! ! . .

إن لهؤلاء دورا فى الحياة متشابها ، فى جميع الأزمان ، لابد أن يؤدوه تماما وعلى أكمل وجه ، ودورهم فى نظرهم هو الدفاع عن أنفسهم ، والمحافظة على ترفهم ومكانتهم وتقاليدهم ، وفى نظرنا ونظر الحق هو محاربة دعاة الاصلاح ، والوقوف فى وجه دعواتهم الجديدة ، ورسالاتهم المجيدة ، والحيلولة بينها وبين النفوذ إلى أفراد الشعب حتى لايبث فيهم الدعاة المصلحون أيا كانوا ... مبادىء العدل والحرية والمساواة ، وهى أشياء يكرهها الطغاة المترفون ، ويرصدون مالهم

وجاههم وسلطانهم للقضاء عليها ، حتى يظل لهم الشعب ، يستعبدونه ، ويستنزفون دماءه ، ويسخرونه لمآربهم .

تلك هى نفسية المترفين فى كل زمن منذ وجد دعاة الاصلاح على وجه الأرض إلى اليوم ، نعم إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم ، ولهم أدوار لا تختلف كثيرا ، وإن اختلفت الأزمنة ، وتباينت الشعوب ، قررها القرآن فى وضوح ليسلى محمدا ، ويخفف عن نفسه الأثر الذى تحسه من معارضة هؤلاء وحربهم له ، كما يخفف عن نفس كل داعية مصلح يأتى بعده ، إذ يغرس فى نفسه أن كل دعوة كدعوته لاقت مايلاقيه « وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور » « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » . . « وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم ، جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ، ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير » . وآيات كثيرة متناثرة فى القرآن تقرر ما تقرره هذه الآيات ، فليس محمد إذن بدعا من الرسل الدعاة ، بل يجب أن يوطن نفسه على منازلة أصحاب المال والجاه وعلى احتمال أشد أنواع المكاره ، ومجابهة ألوان المصاعب لأنه يقود حربا لا هوادة فيها ، بين حياة الفضيلة والمبادىء العادلة التى يمثلها ، وبين حياة الرذيلة والترف والمجون والظلم التى يمثلها ويحميها المترفون ذوو المال والجاه ، فليصبر محمد إذن « كما صبر أولو العزم من الرسل » وليصبر كل داعية مصلح من بعده ، تأسيا به وبأولى العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فإن الحياة لا تحلو ولا تسمو إلا بالمبادىء التى يدعو إليها هؤلاء جميعا ، ثم هى لا تكون دنيا إلا إذا وجدت فيها عوامل البغى والشر والعدوان مرعى خصيبا فى نفوس المترفين أعداء الاصلاح . .

وتلك هى طبيعة الحياة كما خلقها الله ، ولست أتجنى على المترفين أو أقرر عنهم شيئا مفترى عليهم ، بل إن الله رب العالمين الخبير بالنفسيات هو الذى قرر ذلك فى القرآن ليخفف كما قلت عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن كل داعية يأتى من بعده « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » وتثبيت الفؤاد إنما يأتى من إشعار الرسول بأن الحرب التى يلقاها من المترفين قد لقى مثلها زملاء له

من قبل « فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لـكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين » . .

فهو يقول تصبيراً له وتثبيتاً « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ، وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله » فيرد الله عليهم : « الله أعلم حيث يجعل رسالته ، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » ويقول فى سورة سبأ فى شكل قاعدة عامة مقررة « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . . . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين » فأوحى الله إلى رسوله أن يرد عليهم وقال له « قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولـكن أكثر الناس لا يعلمون ، وما أموالـكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى » ويقول فى سورة الزخرف يخاطب محمداً بعد أن قص بعض افتراءات الـكفار على الله ورسوله دون سند أو دليل « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » ثم يحكى عقب هذا فناءهم فى التقليد ، واستمساكهم بما هم عليه فيقول « قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المـكذبين » والانتقام من هؤلاء المترفين لم يكن إلا بتدميرهم ، وإهلاك ما يعتزون به من مال وبنين ، أو حرمانهم من ذلك كله . . كما تنطق الآيات «فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » « فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » « فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون » . . « فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » وليس ذلك كله إلا غيرة منه سبحانه على المبادىء السامية ، والمثل العالية ، التى يريد أن يثبت قواعدها فى الأرض ، على يد الرسل والمصلحين لتنعم البشرية وتسعد فى ظلها .

ومع ذلك فقد رأينا المترفين على مر السنين يجرفهم الغرور ، ويحملهم ما فى أيديهم من المال على مناهضة العدالة ، وطمس معالم الحق ، ومحاربة كل نهضة ،

وإخفات كل صوت يعمل لإقرار الحق والعدالة فى مجتمعاتهم ، لأنهم يرون فيه نذير سوء بتقويض سلطانهم ، أو على الأقل بالحد من نفوذهم وشهواتهم ، رأينا ذلك فى تاريخ أوربا ، إبان نهضتها الحديثة ، بعد أن غرقت أجيالا فى ظلمات الإقطاع والاستبداد ، رأينا الإقطاعيين الترفين فى كل دولة ، حربا عنيفة على دعاة الإصلاح ، الطالبين بحقوق الإنسان ، حتى رجال الدين أنفسهم فى أوربا خرجوا عن طبيعتهم ، كرجال رحمة وحق وعدالة ، إلى عوامل ظلم وإعنات ، لأنهم انقلبوا إلى إقطاعيين مترفين ، وغرقوا فى بحار اللذات والشهوات ، فانضموا إلى غيرهم من الترفين فى حرب الشعوب ، والقضاء على نهضاتها ، وأوجدوا فجوات واسعة بينهم وبين الشعوب ، كان من أثرها حينما انتصرت كلمة الشعوب ، أن عزلوا هؤلاء عن سياسة الدول ، وفصلوا الدين عن الدولة ، ومع ذلك لم تخل المجتمعات الأوروبية بعد النهضة الحديثة من اقطاعيين ، يسيطرون بمالياتهم ونفوذهم على مصائر الأمور فى دولهم ، ويسخرون كل شيء لمآربهم .. فقامت نتيجة لذلك .. تلك النظريات الحديثة التى اعتنقها الملايين من الناس ، تخلصا من ظلم الإقطاعيين ، وأصبح للاشتراكية دول تقوم عليها وتعمل لها ، وتحمى نظامها ، وتحاول أن تفرضه على العالم ، كما أصبح لها أنصار فى كل مجتمع يئن من ظلم الإقطاعيين .

ونحن فى مصر قد رأينا مهازل يمثلها أمامنا كثير من الإقطاعيين ، وعرفنا كيف خضعت الدولة زمنا طويلا لمآرب هؤلاء الترفين ، وكيف سخروها للاستزادة من المال ، والتمكين لهم من ظلم الشعب وكبت أنفاسه . . . رأينا كبار الماليين يسيطرون على البرلمان ودوائر الحكومة ، ورأينا صورا من الظلم تقشعر لها الأبدان ، ولم يجد الشعب من يرحمه لأن حكامه كانوا هم جلاديه . . وغرق هؤلاء الترفون إلى الأذقان فى الفساد وعلموا الشعب كيف يهزل فى وقت الجد ، وكيف تعلو الرذيلة على الفضيلة ، وكيف يسود المفسدون الماجنون . ويموت كمدا وغما الفضلاء المصلحون . رأينا هؤلاء يحاربون كل قانون يتصورون فيه شيئا يحد من سيطرتهم ، أو يقتطع شيئا ولو تافها من ماليتهم ويعطلون جهاز الدولة من أجل مآربهم . وسار الجهاز الحكومى فى هذا الاتجاه الفاسد حتى تعفنت الأمور ،

وفسدت النفوس واتجهت إلى المشاركة فى الفساد والإفساد وكانت نغمتهم فى هذا :

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا   فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

رأينا هؤلاء المترفين ، وكثيرا ممن تعلموا فى الغرب ، وتأثروا بالحياة المتحللة فيه ، يشيعون فى الأمة روح الفساد والتحلل ، ويرون فى كل دعوة جادة إلى الأخذ بفضائل الإسلام ؛ للقضاء على التحلل والفساد .. دعوة للقضاء عليهم ، وعلى مآربهم وملذاتهم ، وحرمانا لهم من حياة اللهو والمجون والانطلاق التى ألفوها ، وعاشوا وتنفسوا فيها ، فحاربوا كل صوت يدعو للفضيلة ، والرجوع إلى تقاليدنا العفة المجيدة ، وسخروا ممن يحمل هذه الدعوة ، وحاربوه بكل وسيلة ، وهم بذلك منطقيون مع أنفسهم ومصالحهم ، وتاريخ أمثالهم ، لأنهم يريدون أن يعيشوا كما تعودوا ، وكما عاش أمثالهم من قبل .

وعلى رواد الإصلاح من ناحيتهم ، ألا يفزعوا من موقف هؤلاء ، أو يداخلهم يأس بسبب ما يلاقون ، فهم حملة الدعوة التى حملها الرسل والمصلحون من قبلهم ، ولاقوا بسببها العنت والإرهاق ، وعليهم أن يتحملوا كما تحمل هؤلاء الدعاة ويثابروا كما ثابروا ، ويجاهدوا كما جاهدوا .

وعلى الشعب المؤمن البرىء أن يؤازر دعاة إصلاحه ، ويلتف حولهم ويناصر دعوتهم حتى يتخلص من رجس المترفين ، ومن يعيشون عيشتهم ، ويعتنقون فكرتهم ، ليجنى ثمرة هذه الدعوة اطمئنانا فى حياته وعدلا فى قضاياه .

ولقد جاءت الثورة فقطعت رأس الفساد ، واجتثت شجرة الترف والمجون واللهو ، واتجهت إلى الداء تعالجه من أساسه ، فصادرت بعض الأملاك التى امتلكها أصحابها دون وجه مشروع ، وأرجعتها للشعب — كما حددت الملكية ، ووزعت ما زاد عن الحد المعلوم على الطبقات العاملة ، فى الأرض ، ولا تزال للآن تسير فى طريقها للقضاء على الترف والمترفين ، لتقرب بين الطبقات وتوجه الكثير من الناس إلى القيم العملية الخلقية ، وتقضى على النزعات الفاسدة التى سيطرت على جماعات تعالوا على الشعب ، وجعلوا أنفسهم من طينة أخرى ، ورموا الطبقات العاملة فى المصانع أو المزارع ، بأنهم عبيد إحساناتهم وعنوا بكلابهم وقططهم أكثر مما يعنون بفلاحيهم أو عمالهم ، وامتصوا دماء الشعب

وكسبوا المال من حرام ليهدروه تحت أقدام الغانيات هنا وفى أوربا . . . حتى صاروا مهزلة متنقلة ، وسبة فاضحة لبلادهم أينما ذهبوا . . . وكانت الثورة وإصلاحاتها تطوراً طبيعيا ، وسنة ربانية فى حياة الأمة ، ولن تجد لسنة الله تبديلا وصدق الله العظيم « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » وما كانت المصادرة للأملاك وحرمان كثير من المترفين من أموالهم التى كانوا بها يترفون إلا نوعا من سنة الله فى الإهلاك والحرمان الذى فعله الله بالمترفين السابقين المفسدين .

ولقد استجاب الله سبحانه لموسى حين دعا ربه أن يذهب بمال فرعون ويهلكه هو وجنوده ، وكانت هذه الدعوة مصادرة للمال بأسلوب الدعاء المناسب للانبياء «ربنا انك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ... قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » .

وهذه الحالة التى شكونا منها فى مصر ليست خاصة بها ، ولكنها تسود كثيرا من المجتمعات الشرقية ، غاية ما هناك أنها قد تختلف شدة وضعفا ، حسب البيئات الخاصة ، وظروفها المختلفة ، وأخشى ما أخشاه أن يظل الحاكمون لهذه المجتمعات غافلين عن حقائق الحياة وتطوراتها ، ونفسيات الشعوب وتقلباتها ، بعيدين عن حكم الإسلام الحق فى علاج ادواء مجتمعاتهم ، فتكون نتيجة ذلك أن تصاب بهزات عنيفة لا تؤمن عواقبها ، فان الشيوعية تخطف ببريقها كل ساخط غاضب .. وتنتهز — بل تفتعل — هذه الهزات ، لتستولى على النفوس ، وتجذبهم إلى حظيرتها . .

ولو عقل الحكام والمترفون لعرفوا أن مصلحتهم تحتم عليهم أن يتنازلوا عن كثير من طبائعهم وحرصهم ، وأن يضحوا بكثير من ماليتهم ، ليحفظوا شيئا لهم ، وأن ينزلوا على حكم الواقع ، وأن يعرفوا أن هدوء النفس مع قليل من المال ، خير وأجدى على الإنسان من كثير من المال مع القلق والخوف ... وأن رضا الله ومحبة الشعوب هما النعمة الكبرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .

٣ – الإسلام وزينة الحياة الدنيا

قال الله تعالى :

« وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ، وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

(آية ٦٠ من سورة القصص)

مما يمتاز به الإسلام على غيره ، فى تشريعاته وتوجيهاته ، اعترافه بالطبائع البشرية ، وملاحظة مجاريها فى حياة الإنسان ، ثم رفقه الشديد به ، فلا يحاول لذلك أن يقضى على هذه الغرائز أو يجتثها من أساسها ، ولا يرهق الإنسان بحرب عنيفة بينه وبينها ، وكل ما يتدخل الإسلام من أجله ، إنما هو تعديل الخطر منها على الأخلاق ، وعلى حياة المجتمع ونظامه ، تعديلا يتفق مع الاتجاهات الطيبة ، والأهداف الفاضلة ، وفيما عدا ذلك ، يسمح به ، على شرط ألا يطغى على الجانب الخلقي : أو ينغص على الناس هدوءهم وروحانيتهم ، ونستطيع أن نلمس أثر هذا كله فى نظرة الإسلام لزينة الحياة الدنيا .

فهو يحول بين الناس وبين الرهبانية ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويفتح الباب واسعاً أمامهم ، ليتمتعوا بالدنيا كما يريدون ، ما داموا فى حرص على أخلاقهم ، ونحن نريد فى هذا البحث أن نتابع آيات القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، لنخرج منها بتصور صحيح عن وجهة نظر الإسلام إلى الدنيا وزينتها ، فان قوما تصدوا للناس ، يصورون لهم الحياة الدنيا والعمل فيها بصورة بشعة ، ينفر منها العقلاء المؤمنون ، حتى كان من نتيجة ذلك ، أن انصرف المسلمون عن العمل للدنيا ، وتركوا ميدانها لغيرهم فاحتله وسيطر عليه ، وزحف على المسلمين فاستولى عليهم ، وأمسك بزمامهم ، حتى فقد المسلم كل سيطرة

وسلطان حتى على نفسه ، وأصبح المسلمون هملا تابعين لغيرهم ، فهم إذن فى أشد الحاجة الآن إلى من يصور لهم الإسلام ، ونظرته الصحيحة للحياة والعمل لها والتمتع فيها ، حتى يقبلوا عليها ويعملوا فيها ، من أجل سعادتهم ، وتقوية سلطانهم ، وتحصيل العزة التى كتبها الله لهم .

وإنك لتجد وأنت تستعرض آيات القرآن الكريم آيات تصور لك وتشعرك بأن الدنيا كلها قد خلقت للانسان ، من أجل متعته وحياته الراضية الرغدة ، فيقول الله تعالى « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا »(١) ويقول « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ماسألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها »(٢) والله هو الذى هيأ له سبيل المعيشة فى الأرض ، وهداه إلى التمتع بما فيها من طيبات ، ومن عليه بإيجاد هذه النعم له فيقول « الذى جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون »(٣) ويقول « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون »(٤) ويقول « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »(٥) — ثم نجد القرآن يصور هذا المعنى بلغة وسياق آخر فيقول « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم »(٦).

(١) سورة البقرة آية ٢٩
(٢) سورة ابراهيم آيات : ٣٣، ٣٤
(٣) سورة الزخرف آية : ١٠
(٤) سورة يس آية ٧١ — ٧٣
(٥) سورة النحل : ١٠ — ١٤
(٦) سورة عبس : ٢٤ — ٣٢

وهكذا تجد القرآن فى هذه الآيات وفى كثير غيرها ، يذكر نعم الله على عباده ، ويمن بها عليهم ، ويحرضهم من أجلها على الشكر ، والاستقامة فى هذه الحياة ، لتوفير السعادة للبشرية كلها ، ويعنى القرآن بتفهيم الإنسان أن هذه الدنيا وما فيها من نعم كبرى ، إنما خلقت له هو ، ليعمرها ويتنعم بخيراتها ، حتى مالا يستطيع الإنسان بقوته تسخيره ، سخره الله له ، وجعله ذلولا طيعا لإرادته ، حتى يتم الله عليه نعمته .

ومن الطبيعى — والحالة هذه — أن يكون التمتع بهذه النعم كلها ، مما أباحه الله ، بل مما ندب إليه ، ودعانا له ، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، ويكره منا أن نعطل مخلوقاته ولا نستغل فضله ، أو نعب من خيراته .

فمن الخطأ إذن أن تشيع فى المسلمين نغمة خبيثة مرذولة ، تدعوهم إلى الانكماش ، وتباعد بين الدين والدنيا ، وتضع حداً حاجزاً بينهما ، وترسم للمؤمنين صورة من الحياة ، بعيدة عن طلب الدنيا ، والعمل فيها ، والإقبال عليها ، وتدعوهم إلى أن يكرهوها ويمقتوها ويمقتوا معها كل سعى جاد ، وكل عمل شاق ، وتصور لهم طلاب الدنيا بأنهم : الساعون فى طلب أرزاقهم ، الضاربون فى مناكب الأرض لاستخراج كنوزها ، العاملون على زيادة ثرواتهم ، واقتناء متاع الحياة الدنيا أو هكذا فهم الناس من موجهيهم ، واستولى عليهم هذا الفهم ، إبان فترة الضعف التى مرت بالمسلمين ، أو إن شئت فقل إنها كانت من المعاول التى شاركت فى هدم صرحهم ، حتى لنرى خطب الجمع المدونه الموروثة من أجيال بعيدة تصور الحياة هذا التصوير البشع .

وقد يكون قصد هؤلاء الواعظين أن يصرفوا الناس عن التكالب ، والانكباب الشرس على تحصيل الرزق من طرق غير كريمة ، وفى مناقشة تثير الأحقاد ، وهذا حسن ، لكنهم لم يعنوا بتفهيم العامة الفرق الدقيق بين هذا المعنى الكريم ، وبين المعنى الآخر الخطر الذى فهموه ، وأثر على مجرى حياتهم ، فقد فهموا من هذا التصور أن الإسلام لا يريد من الناس أن يسعوا على أرزاقهم ، أو على الأقل يعتبر الاشتغال بذلك جرياً وراء الدنيا الفانية ، مع أن هناك ما هو أفضل من هذا عند الله ، وهو العبادة وترتيل القرآن والانقطاع لذلك .

كما فهموا أن الإسلام لا يبيح لهم التمتع بالطيبات ، أو على الأقل عدوا ذلك من مظاهر الرقة فى الدين ، والنقص فى الإيمان واعتبروا إهمال المظهر ، وعدم نظافة الثياب ، أو جمعها من رقع كثيرة ، وترك اللعاب ينساب على الذقن ، والملابس من مظاهر التدين .. والولاية ، وسيطر هذا التفكير الغريب والتوجيه السيء على المسلمين قرونا طويلة ، حتى أصبح العمل فى الحقل والمصنع وسط المسلمين غير مرغوب فيه إلا إذا كان الإنسان إليه مضطراً ، وهو حينئذ يعمل للدنيا لا للدين ، وشتان بين هذا وذاك .. شتان فى نظر هؤلاء بين العامل الكادح الساعى فى الدنيا لرزقه ، وبين هذا الدرويش المتبتل المتعطل ، الذى يدعى الإيمان أكمل الإيمان ! ! ويدعى العمل للآخرة ، لأن ذاك يعمل لدنياه ، حينما يضرب الأرض بفأسه ، أو يسوق الغنم بعصاه . . !

ولقد جنى هؤلاء على الإسلام — بنظرتهم هذه — جناية لم يجنها عليه أعداؤه وكفاهم أنهم كانوا من أسباب ضعف المسلمين ، وتمكين أعدائهم من رقابهم ومصائرهم ، كل هذه القرون الطويلة ، ولا يزال العالم الإسلامى يئن من أوجاعه التى خلفتها فيه هذه النظرة الخاطئة فى فهم الإسلام .

وقد كاد جماعة من المسلمين الأول والرسول صلى الله عليه وسلم وسطهم يعلمهم ويرشدهم أن يفهموا هذا الفهم ، فحال بينهم الرسول وبينه . وهم جلوس يتعلمون منه — فقد رأوا شابا ذا جلد وقوة يحمل فأسه ، ويتجه إلى عمله فى حقله ، فقالوا : « لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله » كأنهم رأوه يعمل فيما لا يفيده عند الله — فلم يرتض الرسول صلوات الله وسلامه عليه — وهو المربى والموجه الأعظم لركب الانسانية — لم يرتض هذه النظرة منهم وقال لهم : « لا تقولوا هذا فإنه إن كان يسعى على نفسه يعفها عن المسألة فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى على أولاد صغار يطعمهم ويسقيهم ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى إباء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان »

وبهذا صحح الرسول لأتباعه فهمهم ، وحال بينهم وبين الانتكاس ، وجعل العمل والنية الطيبة فيه جهادا فى سبيل الله أى عمل كان . ولكن كل هذه المعانى

لم يلتفت إليها أولئك المتكسون المتأخرون ، الذين جنوا على الإسلام وعلى أبنائه .

إن الاسلام لا ينكر على الناس حبهم للمال والبنين ، ولا يغضب إذا أحب الانسان زينة الحياة ، ومتع نفسه بمتعها ، فأكل طيبا ، ولبس طيباً ، ونزل مسكناً طيبا واقتنى أنخر الرياش والأثاث ، الإسلام لا يكره هذا ، بل يعده خيرا حسنا وكل ما يعمله فى هذه الحالة ، ويتدخل فيه إنما هو تنبيه المسلم إلى أن هذا الخير الذى يقبل عليه فى الدنيا ، ويتمتع به لا يليق أن يدعوه إلى البطر أو إلى نسيان فضل الله عليه ، بل عليه أن يتذكر ربه المنعم من خلال كل نعمة تصل إليه ، ويذكر الله بها ويشكره عليها شكراً قلبياً وعملياً ، حين يشرك معه غيره من عباد الله فى أفضال الله عليه ليفوز عنده بعد الموت ، بما هو خير وأبقى من نعم الدنيا التى أحبها ، فالقرآن يعترف بزينة الحياة ونعمها ولذتها عند الإنسان ؛ ويتخذ من مكانتها هذه عنده سلما يدعوه به إلى ما هو أحسن منها ، ويحرضه بذلك إلى حسن التصرف فيها فكأنه يقول له . . . هذه أشياء أحببتموها لما فيها من خير وحسن . وعندى فى الآخرة ما هو أحسن منها ، لو أحسنتم فى الدنيا التمتع بهذه النعم ، وشكرتم الله عليها ، وحرصتم على الفضائل ، فلم تنسوها فى غمار التمتع بخيرات الحياة الدنيا . . عندى فى الآخرة جائزة عظيمة ، أحسن من كل ما تمتعتم به فى الدنيا ، لو أحسنتم التصرف فى متعتكم الدنيوية .

وهذا تحريض لا على ترك طيبات الحياة الدنيا ، والعمل لتوفيرها ، بل على الفوز معها بطيبات الحياة الأخرى كذلك ، وقد عالج القرآن كثيراً هذه الناحية ، لأن الله الحكيم الذى نزل الكتاب ، يعلم خفايا النفوس وطبائعها وهو القائل « كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » (1).

فهذه طبيعة النفوس ، كلما ملكت مالا نزعت إلى الشر ، وابتعدت عن الفضائل والخير ومن أجل هذا يحاول القرآن التخفيف من هذه النزعة ، ويستميل الإنسان الغنى التمتع بطيبات الحياة إلى متعة أخرى أفضل وأبقى مما فى يده فى الدنيا . .

---

(1) سورة العلق : آية ٦، ٧

اقرءوا معى قول الله تبارك وتعالى من سورة آل عمران[1] :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا »

فهو فى هذه الآية يتحدث عن الطبيعة البشرية ويبرزها واضحة ، أمام أصحابها ويخاطب الإنسان بما فى قرارة نفسه من حبه لهذه الأشياء المشتهيات ، من النساء والبنين والقناطير المقنطرة إلى آخره . . . وما كان الإسلام ليطعن على الناس حبهم الطبيعى لهذه الأمور ، فان هذا الحب هو أساس الاقبال على الحياة ، وتعمير الكون الذى أراده الله من خلق آدم ، وإنزاله للأرض فلا يعقل — إذن — أن يحارب الإسلام أو يعيب حب الآباء للأبناء أو حب الرجال للنساء أو حب الناس للمال ، وما كان يعقل مطلقاً أنه يحاول نزع هذا الحب الطبيعى من نفوس الناس لأنه إن فعل فأنما يحاول عبثاً ، ويكلف الأشياء ضد طباعها ، والله تعالى منزه عن ذلك . .

فهو إذن يتحدث عن الطبائع البشرية ، وميلها لهذه الأشياء ، ولا يعيب عليها هذا الميل فى ذاته ، بل ولا يحاول اقتلاعه ، وكل ما يفعله فى هذا الصدد ، إنما هو التوجيه ، فهو يذكر الإنسان بأن هذه المشتهيات التى يحبها ، يوجد عند الله ما هو خير منها وأفضل ، فلا يليق أن يشغله الأدنى عن الأعلى ، ولا يجوز أن يبيع الكثير الباقى بالقليل الفانى ، فاذا وقع منه ذلك ، كان فى نظر العقلاء غير عاقل بل فى نظر الذين يحبون المتعة غير حصيف ولا حاسب ، لأنه استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير . ولا يكون ذلك إلا حين يعكف على هذه المشتهيات ، ويجعلها غايته ، فيسىء التصرف فيها ولا يسلك الطريق الحلال فى التمتع بها ، ولا يشكر الله عليها ، ولا يجعلها سلما يرتقى به إلى ما هو أعلى وأبقى . .

ويمكن أن تلمسوا معى هذا المعنى الذى أريد أن تحيطوا به من آيات القرآن الكريم حين تقرءون معى قوله تعالى — بعد أن قرر فى الآية حب الناس لهذه المتع « والله عنده حسن المآب ، قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم

---

(١) آية ١٤

جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد »

وشبيه بهذا قول الله فى موضع آخر « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا »[1] وقوله تعالى فى سورة الشورى « فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون »[2] .

فكل هذه الآيات ولها نظائر كثيرة فى القرآن تقرر أن كل مايؤتاه الإنسان فى الحياة من مال وبنين وغيرهما ، إنما هو من متع الحياة الدنيا وزينتها ، وهى متع بسيطة قليلة ، تكتنفها المنغصات ، إذا قيست بمتع الحياة الأخرى الباقية ، والإنسان المؤمن يستطيع أن يجمع بين المتعتين ، فيمتع نفسه بما فى الدنيا من زينة طيبة حلال ، دون إسراف مع تذكر الله المنعم ، وأداء حقه ، ويكون فى الوقت نفسه قد هيأ له متعة أخرى عظيمة عند الله ، فيفوز بالحسنيين فى الدنيا والآخرة ، وهكذا يعترف الإسلام بالغرائز الكامنة فى النفوس ، ويعد لها الناحية التى يستفيد بها صاحبها ، ويستفيد المجتمع معه ، فهو حين يقر حب الإنسان لمتع الحياة من مال وبنين كأنه يدعوه إلى الاستزادة منهما ، ومن الخيل المسومة والأنعام والحرث ، فيندفع إلى العمل والجد بكل الوسائل ، حتى يحصل من هذا كله على أكبر نصيب ، ولكنه لا يتركه يجرى وراء طبيعة الحرص وحب المتعة ، حتى تستولى عليه وتدفعه إلى المزالق وإضرار الغير ، ونسيان حق الله ، بل يذكره ، ويأخذ بلجام نفسه كيلا يندفع ويتهور ، ويستغل فيه حبه للمتعة ، فيدعوه إلى الاعتدال وإلى اكتساب متعته من طريق شريف ، ليفوز عند الله بمتعة أوفر وأبقى .

* * *

هذا الفهم الصحيح للقرآن ولنظرة الدين للحياة غاب عن كثير من الناس ،

---

(١) سورة الكهف : ٤٦

(٢) سورة الشورى : ٣٦

ولا سيما بعض الوجهين من العلماء ، فحولوا هذا الدين السمح الرحب ، المتسق مع الحياة ، وطرق النهوض والسيادة فيها ، حولوه إلى دين متزمت متحجر يعارض الطبائع البشرية ، ويحارب الغرائز حربا عنيفة ، حتى ليكاد يقتلعها ، حولوه إلى دين يدعو إلى الرهبانية والكسل ، والجمود ، وترك وسائل الكسب والقوة للعاملين من غير أتباعه ، وما كان لدين يدعو أتباعه إلى العزة والسيادة فى الأرض أن يدعوهم مع ذلك إلى الجمود ، وترك وسائل التكسب ، وإهدار قيمة المال ، ما كان لدين يقول لأتباعه « كنتم خير أمة أخرجت للناس » أن يجعلهم أمة كلام وثرثرة ، تاركة لغيرها العمل وكسب المال ، وما كان للدين الذى جعله الله الدين الخالد لأمم الأرض جميعاً أن يجعله متعارضاً مع الحياة السلمية ، والأوضاع المستقيمة متعارضاً مع حكمة الله فى تعمير الكون به ، واستخراج كنوزه ، والتمتع بخيراته .

نعم ما كان الإسلام هكذا ، ولا يرضى بالوضع الشاذ الذى ارتضاه له أناس من أهله ، حين صوروه بصورة الدين المتعارض مع الطبيعة ، البعيد عن مسايرة الحياة والتسابق الشريف فى ميادينها ، وعندنا من الآيات الصريحة ما يرسم لنا الطريق الواضح للسير الناجح فى هذه الحياة ، لأننا إذا تتبعنا آيات القرآن الكريم وجدنا فيها آيات صريحة واضحة ، تقرر وجهة نظر الاسلام من متع الحياة الدنيا وزينتها ، اقرءوا معى قول الله تعالى « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »(1).

فالله — سبحانه — يأمر عباده أن يتزينوا ، ويتمتعوا بمتعة اللباس وغيره من كل مايزينهم ، إذا ذهبوا إلى عبادته ومناجاته فى بيوته ، وإذا كان هذا مدعوا إليه عند مناجاة الله وعبادته فهو فى المواقف الأخرى أولى وألزم ، أو على الأقل مدعو إليه كذلك ، ثم نجد الآية الكريمة تقرر مبدأ هاماً فى حياة الإنسان ، يضبط به أمره « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين » هذا هو الميزان فى حياة الإنسان ، يأكل ما يحب ، ويشرب مايشتهى ، ويتمتع كما يريد ، فى الحدود الطيبة ، دون إسراف .

---

(1) سورة الأعراف : ٣١

وتشبه هذه الآية آية أخرى فى سورة الفرقان ، فى صدد بيان عباد الرحمن ، وتمييزهم بأعمالهم وأوصافهم ، وهى قوله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما»[1] أى وسطاً بين رذيلتى الإسراف والتقتير ، ثم نجد القرآن بعد أن أمر الإنسان باتخاذ زينته عند كل مسجد ، يقرر مبدأ هاماً صريحاً فى أسلوب قوى ، يصور أن هناك جماعة متشددة متزمتة ، تحرم على الإنسان زينة الحياة الدنيا ، بدعوى أن التمتع ليس من الدين ، وأن الحرمان هو القربى إلى الله ، فيرد على هؤلاء المتزمتين وأمثالهم ، ويقرر المبدأ الهام فى هذا الأسلوب القوى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » فهل رأيت قوة تشبه هذه القوة فى تقرير هذا المبدأ ، الذى يحاول أقوام غافلون متنطعون طمسه وهدمه ، فيحرمون على الناس ما أحل الله لهم باسم الدين ، والدين برىء من أفكارهم وتوجيههم ، وقد جاء فى تفسير الكشاف للزمخشرى فى صدد تفسير هذه الآية : كان بنو عامر فى أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلا قوتا ، ولا يأكلون دسما ، يعظمون بذلك حجهم ، فقال المسلمون : فإنا أحق أن نفعل ، فقيل لهم : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » وهذه الآيات حرب على كل من حاول أن ينظر إلى التمتع نظرة سيئة وكذلك على من فكر فى حرمان نفسه من متعها باسم التقرب إلى الله .

والقرآن حين يوجه هؤلاء المتشددين على أنفسهم ، الذين يحرمون عليها ما أحل الله كأنه يقول لهم ، ما لكم تذهبون إلى الحلال فتحرمونه ، وتتشددون وتتنطعون وتتغالون ، وعندكم أشياء محرمة ربما تهاونتم وفرطتم فيها ؟ فإن كنتم حقيقة متدينين ، تطلبون رضى الله ، وترجون القربى منه ، فهذا شرعه الذى حدده ورسمه ، فيها تشددوا فى تحريم هذا الحرام ، والامتناع عن قربانه ، بدل هذا الحلال الذى تحرمونه على أنفسكم ، ولذا نراه يقول مباشرة بعد الآية السابقة: (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق ،

---

(١) سورة الفرقان : ٦٧

وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون[1] » .

هذا هو المحرم وها كم ميدانه ، فعالجوا أنفسكم وامتنعوا عنه ، ولا تتنطعوا فى تحريم النعة الحلال ، بدعوى أنكم متدينون !

وهذه الآيات تخاطب كذلك كل جماعة عنيت بالتوافه ، وتمسكت بمندوب أو سنة ، أو نهت عن مكروه أو ماهو خلاف الأولى ، وجعلت ذلك هو ميدانها ، وأقامت الدنيا وأقعدتها من أجله ، وهى فى الوقت نفسه تفرط فى أداء الواجبات وتتغاضى عن الكبائر من المحرمات ، وتجعل كل همها فى المظاهر الجوفاء ، تنخدع بها فتضيع جهودها ، وتذهب هباء أعمالها ، ويصاب المجتمع بنكسة من جراء تصرفاتها ، ولوشئت أن أضرب الأمثال لتصرفات من هذا القبيل، لوجدت الكثير ، ولكن يكفى ما أعرفه من أن كل قارئ يحس معى وجود مثل هذه التصرفات ، سواء كانت صادرة من أفراد أوجماعات ، ولست أرجو من التنبيه إلى هذا إلا أن نصلح مافينا من عيوب اجتماعية ، وأن نتجه إلى اللباب لا إلى القشور ، ونركز جهودنا فى الموضوع لا الشكل ، حتى تثمر أعمالنا الثمرة التى نبتغيها .

وعندنا حديث صريح يتصل بموضوعنا ، ويتلاقى مع الآيات التى سقناها من قبل ، ويكاد يكون فصل المقال ، فى هذا الموضوع ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: « كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة » فليس هناك ماهو أوضح ، ولا أصرح من هذا الحديث ، فى تحديدالتمتع بطيبات الحياة ، فهو يطلق للانسان حريته فى التمتع بها ، ما دام ذلك لا يؤثر على نفسيته ، فيهيج فيها الكبر والخيلاء ، ولا يؤثر على سلوكه فيدفعه إلى السرف الممقوت ، والحرام المرذول ، وما عدا ذلك فهو حلال ، يتمتع به كيفما شاء ، ويقتنى من الأثاث والرياش والمركبات ما يستطيع ، على ألا يؤثر ذلك عليه فيطغى ، وينسى من حوله ممن وصاه الله بهم .

ثم تعالوا معى إلى آيات من القرآن الكريم تحدثنا عن هذا المعنى أيضا . يقول الله تعالى : (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل

---

(١) سورة الاعراف : ٣٣

مسمى[1]» فهذا المتاع الحسن ، الذى يعطيه الله لعباده التوابين المتطهرين ، إلى أن ينتهى أجلهم فى هذه الحياة ما هو ؟ أليس هو زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ أليس هو المال الكثير الذى يتخذه الإنسان وسيلة لمتعته فى هذه الحياة ؟ ثم إن الله حين يعد عباده المتقين بالحياة الطيبة فى الدنيا فيقول : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة[2]» ماذا يريد بالحياة الطيبة ؟ هل يريدها فقط حياة الفقر والشظف والمسغبة ؟ كلا ، إنما يريدها حياة يزينها المال الوفير ، الذى يسخره الإنسان لمتعته ومشروعاته ، والله حين يقول على لسان نوح عليه السلام لقومه : « استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا[3]» هل كان يعدهم نوح على الاستغفار والطاعة بالحرام والمكروه ؟ .

وحين يقول الله : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض[4] » وحين يقول : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا[5]» هل يريد ببركات السماء والأرض ... الفقر والجوع ؟!! أو يريد المال الوفير والخير الكثير ؟ وهل يكون المال إلا للمتعة والزينة ، وتسخيره لأغراض الإنسان المادية والروحية ؟ ؟ ! . وإذا كان جزاء التقوى فى الدنيا وفرة المال ، وكثرة الخيرات للجماعات والأمم ، فهل يعقل بعد ذلك أو يتصور أن يكون التنعم بهذا المال ، وهذه الخيرات مما لا يرضاه الإله . . ؟

وأمامنا آيات كريمة استدعى نزولها اتجاه جماعات من الصحابة إلى التقرب لله ، بحرمان أنفسهم من طيبات ما أحل الله لهم ، فلم يرض الله عن اتجاههم ، وأنزل من قرآنه آيات صريحة ، تعتبر من أقوى الآيات دلالة فى هذا الموضوع . حيث تبين الوضع الصحيح أو النظرة السليمة التى يجب أن يفهمها المسلمون فى هذا الموضوع ، لأن هؤلاء

(١) سورة هود : ٣
(٢) سورة النحل : ٩٧
(٣) سورة نوح ١٠ ، ١١ ، ١٢
(٤) سورة الأعراف ، ٩٦
(٥) سورة الجن : ١٥

الصحابة رضوان الله عليهم اعتزموا البعد عن متارف الحياة الدنيا ، والانقطاع عن متعها ، والانصراف إلى حياة التقشف والحرمان ، ظانين أن ذلك مما يزيدهم قرباً إلى الله ، ولكن الله أبى — وهو الكريم — أن يتركهم على هذا الفهم للاسلام ، وهو فى مستهل نشأته ، وهم فى موضع القدوة لمن يأتى بعدهم ، فأنزل الله آيات من قرآنه تنهاهم فى شدة وقوة عن هذا الفهم والاتجاه .

وإنا لنلمس هذه الغيرة من جانب الله وشدته فى النهى من ألفاظ الآية نفسها : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون[1] » فأنتم ترون أن النهى لم يكن نهياً مجرداً ، بل فيه « ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » . ثم بعد هذا يقول لهم : « ولا تعتدوا » مع أنهم لم ينووا إلا خيراً ، لكن المغالاة فى الدين ، ومحاولة التقرب إلى الله بما لم يشرعه ، ثم حرمان النفس من طيبات ماساقه الله إليها حلالا طيبا ، كل ذلك اعتداء على تشريع الله ، واعتداء على السنن الطبيعية ، واعتداء على النفس الإنسانية ، حين يكلفها الإنسان شدة وعنتا ، دون أن يكون ذلك فى محله من رضى الله وتوجيهه ، ولذلك ينذرهم الله بعد هذا النهى الشديد ، ويقول لهم ، إن الله لا يحب منكم هذا ولا يحبكم إذا أقدمتم عليه لأنه « لا يحب المعتدين » .

وقد جاء فى تفسير المنار لهذه الآية أن بعض الصحابة رضى الله عنهم ، استشاروا نبى الرحمة صلى الله عليه وسلم فى تحريم الطيبات والنساء ، على أنفسهم ، وتركها بعضهم من غير استشارة ، اشتغالا عنها بصيام النهار وقيام الليل ، فنهاهم عن ذلك وأنزل الله تعالى هذه الآية ، وما فى معناها من الآيات فى تحريم الخبائث وفى المنة عليهم بحل الطيبات ، وبين ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله وفعله أحسن بيان ثم قال ، وإننا نذكر هنا بعض الأخبار والآثار المروية ، لتكون حجة على أهل الغلو فى هذا الدين ، الذين تركوا هدايته السمحة ، إلى تشديد

---

(١) سورة المائدة ٨٧ ، ٨٨ .

الغابرين ، وصاروا يعدون زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق خاصة بالكافرين ، حتى كأن المشارك لهم فيها خارج عن هدى المؤمنين .

ثم أورد بعد هذا عدة روايات فى سبب النزول ، وكلها تجمع على أنه كان هناك أشخاص من الصحابة ، أرادوا أن يتقربوا إلى الله بحرمان أنفسهم من طيبات الحياة ، وبالغلو فى العبادة ، اعتقاداً منهم أن ذلك مما يرضاه الله ، ويثيبهم عنه ثواباً عظيما .

وكان من هؤلاء الصحابة الذين ذكرت الروايات أسماءهم على بن أبى طالب ، وعثمان بن مظعون ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، حرموا على أنفسهم كثيراً من الشهوات والنساء ، وقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال الآخر : لا أتزوج النساء ، وقال الثالث : لا أنام على فراش ، وأرادوا أن يتخذوا الصوامع للعبادة ، كما اتخذها الرهبان ، وهموا أن يخصوا أنفسهم ، ويلبسوا المسوح ، وأرادوا أن يصوموا النهار ، ويقوموا الليل ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فغضب وقال: « مابال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ؟! ألا إنى أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى) وقال لعبد الله بن عمرو : (ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال : بلى يارسول الله ، قال : فلاتفعل صم وأفطر ، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينيك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لزورك « أى زوارك » عليك حقا ، وإن بحسبك من كل شهر ثلاثة أيام » وقال عليه الصلاة والسلام فى رواية أخرى : (إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فأولئك بقاياهم فى الديار والصوامع) .

وفى رواية أخرى أن الرسول أرسل يقول لهم : (ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا ! !) قالوا : بلى يارسول الله ، وما أردنا إلا الخير ؛ قال : (لكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآتى النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى) وفى رواية : (لا آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا) .

نلمس من هذه الروايات ذلك الاتجاه النفسى لبعض من أجلاء الصحابة حين ظنوا أن فى الحرمان تقربا إلى الله ، كما فى بعض الأديان التى سبقتهم فنزلت هذه

الآية لتقضى على هذا الاتجاه عند نشأته ، وتقرر الطريق الوسط الذى اختاره الله لهم ، والذى هو طابع الإسلام العام فى كل أموره ، وتنهاهم فى شدة عما أقدموا عليه ، برغم أنهم أعلنوا عن الدافع الطيب الذى دفعهم إلى هذا العمل ، لأن إرادة الخير وحدها فى أى عمل لا تكفى ، بل لابد من سلامة الطريق الذى تسلكه إلى هذا الخير .

ثم لم يكتف الله جل وعلا فى إرشادهم بهذا النهى ، بل أعقبه بأمر واضح صريح فى أن يأكلوا مما أحله الله لهم ، وهذا مما يبين خطورة الأمر وشدة العناية به فيقول : « وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » ثم لم تقف العناية بالأمر عند هذا الحد ، فإنهم لما قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم ، وماذا نفعل فى أيماننا التى حلفنا ، حللهم الله منها وأنزل : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » وليس هناك أشد من هذا كله عناية بالأمر ، واهتماماً به ، ولا عجب فإن اتجاه الإسلام العام وطبيعته الحيوية الاجتماعية ، تتعارض مع هذه الروح التى ظهرت من بعض الصحابة ، وكان اللغو هنا يشمل مثل هذه الأيمان الخارجة عن سنن الله وشرعه .

لعل بعض النفوس تتساءل عن الحكمة فى هذا النهى وتقول ، وأى ضرر فى أن يحرم الإنسان نفسه من بعض الطيبات ، متقرباً بذلك إلى الله ، فهو لم يقصد إلا الخير ، وهل فى ذلك جناية على نفسه أو على غيره ، حتى يشتد الحكيم الخبير فى النهى هذه الشدة ؟ ويعجبنى فى الجواب عن هذا التساؤل ماجاء فى تفسير المنار حيث يقول : (إن الله تعالى يحب من عباده أن يقبلوا نعمه ، ويستعملوها فيما أنعم بها لأجله ، ويشكروا له ذلك ، ويكره لهم أن يجنوا على الفطرة التى فطرهم عليها ، فيمنعوها حقوقها ، وأن يجنوا على الشريعة التى شرعها الله لهم ، فيغلوا فيها بتحريم مالم يحرمه ، كما يكره لهم أن يفرطوا فيها باستباحة ما حرمه أو ترك ما فرضه ، ولأجل هذه الحكمة لم يكتف بالنهى عن تحريم الطيبات ، حتى صرح بالأمر باستعمالها والتمتع بها ، وقد بين تعالى غاية ذلك وحكمته التى أشرنا إليها بقوله : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون[1] » والشكر يكون بالقول والعمل ثم قال : (فامتثال هذا الأمر وذلك

(١) سورة البقرة : ١٧٢

النهى معا ، لا يتحقق إلا بالتمتع بما يتيسر من الطيبات فعلا ، بلا تأثم ولا حرج »
ثم قال : « فعلم مما شرحناه أن امتناع أى امرئ من التمتع بالطيبات التى رزقه الله
إياها ، مع الداعية الفطرية للاستمتاع بها إثم يجنيه على نفسه فى الدنيا ، ويستحق
به عقاب الله فى الآخرة ، بزيادته فى دين الله قربات لم يأذن بها الله ، وربما يترتب
على ذلك من إضاعة بعض حقوق امرأته وعياله ، وناهيك به إذا انتصب
قدوة لغيره » .

***

أظن أن الأمر الآن قد استبان ، والموضوع قد استوفى حقه من البحث لكن
بقيت هناك أشياء تبعث على التساؤل ، وتحتاج إلى الجواب عنها .

فهناك أصوات كثيرة ، طالما سمعناها تردد فضل الزهد ، وفضل الجوع والفقر ،
حتى لتكاد تفضل حياة الشظف والحرمان دينيا عن حياة التمتع بطيبات الحياة الدنيا
وتتخذ من ذلك قاعدة عامة ، أولى بالمسلمين أن يسيروا عليها ، وهذا فى رأيى
خطأ فى فهم الزهد ، لأن الزهد المطلوب من كل مسلم هو عدم التكالب والحرص
على الدنيا ، حرصاً يذهب بقيمة المسلم ، ومثله العليا ، ويخل بالفضائل التى يجب أن
يتحلى بها ، أو يجعل حياته صورة كريهة من الجشع ، أما الزهد الذى يراد به
ترك التمتع الحلال بالطيبات فهو ليس قاعدة عامة فى الدين ، وليس مطلوباً من
المسلمين أن يتبعوه فى حياتهم ، لأن الآيات الصريحة تعارض هذا الاتجاه العام .

وإذا رأينا بعض كبار الصحابة يؤثرون التقشف كعمر رضى الله عنه ، وقد
كان فى مقدوره أن يتنعم بما توفر له من المال الكثير ، فإن ذلك كان لمصلحة عليا
فى سياسة الرعية ، ولم يكن الغرض الوحيد منه مجرد التقرب إلى الله ، فحسب ،
بل كان يريد بذلك معارضة تيار قوى جارف ، حدث فى صفوف المسلمين ، حين
فتحت عليهم خزائن الأرض ، كما أراد أن يحد من اتجاه عماله ، وولاته نحو جمع
المال ، خوفاً عليهم من أن تتفجر فى نفوسهم ينابيع الشهوات ، ويندفعوا وراء
أنفسهم ، يترفون بالمال الكثير الذى صار فى أيديهم ، ولهذا نرى عمر فى الوقت
الذى أخذ نفسه فيه بهذه التربية ، وهذا السلوك ، يبيح لبعض عماله ولغيره من
كبار الصحابة ، أن يظهروا بمظهر النعم التمتع بخيرات الحياة ، ما دام ذلك تتطلبه

الحياة ، وما دام من كسب حلال ، لا يؤثر على نفسية المرء وسلوكه ، فأمر عمر إذن هو ، كما قال بعض الفضلاء : أنه فعل ذلك لحكمة هى أنه كان أمير المؤمنين ، وعماله يقتدون به ، وربما لا يكون لهم مال ، فيأخذون من المسلمين ليجاروا التيار العام ، وهو تيار الترف والتمتع ، فأقام عمر رضى الله عنه من نفسه صمام أمان حتى لا يصاب المسلمون فى أول عهدهم بعمالهم وحكامهم ، وأياً ما كان فالزهد بمعنى الامتناع عن الطيبات تدينا ، ليس قاعدة عامة فى الشريعة ، يطالب من كل مسلم أن يحققها ، ولكنه قد يكون فى بعض الأحيان دواء لبعض النفوس ، تتعاطاه كما يتعاطى المريض الدواء ، ليصلح من نفسه أو نفوس من حوله .

ومع هذا فليس معناه التكاسل ، وترك العمل ، والاعتماد على الغير ، وليس معناه أن يجوع الإنسان باختياره ، ويترك ما يقيم به نفسه ، ويحفظ به صحته ، فإن ذلك جناية على الفرد والمجتمع لا يرضاها الإسلام .

وإذا رأينا بعض أحاديث تفضل الجوع والفقر على الشبع والغنى ، فلا تشك أنها اريد بها حالات خاصة ، لا أنها قاعدة عامة ، لأنها حينئذ تعارض صريح الآيات ، وحينئذ نكون فى حل من عدم الأخذ بها كقاعدة عامة لأنها لا تصلح أساساً للحياة القوية التى أرادها الله لخير أمة أخرجت للناس ، ثم ان بعض الذين يذمون الدنيا والتنعم فيها يعتمدون على قوله تعالى : «من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب »[1] ويقولون مالنا وللدنيا وللسعى فيها ، لقد تركناها لأهلها ، وابتعدنا عنها وعكفنا على عبادة الله لعله يرحمنا ! ! وهذا فهم سقيم واتجاه غير سليم ، وتحريف لكلام الله عن مواضعه ، لأن الآية لا تتعرض لذات السعى والعمل ، ولكن تتعرض للنية والاتجاه فيه ، فهناك جماعة حسنت نياتهم ، وخلصت لله قلوبهم ، فراقبوه فى كل عمل ، وراعوا مرضاته فى كل سعى وكد ، وهؤلاء ، ينالون حظهم من عملهم فى الدنيا وحظهم من نياتهم الطيبة فى الآخرة عند لقاء الله ، وهناك جماعة لا نية لهم فى عملهم ، أو لهم نيـة لا يتجهون بها لله ، بل يريدون قربة من مخلوق ، أو مكافأة عاجلة من مال أو سمعة حسنة يراءون بها الناس ، وهؤلاء ونيتهم ،

---

(١) سورة الشورى : ٢٠

فجزاؤهم لايتعدى دنياهم ، وليس لهم فى الآخرة حظ ، لأنهم لم يتذكروها فى عملهم (وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) . . . فالآية إذن لا تتعرض للمتعة والتزين فى الدنيا ، كما أنها لا تتعرض للعمل نفسه ، ولكن تتحدث عن النية والاتجاه فيه ، والتمتع بنعم الله إذا قصد بذلك التحدث بنعمة الله عليه ، وشكره عليها ، أثابه الله على هذه المتعة ، حتى لو كانت لقمة يضعها فى فم امرأته يداعبها بها — كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والعامل إذا كدح وسعى ، ليعف نفسه وأولاده عن المسألة أثابه الله ثوابا يحرم منه القاعدون العاكفون على العبادة ويلتمسون رزقهم من أيدى الناس كما تفيد الأحاديث الصحيحة . .

وتشبه هذه الآية المتقدمة آيات أخرى فى سورة البقرة[1] تتحدث عن النيات ، وتقسم الناس حسب نياتهم وتبين ثوابهم تبعاً لهذه النيات ، فتقول : « فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » .

فالقسم الأول : فى الآية هم الذين عكفوا على الدنيا قاصرين نياتهم عليها غير ناظرين إلى ماوراءها وهؤلاء سينالهم ماقصدوه وسيحصلون فى الدنيا ما أملوه ، أما الثواب فى الآخرة فهم محرومون منه ، وليس لهم منه حظ ولا نصيب ، والذنب ذنبهم ، لأنهم لم يتجهوا إلى الله وثوابه فى أعمالهم ، وهذا هو الذى تبرزه آية أخرى « من كل يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون »[2] فيأخذون جزاءهم عاجلا فيها ، أما الثواب فى الآخرة فلا ، لأنهم لم يقصدوه ، بل لم يؤمنوا بالآخرة أصلا ومثله قوله تعالى : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد »[3].

---

(١) آية ٢٠٠ ، ٢٠٢

(٢) سورة هود : ١٥

(٣) سورة الإسراء : ١٨

وفى معنى هذا قوله عليه الصلاة والسلام : « ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » وليس له زيادة على ما أراد .

والقسم الثانى : جماعة عندهم بعد نظر وفيهم إيمان ، فجمعوا ما بين الحسنيين فسعوا وكدوا وراعوا وجه الله فى سعيهم وكدهم ، واتجهوا إلى الله بنياتهم وآمالهم أن يثيبهم الله على ما يفعلون ، فرزقهم الله على حسب نيتهم ، فوفر لهم فى الدنيا بعض ما كسبوا من مال يتمتعون به متعة حلالا طيبة حيث نعموا به هم ومن حولهم من عباد الله المحتاجين .

وفى الآخرة سيوفيهم الله جزاءهم غير منقوص ، فحصلوا بذلك خير الدنيا وخير الآخرة ، وما حسنة الدنيا التى طلبها هؤلاء إلا العيش الهنىء العزيز بنعمة المال والولد والحرية ، وهل تكون حسنة الدنيا إلا هذا ؟ وقد استجاب الله لهؤلاء المعتدلين ووعدهم وعداً حسنا حين قال : « أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » .

فهذه الآيات لا تتعرض إذن لذات السعى والكد والعمل لجمع المال وتحصيل القوت للنفس والعيال بذم وتنقيص وحاشا أن يفعل الإسلام القوى هذا أو يرتضيه ، ولكن الآيات كسابقتها تتحدث عن النيات والاتجاهات ، تتعرض لنفسيات الناس . فى كدهم وكدحهم ، وتوفى كل اتجاه جزاءه ولا تظلم الناس شيئاً ثم تعلن ذلك فى وضوح لتصلح من شأن النفسيات المريضة ، وتوجهها الوجهة السليمة ، التى تؤهل صاحبها لاكتساب الحسنيين ، وماذا على العاقل الحصيف لو أصاب بعمله هدفين وحصل ثمرتين فجمع المال بسعيه فى الدنيا ، وأنفق منه على المحتاجين فاكتسب المتعة والسمعة الحسنة وحب الناس له فى الدنيا . . وفى الآخرة ينتظره الجزاء المضاعف . . ولأجر الآخرة خير . .

وأحسن تطبيق لهذا المعنى الذى أريد تجليته وتوضيحه ما تفيده آية أخرى من القرآن الكريم عن جماعة من الصحابة الذين قاتلوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحد يقول الله عنهم : « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » فالذين أرادوا الدنيا ، هم الذين خالفوا أمر الرسول ، وتركوا أماكنهم جرياً وراء المغانم يجمعونها ، أما الذين أرادوا الآخرة فهم الذين ثبتوا فى أماكنهم ، يدافعون

بأرواحهم عن الرسول وصحابته ، ويقاتلون دونهم حتى الممات ، فإرادة الآخرة — وهذا هو شاهدنا فى الآية — لم تكن كسلا وعجزا ، ولكنها كانت تتمثل فى قتال عنيف تطيح فيه الرءوس وتزهق فيه الأرواح ، قتال يحقق للمسلمين النصر والعزة والسيادة فى هذه الحياة الدنيا كما يحقق لدينه الغلبة على أعدائه . .

وهكذا تظهر روح الإسلام قوية فى كل آية من آياته ، وتهوى على الكسالى المتبطلين الذين يظنون الإسلام عجزاً وكسلا . وبعداً عن التمتع بالحياة الدنيا وزينتها.

فهل تفطن الأمة الإسلامية — وهى الآن لقمة سائغة للدول الأجنبية — هل تفطن إلى نظرة الإسلام الصحيحة للحياة ، وتعرف أن دينها يحتم عليها أن تكون هى المسيطرة على مقومات الحياة فيها من كل نواحيها زراعية وتجارية وصناعية وحربية وعلمية ، فيكون فى يد المسلمين مفتاح التوجيه والقيادة فى كل مضمار ؟ ! هل تفطن الأمة الإسلامية إلى أن دينها هو دين الحياة القوية الطيبة دين ينظر للمؤمن القوى نظرة أسمى وأجل من نظرته للمؤمن الضعيف ، ويعتبر اليد العليا خيراً من اليد السفلى ، ويفضل الغنى الشاكر المتصرف فى ماله تصرف الرجل الحصيف الذى يبتغى به ثواب الدنيا وثواب الآخرة ، يفضل هذا الرجل كثيراً على الفقير الصابر العاجز الذى لا يملك إلا الصبر على فقره وجوعه ، وهل نفع هذا العاجز أحداً كما فعل الغنى الشاكر ؟ إن خير الناس أنفعهم للناس .

هل يفطن العلماء والموجهون إلى هذا كله ، ويفهمون أن حياة الغنى والتمتع بالدنيا تمتعاً طيباً ، خير ألف مرة من حياة الفقر والذلة والحرمان ؟! هل يفهمون أن عزة الآخرة لا تكون إلا عن طريق عزة الدنيا ؟ . . هل يفهمون هذا فيكفوا عن دعوة الناس إلى الجمود والكسل ، وإلى الزهد الفارغ والتبطل المعيب ؟ ويكفوا عن ذم الدنيا وعن تصوير السعى فيها تصويراً قبيحاً ، فإن المسلمين فى أنحاء العالم الإسلامى فى حاجة إلى أن يفهموا نظرة الإسلام الطيبة للدنيا ، وحبه للعمل ، والكد والكدح ، والسبق فى مضمار الحياة ، وجمع المال من طريق شريف ، فى حاجة إلى أن يفهموا حب الإسلام للغلبة والعزة بالخلق والمال والسلاح . إن المسلمين الآن مرضى بضعف الهمة وقلة المال ، وجهل الصناعة . فبثوا فى نفوسهم أيها العلماء والموجهون روح القوة والثقة بالنفس وحب العلم والعمل ، قولوا لهم لو كان عندنا مال وعلم لسيطرنا على موارد الثروة فى بلادنا

الغنية ، ولأمكن أن نسيطر على العالم كله . . فكفانا ذلة وضعفاً ونوماً وخورا هذه القرون الطويلة التى مرت بنا ، وقد تمكن فيها الأقوياء العاملون من السيطرة علينا ، واستنزاف خيراتنا والتمتع بخير ما فى بلادنا .

إن على الموجهين والمربين للأمة الإسلامية تبعة عظيمة ، ومسئولية كبيرة فى هذه الظروف التى تمر بنا الآن ، فإن ركب الحياة يسير ، وليس فيه مكان للقاعدين ، أو المبطئين ، فعليهم أن ينفخوا فى المسلمين روحاً جديدة ، أستغفر الله بل الروح الإسلامية الأصيلة التى بعثت العرب من مرقدهم ، وجعلت منهم أمة تسيطر على العالم فى فترة قصيرة من الزمان .

ورضى الله عن عمر بن الخطاب فقد رأى جماعة من المتعطلين يدعون التوكل على الله فعلاهم بالدرة وقال لهم : ما أنتم بمتوكلين ، إنما المتوكل من يزرع الحب ، وينتظر الحصاد من الرب ، ورأى رجلا يسير منكس الرأس ، فاهما أنه بهذه الصورة يحقق معنى التدين والتواضع فعلاه بدرته وقال له : ارفع رأسك يا رجل لا تمت علينا ديننا أماتك الله .. نعم إنه دين العزة فى داخل النفس ، وفى كل مظهر من مظاهر الحياة .

فليفهم المسلمون — إذن — دينهم جيدا ، وليستمدوا منه روح الحياة السعيدة ، وليتجهوا إلى العمل ، وإلى الدنيا بكل قواهم ، جاعلين شعارهم ودعاءهم فى جميع أحوالهم « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

٤ — علاقة المسلمين بغيرهم

قال الله تعالى :

« لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

(آخر سورة المجادلة)

هذه الآية ومثيلات لها فى القرآن الكريم تحدد موقف المسلمين من أعدائهم الذين يحاربونهم ويكيدون لهم فى كل مكان ، وترسم للجماعة الإسلامية طريق الحياة مع هؤلاء الخصوم .

ومن المعلوم أن الجماعة لا يكون لها كيان ، ولها هيبة واحترام ، إذا لم تحدد موقفها من خصومها ، وتسد كل ثغرة بينها وبينهم ، وإذا لم تكن هى نفسها متفانية فى حب نظامها ، يسودها روح التعاون والإخلاص ، وهذا هو الذى أخذ الله

به المسلمين فى بدء تكوين جماعتهم ودولتهم ، ليخلصهم من أدران العلاقات القديمة ، ويجعل لهم طابعاً خاصاً وقومية خاصة ، فقد كانوا قطرات فى بحر خضم من الشرك والنفاق ، يحيط بهم الأعداء من كل مكان ، وهم الفئة المؤمنة المخلصة ، فكانوا كالواحة الخضراء الوارفة الظلال ، التى تنبض بالحياة والنضرة ، فى وسط الصحراء الميتة ، التى تنتج الجدب وتنفخ النار ، وكان لأفراد هذه الجماعة قبل أن تتوحد على الإسلام صلات قرابة ومودة بمن حولهم ممن آثر البقاء على شركه ، فلو ترك الباب مفتوحاً لهذه الودات تأخذ طريقها فى ظل النظام الجديد ، كما كانت قديماً ، لدخل الخطر منها على الجماعة الإسلامية الناشئة ، ولفنيت القلة المؤمنة فى الكثرة الكافرة ، فكان لابد إذن من تحديد الموقف بين هذه الجماعة وبين أقوام بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، أقوام هاجموا المسلمين وكادوا يقضون عليهم ، حين أخذوا يصادرون حريتهم ، ويحولون بينهم وبين خدمة دعوتهم ، وفى تحديد هذا الموقف أنزل الله هذه الآية وآيات أخرى تشابهها .

والذى يروعك من جمال النظم فى الآية أنه سلك فى التعبير طريقاً بالغاً فى التأثير على النفوس : فبدلا من أن يأمر أو ينهى أتى بما يريده من المؤمنين فى صورة الوصف لهم كأن ذلك شىء مقطوع به بالنظر للمؤمنين الصادقين ، ووصف لازم لهؤلاء الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر .

والله بهذا التوجيه الكريم يرتفع بالعلاقة الروحية بين المسلمين ، فوق كل العلاقات الأخرى بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه فيهدر علاقة الدم هذه فى سبيل الإبقاء على علاقة الإيمان بين المؤمنين لأنها العلاقة الروحية التى تسمو دائماً فوق كل العلاقات المادية .

وإذا شئت أن تدرك هذا المعنى واضحاً جلياً فاقرأ معى هاتين الآيتين من سورة التوبة ، يوجه الله فيهما الخطاب للمؤمنين ليرتفع بهم إلى سماء الإيمان ، بدل أن يتعلقوا بالأرض ، وليصفى نفوسهم من كل شىء إلا من حب الله ورسوله ، ويربيهم على الإخلاص والتفانى فى سبيل عقيدتهم ، وعلى التضحية مهما كانت غالية قاسية ، سواء كانت تضحية بالمال ، أو عواطف القرابات ، أو حب الديار المتغلغل فى القلوب — اقرأ معى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ، قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين)[1].

تجد فى هاتين الآيتين أن الله يدفع المؤمنين دفعاً إلى التحزب والتعصب لإيمانهم ، ويضع الحد الفاصل بين من يحبه المؤمن ومن لا يحبه ، كما تجده يشتد فى الخطاب ، ويهدد ويتوعد هؤلاء الذين يخلدون إلى الأرض ويتبعون هواهم ، ويضعون مالهم أوقراباتهم فوق عقيدتهم وحبهم لجماعتهم المؤمنة .

وبجانب هذا تجد آية أخرى تطارد هؤلاء الذين يعيشون بين إخوانهم المسلمين طابوراً خامساً لأعدائهم فيتجسسون على جماعتهم ويتقربون لأعدائهم بإذاعة أسرار المسلمين إليهم وكشف خططهم ونواياهم .

اقرأ معى أول سورة الممتحنة التى نزلت لأن واحداً من المسلمين عمل على إذاعة الخطط التى وضعها الرسول سراً لفتح مكة .

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) ثم يحرض الله المؤمنين على الامتثال ، ويهيجهم على شدة العداء بأمور مادية يحسونها فى الدنيا ، حين يصور لهم ما يقع عليهم من إيذاء ، لوظفر بهم خصومهم فيقول عقبها

---

(١) سورة التوبة : ٢٣ ، ٢٤ .

(إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون) ثم ينتقل إلى شيء أهم من ذلك ، يخوفهم به حين يوالون أعداءهم لمنفعة يرتجونها (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير) فيضع أمامهم عقاب الآخرة بجانب إيذاء الدنيا .

أوجدت أقوى من هذا فى زجر المسلم عن إذاعة أسرار المسلمين للأعداء ، وعن اتخاذهم أحباباً وأنصاراً وأولياء (لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير) والتقية التى أرادها الله هنا ليس المراد منها أنها تلك التى تصل إلى حد أن تدفع بالمسلم إلى الإخلاص لعدوه ، واتخاذه ولياً يعاونه على إخوانه المسلمين ، إنما المراد بها المودة الظاهرة التى لاتجلب على المسلمين ضرراً أو هزيمة ، حين يضطر المسلم إلى هذا التظاهر مع أعدائه .

ولا أحب أن يلتبس الأمر على بعض القراء فيظنوا أن الإسلام يأمر بمعاداة غير المسلم أيا كان موقفه من المسلمين ، لأن الإسلام فرق فى معاملة غير المسلم تبعاً لمعاملته هو للمسلمين وموقفه من الإسلام .

والأصل فى ذلك قوله تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » (١) .

وليس معنى المسالمة لأية دولة غير مسلمة أن نرتمى فى أحضانها ، ونتيح لها الاطلاع على أسرارنا ، فإن ذلك قد يكون من أخطر الأمور على حياتنا

---

(١) سورة الممتحنة ٨ ، ٩ .

ومصالحنا ، إذ أن مسالم اليوم قد ينقلب غداً إلى عدو محارب ، والحكمة تقتضى مراعاة هذه الناحية .

فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة

والإسلام بذلك لا يقرر أمراً غير عادى ، ولكنه يقرر ما يوحى به العقل السليم ، والحكمة السديدة ، وما تستوحيه الدول فى علاقاتها بعضها ببعض ، حتى الدول المتصادقة المتحالفة .

وقد رأينا الولايات المتحدة تصر على الاحتفاظ بأسرار القنبلة الذرية حتى على أصدقائها وحلفائها فاذا كان الإسلام يوصى المسلمين ألا يرتموا فى أحضان دولة غير إسلامية ولو كانت مسالمة ، ويتخذوها موضع سرهم ، ويطلعوها على خططهم ، ويؤثروا مصالحها على مصالحهم ، فإنه لا يمكن رميه بالتعصب أو اهدار الآخرين ، لأنه بذلك يحافظ على الحقوق الطبيعية للدولة الإسلامية ، ويضع من الضمانات ما يكفل لها القوة والنصر ، والاحتفاظ بعزتها وسيادتها وفى الوقت الذى نجد الإسلام فيه يشدد فى هذه الناحية الهامة فى حياة المسلمين نجده — كما سبق أن قلت — يفرق فى معاملة المسلمين لغيرهم تبعا لموقفهم هم من المسلمين .

فمنهم المحاربون المعتدون ، وهؤلاء ليس لهم عند المسلم إلا أن يقابل عداءهم بعداء أشد منه غضبا لله ولكرامته «إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون» « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم» «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» .

ومنهم المسالمون الذين لا يقدمون على إيذاء المسلمين أو التعرض لحريتهم ، ولا يعاونون أحدا عليهم ، ويريدون تبادل المنافع معهم ، وهؤلاء لهم معاملة خاصة من جنس معاملتهم أفصحت عنها هذه الآية (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) .

وقد جاءت هذه الآية من سورة الممتحنة بعد آيات أعلنت على أعداء الله حربا شعواء ، وعداوة سافرة ، وذكر فى مناسبتها مما قبلها أن المسلمين ربما دفعتهم الآيات السابقة إلى عداء غير المسلم أيا كان موقفه فجاءت هذه الآية تحد من هذا الاندفاع ، وتوجههم إلى ما يليق من معاملة الذين لا يسيئون إليهم ، مقابلة الحسنة بالحسنة ، وهذا هو الذى يتفق مع الخلق الكريم الذى جاء به الإسلام ، كما يتفق مع مبادىء العدل الذى يحرص عليه ، فأناس لا يؤذونك ولا يعاونون أحدا عليك . . كيف تؤذيهم ! ؟ ولو طلبت منهم شيئا أعاروك إياه ، فكيف تمنعهم شيئك وتقاطعهم ! ؟ وهم يجاملونك فى السراء والضراء فكيف تجابههم بالعداء ؟ ! أناس قامت العلاقة من جانبهم على المجاملة والموادعة ، فكيف تجعلها من جهتك غلظة ومقاطعة ؟ ! .

إن الإسلام فى هذه الحالة يتدخل ويوصى أتباعه بحسن الخلق ، وكرم المعاملة ، وعدم الشذوذ ، فليس أتباعه أقل خلقا من هؤلاء ! ؟ وحرص الإسلام على كرم الخلق وحسن المعاملة هو الأساس الأول فى قوانينه والهدف الأسمى من تعاليمه .

ولذا أوصت الآية ببرهؤلاء المسالمين ، ومعاملتهم بالعدل ، وأعلنت فى آخرها الرضا والثواب من الله لمن يتحرى ذلك معهم (إن الله يحب المقسطين) .

ويقول الله فىسورة النساء بعد آيات أمرت المسلمين بقتلأعدائهم المحاربين : (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم (أى ضاقت وامتنعت) أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ، فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) فالآية فى المعاهدين الذين بينهم وبين المسلمين عهد ، أو من يلتجىء إليهم ، ويدخل فى ميثاقهم ، وكذلك الواقفين على الحياد بين المسلمين وأعدائهم ، فليس لنا أن نؤذيهم ونحاربهم ، بل علينا أن نحسن معاملتهم ونسالمهم ، كما سالمونا

وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة » وبهذا يتبين جليا نظرية الإسلام فى معاملة المسلمين لغيرهم : —

١ — فهو لا يرضى لهم أن يتخذوا من غيرهم أولياء يلقون إليهم بأسرارهم ، حتى لا يستفيدوا من ذلك إذا انقلبوا علينا ، وقامت بيننا وبينهم حرب فى يوم من الأيام .

٢ — ويوجب عليهم أن يقفوا صفاً واحداً كأنهم بنيان مرصوص فى وجه من حاربهم فى دينهم أو فى مصلحة من مصالحهم ، والمسلمون أمة واحدة مهما اختلفت ديارهم ، وبلادهم وطن واحد لهم جميعاً .

٣ — ولكنه يوصيهم بإحسان المعاملة لمن أحسن معاملتهم ، ولم يتعرض لدعوتهم أو لمصالحهم ، ولم يعن عليهم أحداً من أعدائهم .

٤ — والإسلام مع هذا لا يمنع المسلمين أن يستعينوا بغيرهم — ممن يأنسون فيهم المسالمة — فى أعمال الدولة ، ويستفيدوا بما عندهم من حرف وصناعات ، فقد استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم أحد اليهود فى الكتابة ، حتى قامت حرب بينه وبينهم فلم يأمنه واستغنى عنه ، ثم قام زيد بن ثابت رضى الله عنه بتعلم لغته ، ليحل محله ، فتعلمها فى زمن وجيز ، واستعان الخلفاء كذلك بغير المسلمين فى بعض الأعمال . لمصلحة الدولة الإسلامية — هذا هو ما توحيه الآيات وعمل الرسول صلى الله عليه وسلم .

بقى أن أشير هنا إلى آراء الباحثين فى الأساس الذى تبنى عليه الدولة الإسلامية سياستها الخارجية مع غير المسلمين .

وقد ذهب هؤلاء الباحثون مذهبين فى رسم هذه السياسة :

١ — فجماعة منهم رأوا أن المسلمين متى بلغوا الدعوة الإسلامية بوضوح وجلاء ، ثم لم تقبل منهم ، ولم يدخل المدعوون فى دين الله ، كان ذلك منهم إصراراً على باطلهم ، وإيذاناً بحرب المسلمين الذين يمثلون هذه الدعوة وعلى هذا يجب علينا أن نقاتلهم ، لنسوقهم إلى الحق قسراً بعد أن لم يأتوا إليه مذعنين .

وقد عزز هؤلاء وجهة نظرهم بآيات عامة فى القرآن تحث على القتال . منها « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة »[1] وقوله تعالى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله »[2] وقوله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الاسلام وحسابهم على الله » — ويأخذون من هذه الأدلة ومثيلاتها فى القرآن والحديث أن القتال إنما نهدف منه إلى إيصال الإسلام إلى الناس . وأن غير المسلم إن لم يؤمن بعد عرض الإسلام عليه عرضاً واضحاً وجب قتاله لأن مجرد الامتناع عن قبول الإسلام بعد وضوح الحجة يعتبر موقفاً عدائياً منه يبرر قتاله .

وعلى هذا الأساس وبمقتضاه كانت فى نظرهم كل آية فى القرآن تدعو إلى السلم والتاركة ، وتدعو إلى العفو وإلى الدعوة والمجادلة بالتى هى أحسن منسوخة حتى بلغت الآيات المنسوخة من القرآن على رأيهم ما يقرب من مائة وعشرين آية فقوله تعالى « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » منسوخة وقوله « الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل » منسوخة وقوله « إن عليك إلا البلاغ » « ما على الرسول إلا البلاغ » ، « لست عليهم بمسيطر » كل هذه الآيات منسوخة وهكذا ! !

٢ — أما النظرية الثانية فيرى أصحابها أن أساس العلاقة بين المسلمين وغيرهم هو السلام ، ما لم يطرأ ما يدعو إلى تغييره ، وإعلان الحرب عليهم ، فالإسلام لا يجيز قتل الإنسان وإهدار دمه وماله ، لمجرد أنه لا يدين به ، كما لا يجيز مطلقا أن يتخذ المسلمون القوة من سبل الدعوة إلى دينهم ، إذ أن الأديان وكل الأفكار مدارها على الاقتناع الداخلى ، لا على الخضوع الظاهرى ، فالطريق إلى القلب إنما هو الدليل المقنع ، لا القوة المجبرة القاهرة ، وهذا هو الذى يتفق مع منطق القرآن « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » فعلى المسلمين أن

(١) سورة النساء : ٧٤ .

(٢) سورة البقرة : ١٩٣ .

يسلكوا فى إيصال دعوة الإسلام إلى الناس طريق الحجة والبرهان ، والمجادلة بالتى هى أحسن .

أما القوة فلا نلجأ إليها إلا إذا حصل إعتداء على المسلمين ، أو وقف أناس فى طريق الدعاة ، وحالوا بينهم وبين حرية الدعوة ، فنحاربهم حينئذ لا ليسلموا ، بل ليتركوا عدوانهم ، ويكفوا عن وضع العراقيل فى طريق الدعاة ، ويخلوا بيننا وبين عقول الناس فنحن نقاتلهم حينئذ « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » أى حتى لا تحول القوة بين الإسلام وقلوب الناس ، ويصبح الدين لله ، لا يقف أحد فى طريقه ، أو يستعمل القوة ليحول بينه وبين الناس . وقد بنى هذا الفريق نظريته على أسس من القرآن نفسه ، فالآيات التى أمرت بالقتال جاءت تحمل معها سبب الأمر به ، قال تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم « أى هؤلاء الذين يقاتلونكم » حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » ، والآيات التى تأتى فى ظاهرها آمرة بالقتال ، دون أن تعلل هذا الأمر ، يمكن حملها على الآيات الأخرى المبينة للسبب ، وإذا أضفنا إلى هذا ما يعتمدون عليه من نصوص القرآن نفسه ، مثل قوله تعالى « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » حيث ينفى بصورة طبيعية أن يكون الإكراه وسيلة من وسائل غرس الدين فى القلوب ، إذ أن هذا غير ممكن إطلاقا . فما كانت القوة لتجبر القلوب فى يوم من الأيام على قبول شىء معين ، لأنها طريق غير موصل للاقتناع ، بل ربما كانت من أشد العوامل تنفيراً من هذا الشىء وصدا عنه ، فالقوة ليست لها سيطرة إلا على الظواهر والجواس ، كالأيدى والأرجل واللسان ، فهذه من الممكن أن تتحرك كما تهوى القوة وتحب ولكن القلب يظل بمأمن من أى ضغط ، ولا تستطيع القوة ولو تجمعت من أطراف الدنيا كلها ، أن تجبر مخلوقا ضعيفاً تافها أن يحب من يكره ، أو يكره من يحب ، وصدق الله العظيم « لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » ويزيد أصحاب هذا الرأى على النص المتقدم آنفاما جاء من نصوص أخرى بشأن الذين لا يقاتلون المسلمين ولا يؤذونهم ،

ولا يعترضون دعاتهم ، مثل قوله تعالى « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » وقوله تعالى « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »[1] وقوله تعالى فى سورة الممتحنة المدنية كذلك « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

أما الحديث (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله . . الخ) فقد قال الإمام ابن تيمية فيه : (ليس المراد أنى أمرت أن أقاتل كل أحد إلى هذه الغاية ، فإن هذا خلاف النص والإجماع فإنه لم يفعل هذا قط ، بل كانت سيرته أن من سالمه لم يقاتله) على أنه يمكن أن نقول ، إن الناس هنا هم المشركون المحاربون ، إذ أن فعل الرسول كما جاء فى النصوص الأخرى يستدعى هذا التخصيص ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتعرض لكثير من المشركين متى سالموه .

وهذا الرأى الأخير أعنى القائل بأن الحرب للدفاع عن الدعوة ضد المعتدين عليها ، هو الرأى المعقول المقبول ، فليس مما يشرف الدعوة الإسلامية أو أية دعوة أخرى أن تتخذ القوة وسيلة لنشرها ، وإرغام الناس على قبولها . . . وهو الرأى الذى تتفق معه نظرة علماء القانون الدولى فى الأساس الذى تبنى الدولة عليه علاقاتها بعضها ببعض ، وهو الرأى الذى يرى ابن تيمية فيه أنه « هو الذى يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار » .

ويقول الأستاذ المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده[2] فى تفسير آيات (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم . . . الآيات) بعد كلام طويل يؤيد به وجهة النظر الثانية « فقتال النبى صلى الله عليه وسلم كله كان مدافعة عن الحق وأهله ، وحماية لدعوة الحق ولذلك كان تقديم الدعوة شرطا لجواز القتال ، وإنما تكون

---

(١) سورة الأنفال : ٦١ .

(٢) جـ ٢ ص ٢١٥ طبعة أولى .

الدعوة بالحجة والبرهان لا بالسيف والسنان ، فإذا منعنا من الدعوة بالقوة ، بأن هدد الداعى ، أو قتل ، فعلينا أن نقاتل لحماية الدعاة ونشر الدعوة ، لا للاكراه على الدين . . . وإذا لم يوجد من يمنع الدعوة ويؤذى الدعاة ، أو يقتلهم أو يهدد الأمن ، ويعتدى على المؤمنين فالله تعالى لا يفرض علينا القتال لأجل سفك الدماء وإزهاق الأرواح ، ولا لأجل الطمع فى الكسب . . . وبما قررناه بطل ما يزعمه بعضهم من أن الإسلام قام بالسيف ، وقول الجاهلين المتعصبين ، إنه ليس دينا إلهيا لأن الاله الرحيم لا يأمر بسفك الدماء ، وإن العقائد الاسلامية خطر على المدنية — فكل ذلك باطل ، والاسلام هو الرحمة العامة للعالمين » .

وأعتقد أنه بذلك قد وضح الرأى القوى فى الرأيين السابقين وهو كما قلت — الرأى المعقول ، المقبول ، وقد بقى علينا أن نطبق هذه النظرية الاسلامية فى السياسة الخارجية على الدول غير الاسلامية وموقفها من الأمة الاسلامية الآن :

إن الاسلام يعتبر المسلمين جميعا إخوة وأمة واحدة ، مهما تباعدت ديارهم ، واختلفت أجناسهم وألوانهم ، ويعتبر ديارهم المتعددة وطنا واحداً متماسكا ، وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول إن الاعتداء على أى بلد من بلاد المسلمين شرقا أو غربا شمالا أو جنوبا ، يعتبر إعتداء على الوطن الاسلامى كله ، وكل دولة تقترف هذا الاعتداء تعتبر دولة محاربة للمسلمين جميعا فى نظر الاسلام ، دماؤها وأموالها مهدرة ، وعلى المسلمين أن يشدوا عليها بقوة ويعلنوا عليها حربا شعواء ، يشترك فيها كل مسلم قوى قادر على الحرب أو التجهيز لها ، وتوضع فيها كل إمكانيات العالم الاسلامى تحت تصرف الجيش المسلم الذى يدافع عن كرامة الاسلام والمسلمين ، فاذا كان بهم ضعف عن إعلان الحرب ومقابلة الجيش بالجيش ، فعندهم ميادين كثيرة ، يستطيعون فيها أن يغيظوا أعداءهم ، ويرغموهم على المسالمة والجلاء عن أراضيهم ، عندهم الميادين الاقتصادية والصحافية ، وعدم التعاون مع قواتهم المحتلة ، يستطيع المسلمون — متى حزموا أمرهم وجمعوا شملهم — أن يرغموا أنف أى مستعمر على مسالمتهم ، وخطب ودهم ، إن استعملوا هذه الأسلحة السلمية .

وقد يهول القارىء أن يقف المسلمون وهم ضعاف أمام هذه الدول كلها ، وهى صاحبة الحول والطول ، ويشفق على المسلمين من هذا العداء ، لاسيما وهم فى حاجة إلى صناعاتهم . .

وإنى أقول لهؤلاء المشفقين كفوا عن هذا الاشفاق ، فانتم قوة ترهب لو اتحدتم ، فاعملوا على إيقاظ روح المحبة والتضامن بينكم أولا ، ثم قفوا فى الخطوط صفا واحدا ، ثم انظروا أثر هذا فى نفوس أعدائكم وسترون ألا داعى لهذا الإشفاق ، فهذه الكثرة الهائلة التى يربطها رباط من صنع الله ، وهم أكثر من أربعمائة مليون مسلم تستطيع أن تفعل الأعاجيب لو أنها تساندت ، واستغل قادتها روح الإسلام فيها ، وربطوا مصالحهم بعضها ببعض ، فلو تجمع أربعمائة مليون بعوضة على جيش ضخم لهزمته وأقضت مضجعه .

والعيب الذى نراه الآن فى المسلمين هو ضعف الروح الإسلامية فيهم ، وتبعه ضعف الرابطة الاسلامية وضعف الشعور المشترك ، ثم عكوف كل جماعة منهم على مصالحهم ، بغض النظر عن مصالح أو مصائب الآخرين ، وبذلك استطاع المستعمرون أن يجهزوا علينا جماعة بعد جماعة ، حتى وقعنا كلنا فريسة سهلة مستساغة فى أيديهم ، ثم لم نستطع بعد الوقوع فى الخطر أن نفيق ونترابط ونصل بيننا ما انقطع ، لنقوم من كبوتنا ، ونسترجع عزتنا ومجدنا .

ولكن مما يبعث الأمل فى النفوس أن الروح الاسلامية ، قد بدأت تدب فى النفوس لتحيي ميتها ، وأخذ العالم الاسلامى يشعر بنوع من التعاطف والرغبة فى المساعدة ، وإن كان لا يزال ذلك فى نطاق محدود ، إلا أنه على كل حال بشير خير فى المستقبل إن شاء الله ، وبقى على المسلمين فى كل مكان أن يشعروا أنه لانهضة لهم ولا يقظة إلا عن طريق واحد ، هو إحياء الشعور الدينى ، وتقوية الروح الاسلامية فى النفوس ، وذلك بالتربية الدينية الواعية ، فهى أولى من الالتجاء إلى إثارة الروح القومية الخاصة بكل دولة من دولهم إذ أنها لاتغنى كثيرا ، فإن مجد البلاد الاسلامية كلها فى مجد الاسلام قديما وحديثا .

فليتجهوا إذن إن كانوا طلاب مجد وعزة إلى هذا الطريق مستعينين بماوهبهم

الله من ذخيرة ربانية ، فى توحيد الـكلمة ، وجمع الصفوف ، وتحطيم القيود والصعود إلى القمة ، حيث العزة التى كتبها الله للمؤمنين .

نعم : فليتجهوا وليستمعوا جميعاً إلى خطاب الله لهم : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين[1] » .

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٩ .

٥ — رمضان ونزول القرآن

« شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ هُـدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْهُدَى وَٱلْفُرْقَانِ »

(من آية ١٨٥ سورة البقرة)

جعل الله الأيام كالإنسان منها شقى وسعيد ، فمنها أيام فاصلة فى تاريخ الفرد والجماعة ، ومن أجل هذا ينظر الإنسان إليها نظرة خاصة ، تتفق فى جلالها وعظمتها مع عظمة الأحداث التى وقعت فيها ، وقد ميز الله بعض الشهور وجعل لها أسبقية فى الفضل على بعض ، فجعل منها أربعة حرما ، حرم فيها على العرب سفك الدماء ، وأوجب عليهم فيها الخلود إلى الأمن والاطمئنان ، وهى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ثم خص من الشهور الباقية شهراً بالتكريم والتفضيل،وهو شهر رمضان،الذى بقى وسيبقى فضله ما بقيت السموات والأرض.

فإذا بحثنا عن مكانة الشهور العربية فى نفوس العرب قبل الإسلام ، وجدنا لمكانة رمضان فى الإسلام جذوراً قديمة فى الجاهلية ، فقد كان العرب يعظمون رمضان ، ويتحنثون فيه ، وقد قرأنا فى سيرة الرسول قبل بعثته أنه كان يتحرى أيام رمضان من كل عام ، فيتزود ، ويخرج من مكة وضوضائها ، ليتعبد « فى غار حراء » على رأس الجبل بعيداً عن مشاغل الحياة ، حيث يتاح له التأمل الهادئ فى ملكوت السموات والأرض، وقد جاءه الوحى وهو يتعبد بغار حراء فى شهر رمضان ، حيث نزل عليه بأول آية من القرآن : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » ويقول صاحب كتاب الفكر السامى تعليقاً على مكانة رمضان فى نفوس

العرب قبل الإسلام : « ولعل ذلك كان من بقايا شريعة إسماعيل وأبيه ، فجاء الإسلام بما زاده وبينه من شرائعه » ويقول العلامة الزمخشري في كشافه : « فإن قلت : لم سمى « شهر رمضان » ؟ قلت : الصوم فيه عبادة قديمة فكأنهم سموه بذلك لارتماضهم فيه من حر الجوع ومقاساة شدته » .

وكأن تعظيم رمضان في الإسلام بالصيام فيه تجديد لعظمته ومكانته قبل الإسلام، وقد روت لنا الكتب عن عظمته هذه قبل الإسلام الشيء الكثير ، أحب أن أنقل بعضها للقراء ، وليس معنى ذلك أني ألتزم صحة ما جاء فيها ، ولكن أرويها هنا لأعطي القارىء فكرة عما قيل عن هذه المكانة ، التي امتاز بها شهر رمضان من بين الشهور ، ومما قيل في هذا أحاديث رواها الإمام أحمد ، فقد جاء في الاتقان للسيوطي : قال ابن حجر في شرح البخاري : قد خرج أحمد والبيهقي في الشعب عن واثلة بن الأسقع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاثة عشرة منه ، والزبور لثماني عشرة خلت منه ، والقرآن لأربع وعشرين خلت منه ، وفي رواية وصحف إبراهيم لاول ليلة.

ويضفي هذا الحديث — لو صح — على شهر رمضان مكانة قديمة. ويجعل له خصوصية عظيمة لم يحظ بها شهر آخر من الشهور. فإن اختيار الله له لينزل فيه كتبه. ويشع فيه على الأرض نوره وهدايته ، لهو أمر عظيم يلفت النظر ويسترعى الاهتمام .

ولست أريد بهذا أن أستمد عظمة هذا الشهر عندنا مما كان له قديماً عند العرب : أو من خصوصيته بإنزال الكتب السابقة فيه ، فإن الحديث الذي يرويه لنا الإمام أحمد في هذا يقول عنه الشيخ محمد عبده في تفسير المنار(١): « ولم يصح من هذه الأقوال والروايات شيء » كما يقول التعليق على هذا الكلام بأسفل الصفحة فيها حديث واثلة ، مرفوعاً عند أحمد وابن جرير وغيرهما وهو غير صحيح، ومن أجل هذا لا أحب أن أستند على هذا الحديث في تعظيم شهر رمضان ، وكفاني سنداً في ذلك صريح القرآن : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » فقد ميزه الله على كل الشهور بما ميز به محمداً على كل المرسلين ، وهو القرآن الكريم ، الذي نزل فيه ، والذي جعله الله مصدر سعادة ورحمة ومناعة وقوة ، لكل من اهتدى بهديه وخضع لتوجيهاته .

---

(١) ص ١٦٢ جـ ٢ .

وبودى أن أقف مع القارىء قليلا لنبحث معاً معنى إنزال القرآن فيه .

لقد ورد فى تحديد زمان نزول القرآن ثلاث آيات : الأولى تحدد زمنه بشهر رمضان ، وقد تقدم ذكرها ، والثانية تحدد زمنه بليلة مباركة وهى من آيات سورة الدخان : (حم والكتاب المبين إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) ، والثالثة تحدد زمن نزوله ، كذلك بليلة القدر : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر . . السورة) وليس هناك تضارب بين هذه الآيات ، فالليلة المباركة وليلة القدر واحدة ، وهى إحدى ليالى شهر رمضان . فكل تعبير من هذه التعبيرات موافق للحقيقة المقررة ، وهذا مشاهد ملموس فيما نفعله بيننا ، فقد نذكر تاريخ العمل بالسنة ، وقد نذكره بالشهر أو اليوم : فلا غرابة إذن فى مفهوم هذه الآيات الثلاث .

لكن بقى علينا أن نوفق بين ما تفيده هذه الآيات من نزول القرآن فى ليلة القدر المباركة ، من شهر رمضان ، وبين ما ينطق به الواقع الذى لا شك فيه ، من نزول القرآن فى أكثر من عشرين سنة ! ؟ .

لقد رأينا المسلمين السابقين فى العهد الإسلامى الأول يبحثون عن التوفيق بين هذا وذاك ، ويتجهون إلى العلماء بالقرآن ونزوله ، ينتظرون منهم الجواب .

فقد ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سأله عطية بن الأسود فقال : أوقع فى قلبى الشك قوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » وقوله : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » وهذا أنزل فى شوال وفى ذى القعدة وفى ذى الحجة وفى المحرم وصفر وربيع ! ! ؟ فقال ابن عباس : « إنه نزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلا فى الشهور والأيام ، أى مفرقا ومدرجا بعضه وراء بعض مثل مواقع النجوم » .

وقد روى عن ابن عباس أيضاً أنه قال : أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزل بعد ذلك فى عشرين سنة ، وفى رواية عنه إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، وهى أقرب السموات إلى الأرض ، وهذه الأحاديث كلها أحاديث مروية عن ابن عباس ، موقوفة عليه وهى — تذهب كما يتبين

منها — فى التوفيق إلى أن الآيات لا تتحدث عن نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن تتحدث عن نزوله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، وعلى هذا لا تعارض بين الآيات وبين الواقع .

ولكن هل ارتضى العلماء جميعا هذا الرأى من ابن عباس ، ووقفوا عنده . كلا . لأن هناك آراء أخرى أكتفى هنا بواحد منها مروى عن الشعبى ، ويتجه هذا الرأى إلى اعتبار أن القرآن حين يتحدث عن وقت نزوله إنما يتحدث عن بدء النزول على الرسول لا عن نزوله كله ، ومن المعلوم أن أول آية نزلت من القرآن نزلت على الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو يتعبد فى غار حراء فى شهر رمضان ، وهذا ثابت صحيح ، فيمكن — إذن — تنزيل الآيات الثلاث وتفسيرها بهذا الحديث الصحيح المتفق عليه ، ويكون معنى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن — أى بدىء إنزال القرآن فيه ، ولا غرابة فى أن يؤرخ القرآن زمن نزوله بزمن البدء فيه ، فإن الإنسان الذى نزل القرآن يخاطبه ، يسير على هذا النهج فى تاريخ الحوادث والأعمال ، فيقول مثلا « بنى الجامع الأزهر فى سنة ٣٥٩ هـ مع أنه لم يتم بناؤه إلا فى سنة ٣٦١ هـ ولكن المؤرخين اعتبروا تاريخ البدء هو تاريخ قيامه ، وهكذا فى كل عمل يستغرق سنين يؤرخونه غالبا بتاريخ الشروع فيه . وليس هذا النحو فى تاريخ الأعمال عبثا أو كذبا ، ولكنه يتمشى مع الواقع ، فإن البدء بالأعمال هو أهم مرحلة فيها ، من حيث إخراج المشروع من حيز الفكر إلى مجال العمل ، ومن هنا نحتفل بالشروع فى الأعمال حين نضع الحجر الأساسى لها بحضور رئيس الدولة .

وعلى هذا الأساس يزول الإشكال ؛ لأن القرآن إنما تعرض لتاريخ البدء فقط ، وليس هناك مانع من أن يستمر نزوله بعد ذلك أياما ، وسنين كما حدث بالفعل ، وهذا الرأى هو الذى ارتضاه الإمام الشيخ محمد عبده فى تفسيره لهذه الآية فقال :

« وأما معنى إنزال القرآن فى رمضان ، مع أن المعروف باليقين أن القرآن نزل منجما متفرقاً فى مدة البعثة كلها ، فهو أن ابتداء نزوله كان فى رمضان ، وذلك فى ليلة منه ، سميت ليلة القدر ، أى الشرف ، والليلة المباركة فى آية أخرى ،

وهذا المعنى ظاهر لا إشكال فيه ، على أن لفظ القرآن يطلق على هذا الكتاب كله ، ويطلق على بعضه ، وقد ظن الذين تصدوا للتفسير منذ عصر الرواية أن الآية مشكلة ورووا فى حل الإشكال ، أن القرآن نزل فى ليلة القدر من رمضان إلى سماء الدنيا ، وكان فى اللوح المحفوظ ، فوق سبع سموات ثم نزل على النبى منجما ، وظاهر قولهم هذا أنه لم ينزل على النبى فى رمضان منه شىء ، خلافا لظاهر الآيات ، ولا تظهر المنة علينا ، ولا الحكمة فى جعل رمضان شهر الصوم على قولهم هذا ، لأن وجود القرآن فى سماء الدنيا ، كوجوده فى غيرها من السموات واللوح المحفوظ ، من حيث أنه لم يكن هداية لنا ، ولا تظهر لنا فائدة فى هذا الإنزال ، ولا فى الإخبار به ، وقد زادوا على هذا روايات فى كون جميع الكتب السماوية ، أنزلت فى رمضان ، كما قالوا إن الأمم السابقة كلفت بصيام رمضان ، ولم يصح من هذه الأقوال والروايات شىء ، وإنما هى حواش أضافوها لتعظيم رمضان ، ولا حاجة لنا بها ، إذ يكفينا أن الله تعالى أنزل فيه هدايتنا ، وجعله من شعائر ديننا ، ومواسم عبادتنا .

وترى من هذا كيف يتعصب الشيخ محمد عبده لما قاله الشعبى من قديم ، ويرد القول الوارد عن ابن عباس ..

والذى يميل إليه العقل ، وتطمئن له النفس هو قول الشعبى والشيخ عبده ، فإن الروايات الصحيحة المتفق عليها ، تؤيد بدء إنزاله فى رمضان ، كما أن العادة جرت بين المؤرخين وغيرهم من العقلاء ، بجعل تاريخ بدء العمل تاريخا له ، كما سبق تقرير ذلك ، وإذا كنا دائما نخلد ذكرى الأيام التى يتحقق لنا فيها خير ، أو تبدأ لنا فيها نهضة ، فنهب جميعا للاحتفال بها ذاكرين فضل الله علينا فيها ، ومعددين الآثار التى انبعثت من أحداثها ، مجددين العزم على الاستمساك بها ، والعمل للمحافظة عليها ، متخذين هذه الأيام الفاصلة عيدا ، نزف فيه الخير والبشر إلى النفوس ، فيكثر التبرع فيها للفقراء والمساكين ، والعفو عن كثير من المذنبين ، حتى يعم خير هذا اليوم ، ويشعر فيه الجميع بالبشر والفرح ، إذا كنا نحن الضعفاء العاجزين نقدر هكذا مثل هذه الأيام ، فلأن يقدر الخالق القدير أياما من أيامه شع فيها الخير والنور ، وغمر أجزاء العالم فيها ، أولى وأفضل وهكذا كان .

فلقد كرم الله الليلة التى بدأ فيها نزول القرآن ، وقدرها حق قدرها ، وجعلها خيرا من ألف شهر ، بل من آلاف الشهور ، فإن الشهور والسنين التى تمر على الإنسانية ، دون أن يحدث فيها خير ، أو يهديها إلى أفضل الطرق فى حياتها ، لهى شهور وسنون ميتة ، لا حراك فيها ، وإن اليوم الذى تتم فيه نعمة يبقى ماثلا أمام الانسان ، لا يمحى من ذهنه طوال الأعوام .

وليلة يبدأ فيها هذا الحدث التاريخى العظيم فى تاريخ العرب والانسانية ، ويبعث الله فيها عبدا من عبيده رحمة للعالمين ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، بإذن ربه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ، ليلة هذا شأنها ، هى عند الله والناس ، خير من آلاف الشهور ، فإن أثرها باق خالد ، ما بقيت هذه الحياة ، بل إن أثرها ليمتد إلى ما بعد هذه الحياة ، حيث الجنة الباقية ، التى يورثها الله عباده الاتقياء ، الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

ومن أجل هذا احتفل الله بها ، وكرمها هذا التكريم ، وسماها ليلة القدر — أى الشرف — كما سماها الليلة المباركة ، وضاعف ثواب العمل فيها ، وجعلها أمنا وسلاما ، وخصص لها سورة من القرآن ، ومدحها بهذا الأسلوب القوى فى المدح ، حيث يقول : بسم الله الرحمن الرحيم « إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر » .

ومن أجل هذا التحول الجديد فى تاريخ الانسانية ، فى هذه الليلة ، كرم الله الشهر الذى تقع فيه من أجل تكريمها ، فكرم رمضان ، وكلف أمة القرآن بعبادة من أفضل العبادات فيه ، وقربة من أكرم القربات إليه ، وهى الصوم ، الصوم طوال الشهر كله ، والصوم عبادة خالصة عنى الله بها ، وأضافها إلى نفسه ، دون بقية العبادات الأخرى ، حيث يقول جل وعلا فى الحديث القدسى : (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى ، وأنا أجزى به ، يترك طعامه وشرابه من أجلى) .

فهل نذكر كلما أقبل علينا شهر رمضان هذه النعمة الكبرى الخالدة ، فنحيي فى أنفسنا مبادئها وتعاليمها ، ونشكر الله على ما أنعم به علينا ، ونرجع إلى ما أنزل الله ، وإلى الرسول فى أمور حياتنا ، لنستعيد مجد المسلمين الأول ، ونسعد فى الدنيا والآخرة وتقوم حياتنا على تقوى من الله ورضوان ! ! ؟

٦ — الصّيام

قال تعالى :

« يأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .

(سورة البقرة)

الصيام من التكاليف التهذيبية ، التى يراد بها تربية النفس ، وتقويم الروح ، وطبعها على الصبر والجلد ، والبر والعطف ، ومن أجل هذا كان عبادة مشتركة فى الأديان السماوية ، بل وفى الأديان الوضعية الوثنية ، التى ترمى إلى تربية الروح ، وتعويدها قوة الاحتمال ، وأقدم ماعرف عن ذلك كان عن قدماء المصريين ، ثم انتقل إلى اليونان والرومان . ومن المعروف أن موسى عليه السلام كان يصوم وقد ذكر المفسرون عند قوله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر» أنه صام مدة الثلاثين يوما ، مقدمة لتحمل التوراة ، وفى آخرها أحس بتغير رائحة فمه ، فكره مناجاة الله . وحمل التوراة على هذه الحالة ، فأزال رائحة فمه ، ولكن الله لم يرض عن ذلك ، فزاد عشرا يصومها ، فيتم الميقات أربعين — وكان ذلك من الله تكريما للصوم — وأرشده إلى ألا يغير رائحة فمه التى هى أطيب عند الله من رائحة المسك

ولليهود أيام يصومون فيها ، متقربين بصيامهم إلى الله ، وقد نقل أن اليهود فى المدينة أيام الرسول كانوا يصومون يوم عاشوراء ، فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يصوم تاسوعاء كذلك حتى لا يتفق المسلمون مع اليهود فى المظهر فقال : (لئن عشت إلى قابل لأصومن تاسوعاء) .

وأما النصارى فقد ذكر المنار أنه : (ليس فى أناجيلهم المعروفة نص فى فريضة الصوم ، وإنما فيها ذكره ومدحه ، واعتباره عبادة ، كما نهت عن الرياء ، وإظهار الـكآبة فيه ، وأمرت الصائم بدهن الرأس ، وغسل الوجه ، حتى لا تظهر عليه أمارة الصيام ، فيكون مرائيا ، وأشهر صومهم وأقدمه الصوم الـكبير ، الذى قبل عيد الفصح وهو الذى صامه موسى ، وكان يصومه عيسى ، عليهما الصلاة والسلام ، والحواريون رضى الله عنهم ، ثم وضع رؤساء الـكنيسة ضروبا أخرى من الصيام ، وفيها خلاف بين المذاهب والطوائف ... وكان الصوم المشروع عند الأولين منهم كصوم اليهود ، يأكلون فى اليوم والليلة مرة واحدة فغيروه) .

وكانت العرب تعرف الصيام ، ويتحنث منهم البعض فى رمضان ، والنبى صلى الله عليه وسلم كان يتعبد قبل بعثته أيام رمضان فى غار حراء ، حتى نزل عليه الوحى فيه : (ولعل ذلك كان من بقايا شريعة إسماعيل وأبيه فجاء الإسلام بما زاده وبينه من شرائعه[1]) .

ولا يزال الهنود وغيرهم من الوثنيين ، يصومون إلى اليوم ، ويبالغون فى تعذيب النفس بالصيام تقربا لآلهتهم ، وتهذيبا لنفوسهم وكبحا لشهواتهم ، ومن هذا نعرف أن الصيام عبادة معروفة لدى جميع الأمم قديما وحديثا ، حتى قال الضحاك : لم يزل الصوم معروفا من زمن نوح عليه السلام ، وهذا هو معنى قوله تعالى : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » ولـكن مما لا شك فيه أنه اختلفت أوضاعه وأشكاله ، ولم يكن على طريقة واحدة ، ولا فى زمن واحد — كرمضان مثلا — عند الجميع ، إنما المبدأ فقط هو الذى تلاقت عليه الأديان كما تلاقت فى كثير من التوجيهات الخلقية التهذيبية والعقائد ، ولا عجب فى هذا ، فالأديان ترمى إلى تهذيب النفوس وتقويمها ، وكسر شهوتها واندفاعها ، والصيام من أقوى الوسائل لبلوغ هذه الغاية النبيلة .

وقد سبق أن قلت إن رمضان عند العرب كان من الشهور التى يحسن فيها التعبد ، ولذا اعتاد الرسول التعبد فيه كل عام قبل بعثته .

---

(١) كتاب الفـكر السامى .

وفى رمضان بدأ الوحى على الرسول ، وابتدأ نزول القرآن فى ليلة من لياليه المباركة ، هى ليلة القدر ، ولاشك أن الشهر الذى حاز الفضل من قديم ، وتجدد فضله ببدء الوحى ، ونزول القرآن فيه ، ليستحق التعظيم والتكريم منا نحن الذين نسعد فى الدنيا والآخرة بما أنزله الله فيه ، وجدير بنا أن نعتبره موسما من مواسم البر والتقرب إلى الله . ولو لم يفرضه الله ، تحدثا بنعمته ، وشكرا لفضله علينا ، فما بالنا وقد جعله الله كذلك موسم خير وقربى ، وفرض على المسلمين أن يصوموه ويتطهروا فيه ، إحياء لذكرى أكبر نعمة ، وأجزل فضل على البشرية ، وهى نزول القرآن الذى جعله الله للناس هدى وشفاء .

ولقد تأخر تكليف المسلمين بصوم رمضان إلى مابعد الهجرة بسنتين ، حين أصبح المسلمون جماعة حقيقية ، وتم فرضه على الصورة التى نعرفها ، ونسير عليها الآن ، بعد أن مر بأدوار تشبه دور التكوين ، حيث أخذ نصيبه من التدرج الذى سلكه الحكيم اللطيف بعباده فى تكليف الناس بشريعته ، فقد شق عليهم أن يلتزموا صيام شهر كامل بعد أن كانوا غير مقيدين بشىء ، فجعل الله للقادرين منهم الخيار بين الصيام ، وبين الإفطار والفدية ، وأرشدهم إلى أن الصيام خير وأفضل (وأن تصوموا خير لكم) ، حتى إذا تعودوه وألفوه ، وعلم الله أن نفوسهم تهيأت للإلزام به ألزمهم وقال (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) .

وهناك آية أخرى ، أوقفتنا على طور آخر ، مر به الصوم من أطوار التكوين أيضا فقد « كانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء مالم يناموا فإذا ناموا امتنعوا[1] » ولو كان ذلك من وقت العشاء ، فكان الواحد منهم يجوز أن تكون مدة صيامه اثنتين وعشرين ساعة فيجهد ويرهق ، وبعضهم يأتى من الخارج فيجد امرأته وقد صحت من نومها فيقع عليها ، مخالفا بذلك ما ساروا عليه ، وقد كان ذلك — كما قال الأستاذ الإمام — اجتهادا منهم ، ويكون الله قد تركهم لفهمهم فى آية (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) حيث فهموا أن المشابهة فى الآية الواردة تشمل الكيفية أيضا ، وساروا على

---

(١) تفسير المنار : جـ ٢ ص ١٧٤ وذكر غيره مثل هذا فى سبب نزول الآية .

ذلك مدة ، حتى إذا بدا عليهم الجهد والمشقة ، شملهم الله بعفوه ، ونظم لهم طريقة الصوم كما نعرفها ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس حيث قال : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) حيث يقعون فى المخالفة والحرج (فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) فأتم الله نعمته على المسلمين ، وأكمل لهم أعظم الفرائض وأكثرها مراقبة لله .

ولقد وردت فى فضل صيام رمضان أحاديث كثيرة ، كلها تتواطأ على إظهار فضله ، وجزيل ثوابه ، واحتفال الله به فى السماء والأرض ، وجعله موسما من مواسم الرضا والمغفرة والعتق من النار ، فأية كيفية إذن توفر هذا الفضل ، وتحقق هذا الرضا ! ؟

للصوم ناحيتان : شكلية صورية وأخرى روحية ، ككل العبادات الأخرى ، وقد اهتم الفقهاء بالناحية الشكلية من حيث الصحة والفساد ، والمفطر من الأشياء وغير المفطر ، وجعلوا ذلك متصلا بالناحية المادية الحسية كالأكل والشرب والاتصال بالنساء ، فصوروه تصويراً تاماً من الناحية الشكلية ، ومع ذلك فالأمر فيه لم يقف عند هذا الحد ، بل هناك ماهو أجل وأعظم ، وهو الناحية الروحية ، نعم ، وهل يكفى هيكل الإنسان ليكون له شعور وإحساس وإنتاج ؟ إنه لا بد له من الروح تسرى فى أوصاله ، لكى يكمل ، ويثمر الثمرة التى تترتب على وجوده .

فالصيام الذى قال عنه الفقهاء ، إنه إمساك عن الأكل والشرب والنساء ، إنما هو الصيام من احدى ناحيتيه ، أما الناحية الثانية وهى الروحية ، فهى الإمساك عن شهوات النفس من الغيبة والنميمة ، وإيذاء الناس باليد واللسان ، وفى مراقبة الله والخشية منه ، والحياء من جلاله فإذا أخذ الإنسان نفسه بهذا أيضاً ، وألزمها به طوال شهر كامل ، غاضا من شهواتها وتزوعها نحو طيب المأكل والمشرب ، مع توفره أمامه كل وقت ، خرج من صيامه بدرس مفيد ، ربما يستمر تأثيره ووعيه طوال السنة ، فيظل فى مراقبة الله ، وصبر عن الشهوات ، حتى يصير ذلك

عادة له ، فيصبح من المأمول أن يندرج فى مدارج المتقين الذين (لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وفى الصيام ناحية مهمة ، من أجلها كرمه الله ، وهى لاتتوافر فى غيره من العبادات توافرها فيه . فلئن كان فى الصلاة شىء من المجهود الجسمى ، الذى يحليه الخشوع ، وفيها شىء من ترك ما اعتاد الناس عمله فى غير أوقاتها ، لكن ذلك لا يستمر إلا دقائق معدودات فى الفريضة الواحدة ، ولا يحس الإنسان أثناءها أية مضايقة ، ولا يشعر ببذل أى مجهود نفسى ، ولا مصابرة بالمعنى الذى نشعر به فى الصوم ، وأما الحج فلئن ترك الإنسان فيه ملابسه العادية وبعض الأشياء التى يحبها فذلك سهل على النفس نوعا والملابس لا شهوة لها ، ولكنها عادة يسهل على الإنسان التخلص منها بما يستر عورته وكفى ، على أن تركها يمكن تقصير مدته إلى ثلاثة أيام لا يحس المحرم فى أثنائها شيئاً من المضايقة .

أما الصوم فناحيته الصورية متعبة شاقة ، وفيها كبت وإرهاق ، فالإنسان يمسك عن الأكل والشرب مدة لم يتعودها فى غير الصيام ، يحس أثناءها نهما للأكل والشرب ، ويرى أثناء نهمه وفرط جوعه وظمئه المأكل الشهى ، والماء العذب البارد ، مما يسيل له لعاب الشبع المرتوى ، ومع ذلك يصرف نفسه عن هذا وذاك ، ويصبر على جوعه وعطشه — وقد يكون فى عمل مرهق والجو قائظ — وربما يصادفه ذلك وليس معه أحد ، وباستطاعته أن يسكن جوعته ، ويطفىء غلته ولا يراه إنسان ، ولكنه يمسك ويتعفف ، لأن العليم الخبير يراه ويراقبه ، فعنصر المجاهدة للنفس ، والمراقبة لله فى الصيام أشد وأبرز منه فى أية عبادة أخرى ، ، إذا أضفت إلى هذه الناحية الصورية فى الصيام الناحية الروحية ، التى بها يمسك الإنسان عن كل شهواته ، ويحارب جميع نزعاته ونزواته ، ازداد عنصر المجاهدة والمراقبة بروزاً ، وازداد سر الجزاء الأوفى الذى جعله الله له ، وهو سر إضافته إليه كما جاء فى الحديث القدسى « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به ، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلى » .

***

« إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » فالصيام

الذى لاتتحقق فيه الناحية الروحية ، بل يبقى قاصراً على الصورة والهيكل ، حيث يمسك الإنسان عن الطعام والشراب تقليداً ، وليقال عنه إنه صائم ، ويجلس على موائد الصائمين ، ثم يسخط على أيام رمضان ويستثقلها ، ويستعجل نهايتها ، ويرخى لنفسه العنان فى شهواتها ، فينقلب إلى سباب لعان ومغتاب نمام ، لايتحرج عن إثم من الآثام ، كأن رمضان عنده موسم المعارك والغضب ، لا موسم الحلم والعفو فى الأرض وفى السماء .

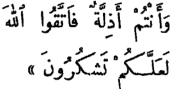
هذا الصائم ، وهذا الصيام ليس له عند الله مكان ، ومسكين هذا الصائم ! ! فقد أتعب نفسه بالجوع والعطش دون جدوى ، فلم يستفد من صيامه دنيا ولا أخرى ، وهذا هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » أما الثواب والتهذيب فقد أضاعه حين أطلق لنفسه عنانها ، وجرى وراء شهواتها ، وإذا لم نجن من غرسنا ومجهودنا أية ثمرة فلأى شىء إذا تكون الشجرة ! ؟ .

إن الله غنى عن عباده وعن عبادتهم ، ولم يرد بهذه التكليفات التى كلفهم بها إلا تهذيبهم وإصلاح شئونهم ، فإذا لم تتحقق الغاية من العمل ، وجنح الإنسان عن الطريق المرسوم ، للوصول إلى الغاية المرجوة ، فلمن إذن تكون العبادة ، وإلى من يكون الاتجاه ؟ ولأى شىء يبذل المجهود ؟ إنه مجهود ضائع ، واتجاه خاطىء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يقول « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه ! ! » . والزور هو كل منكر خارج عن الحق . وصدق الله العظيم « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .

وللصيام عدا الناحية الروحية التهذيبية ، وعدا الثواب الذى يغدقه الله على الصائمين فوائد أخرى جسمية ، تكلم الأطباء عنها ، وأوردت الكتب فى ذلك حديثاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم « صوموا تصحوا » .

واسأل الله الكريم أن يوفقنا جميعاً لأداء فريضة الصوم كما يحب ويرضى ، كما نسأله أن يبصر المسلمين بأسرار شريعته ويرزقهم الاستمساك بها حتى ترجع إليهم قوتهم ، ويعود لهم سالف مجدهم إنه ولى التوفيق .

٧ – ذكرى بدر



يقول الله تعالى :

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »

سورة آل عمران

فى تاريخ الأمم والدعوات أيام وأحداث فاصلة حولت مجراه ، ودعمت أركانه ، وفتحت فيه صحائف جديدة مجيدة لهذه الأمة ، أو لتلك الدعوة ، ولقد كان فى تاريخ الدعوة الإسلامية فى بدء عهدها أيام وأحداث لها شأنها وخطرها ، وتقف غزوة بدر على رأس هذه الأحداث والغزوات التى حولت مجرى التاريخ ، وبدأ الإسلام بها عهداً جديداً ، تطلعت فيه الأنظار كلها إلى هذه الدعوة الناشئة .

لو رجعنا إلى ما قبل هذه الغزوة ، لرأينا أن الدعوة عاشت فى مهدها الأول فى مكة مضطهدة ، وعانى الرسول وصحابته من الإيذاء والتنكيل ، ما لقيه أصحاب الدعوات من الرسل السابقين ، وظلت الدعوة فى مكة ثلاثة عشر عاما ، تعانى من الحجر والتضييق ، والعسف والإيذاء ما حصرها فى أفراد قليلين ، حتى أذن الله لنبيه أن ينتقل إلى المدينة ، بعد أن هيأ له الجو الحر الذى تنتعش فيه الدعوات ، ولا تعيش إلا فى رحابه ، وخرج الرسول وأصحابه من وطنهم ، ومهد صباهم ، ومجتمع أهليهم وأصحابهم ، خرجوا تاركين كل ذلك ، وما كانوا يملكونه ، مؤثرين الله على متاع الحياة ، من أهل ومال ووطن ، واستقروا فى مهجرهم ، وفى قلوبهم قلق يسكنه الأمن الذى وجدوه فى حياتهم الجديدة ، وفى نفوسهم حرقة تطفئها لذة الحياة الحرة الطليقة لدعوتهم العزيزة ، استقروا هناك بالمدينة بعيداً عن مكة ، ولكن قلوبهم ترمقها ، ويحز فى نفوسهم أن أخرجوا منها . كارهين ، فهل تدوم هذه الحال طويلا ؟ وهل يقنع المكيون بخروج محمد من بينهم

وهم الذين فكروا وهم يأتمرون به ، وقدروا أن إخراجه بعيداً عنهم ؛ هو الخطر نفسه عليهم ، فاربما يجمع الناس حوله ويهاجمهم ! ثم هل يمكن للمسلمين أن تهدأ نفوسهم ، وهم الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ؟ !

إن كلا من المعسكرين يفكر فى أمره وأمر عدوه المتربص به ، ولا يمكن أن يبقى المعسكران قائمين ، يتمتعان معا بالحياة الهادئة ، إن الحياة لا تتسع إلا لأحدهما فلابد إذن من أن يسعى كل منهما ليظفر بالحياة دون الآخر .

ولقد كان المسلمون فى مكة حتى هاجروا قلة ذائبة فى المحيط الذى يعيشون فيه لم يكونوا مجتمعاً بالمعنى الصحيح للمجتمع ، ولم يكونوا كثرة يخشى بأسها ، أو يتكون منها جيش يدافع عن نفسه ؛ فكان لابد لهم من التحمل والصبر ، لأن كل مقاومة بالقوة مصيرها الفشل ، وستدفع بالمقاومين إلى الفناء ، فما الحكمة حينئذ من المقاومة ؟ ! فليصبروا إذن ، ولينزل عليهم القرآن يدعوهم للصبر والتحمل ، ولو كان ذلك خروجاً من الوطن الحبيب ، فليضحوا به وبأموالهم وصبابات قلوبهم ، وبكل شىء عزيز لديهم فى سبيل شىء واحد هو حرية العقيدة التى من أجلها يعيشون ،

لكنهم أصبحوا فى المدينة كثيرين ، وكونوا مجتمعاً يرأسه محمد صلى الله عليه وسلم صاحب الكلمة المسموعة فى المدينة ، والتف حوله مئات بل آلاف من الرجال الأقوياء الأشداء الذين عاهدوه على حرب الأسود والأبيض من الناس متى أراد . وهنا يتمشى التشريع مع تطور الحياة الجديدة ويأذن الله لعباده المؤمنين أن يدافعوا عن أنفسهم ويمتشقوا السيف ليحموا عقيدتهم ، فينزل القرآن يقول : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » (١) وهنا أخذ المسلمون يحاولون أن يستردوا شيئا من حقهم المسلوب ، وما لهم لايقبلون وقد ظلموا « وإن الله على نصرهم لقدير » ؟ وكان لابد أن تؤدى هذه المناوشات والمحاولات ، إلى حرب بين المعسكرين وكانت الحرب ... والتقى الجمعان ، وتلاقت الفئتان : فئة مؤمنة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة ، وكان ذلك فى السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة .

---

(٣) سورة الحج (٣٩)

ولم تكن أدوات النصر من العدد والقوة متوافرة لدى المسلمين توافرها للكفار فقد خرجت مكة تقصد حربا ، خرجت كلها ، حتى أن من لم يستطع الخروج بنفسه أجر من يخرج نيابة عنه ، حتى لم يبق فيها قادر على حمل السلاح وخرجت النساء مسافات مع الجيش ، تبث فى نفسه الحماسة والقوة ولم يرجعن إلا قريباً من « الجحفة » عند « رابغ » وأصبح رجال مكة إما فى العير مع أبى سفيان وإما فى النفير الذى خرج ينقذ العير ، ويؤدب المسلمين ، ومن تخلف عن هذا وذاك باء بالهوان والاحتقار ؛ حتى قيل عنه استخفافا به (لا فى العير ولا فى النفير) وصار ذلك مثلا إلى اليوم ، يقال عن كل من لاوزن له ولا كيان .

ولم يكن الجيش المكى حين خرج ، يعتقد على كثرته أنه خارج لملاقاة جيش بالمعنى الحقيقى ولكنه كان يظن أن مهمته تأديب العصاة المارقين ، والقضاء على أفراد العصابة ، الذين تجرءوا ، وبلغت بهم جرأتهم أن تعرضوا لتجارة المكيين وهم الذين خرجوا من مكة بليل فارين ، وكان الغيظ يملأ قلوب أهل مكة من هذه الجرأة التى عرضت سمعتهم للقيل والقال فى نواحى الجزيرة ، وهزت من مكانتهم فى النفوس فلابد إذن من دك أعناق هؤلاء المتجرئين وإبادتهم حتى لا تتعرض مكة وتجارتها بعد ذلك لمثل ما تعرضت له ، ولا بد من إلقاء الدرس البليغ الذى يؤكد هيبة مكة فى النفوس للأبد وتبقى لتجارتهم حرية التنقل فى أمان إلى كل مكان .

بهذه الروح — روح الاستخفاف بقوة المسلمين ، والرغبة فى إبادتهم — سار المكيون إلى ملاقاة المسلمين ، حتى إنهم ليصرون على ملاقاتهم وتأديبهم ، بعد أن نجت تجارتهم ، وأرسل لهم أبو سفيان ينصحهم بالرجوع دون حرب ، إذ لم يعد هناك داع إليها ، وقد سلمت الأموال من أيدى محمد وأصحابه ! ! ولكن أبا جهل المغيظ المحنق ، يستولى عليه حنقه وغيظه ، وتستبد به روح الاستخفاف بالمسلمين ، فيصيح فيمن حوله : « والله لا نرجع حتى نرد بدرا[1] فنقيم عليها

---

(١) بئر فى مكان يبعد عن المدينة بنحو ١٥٠ كيلومتر على الطريق بينها وبين مكة الآن ، وقد سعدت بزيارته فى شعبان سنة ١٣٧٤هـ والمبيت فيه وزرت مواقع الغزوة فى الصباح ، وما كان أحفلها بالعبرة والعظة تلك الساعات التى قضيتها فى هذا المكان التاريخى =

ثلاثاً ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها » .

وهكذا ترون كلمات أبى جهل تنطق بالاستخفاف والرغبة فى التشفى والانتقام استرداداً لسمعتهم ، وتأكيداً لهيبتهم ، ويسير القرشيون لملاقاة المسلمين ، مستندين إلى كثرتهم وأهبتهم ، متيقنين أنهم لن يلاقوا صعاباً فى إبادة المسلمين ، فاهمين أنهم ذاهبون إلى نزهة حربية يسيرة ، يقطفون فيها رءوس المسلمين ، ثم يجلسون على جثثهم ، يقيمون أفراحهم بالنصر ، ويشربون الخمر ، وتعزف لهم القيان .

أما المسلمون فقد خرجوا إلى بدر ، لا يقصدون حربا ، بل يريدون تجارة أبى سفيان وما كانوا يظنون وهم خارجون أنهم سيلاقون مكة بخيلها ورجلها ، ولكنهم وجدوا أنفسهم بعد إفلات القافلة ، بين أمرين أحلاهما مر ، فإما أن يرجعوا إلى المدينة فارين أمام الزاحفين عليهم من مكة ، وهذا هو العار ، ولن يعفيهم فرارهم من تعقب المكيين لهم إلى عقر دارهم ، فوق ما يسببه الفرار من تجرؤ يهود المدينة ومنافقيها عليهم . . وإما أن يثبتوا لملاقاة هذا الجيش الضخم ، وهم قلة فى العدد والعدة ، وفى هذا من الخطر عليهم ما فيه ، ولكنه على كل حال أليق بهم ، كرجال حرب وعقيدة ، يؤمنون بسمو الاستشهاد ، ويرون فيه الحياة الشريفة المخلدة . . . وشاورهم الرسول أى الأمرين يختارون ، فاختاروا الثبات والنزال ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

وكان الله يدبر الأمور ويهيىء الأحداث ، ويسوق الجانبين لموقعة يتجلى فيها تأييده لعباده المؤمنين ، ويريهم من آياته الكبرى : « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون»(١) وكانت حالة المسلمين هذه تصورها الآية الكريمة(٢)« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم

= واسترجعت فيها حوادث هذه الغزوة وما نزل فيها من القرآن الكريم ، لقد وصلت من المدينة إليها بالسيارة بعد تعب جعلنى أدرك مقدار ما تحمله المسلمون الذين خرجوا فى رمضان وساروا بين الجبال حتى وصلوا هذا المكان لأنها العقيدة يستهين أصحابها بكل الصعاب .

(١) سورة الأنفال : ٧ ، ٨ .　　(٢) سورة آل عمران : ١٢٣ .

أذلة فاتقوا الله لعلـكم تشكرون » كما يصورها موقف الرسول وهو يناجى ربه ، ورحى الحرب دائرة « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها ، تحاول أن تـكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » فهل يترك الله هذه العصابة المؤمنة ، نواة الأمة المحمدية ، ليبيدها هؤلاء الـكفار المدلون بقوتهم ؟ ! .

إن القرآن الـكريم يجيبنا عن هذا السؤال حين يصور لنا رحمة الله بالمؤمنين، ورعايته لهم فى كل مراحل المعركة ، حتى لنرى كأن الله القدير هو الذى يدير المعركة ، ويوجهها بصورة واضحة ، لم نعهدها فى غزوة أخرى ، حتى حقق لهم النصر ، الذى كان مفتاح التحول فى تاريخ الإسلام .

ولقد عنى القرآن بتسجيل خطوات هذه الغزوة ، وما تم فيها ، عناية لم تحظ بها أية غزوة من غزوات الرسول ، فاقرأ معى وهو يصور مبادئ المعركة ومقدماتها ، ويحدد مواقعها ، ويبرز أثر العناية الإلهية فى توجيهها فيقول : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لـكارهون ، يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لـكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لـكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الـكافرين »(١) ثم يقول فى موضع آخر : « إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولـكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حى عن بينة » . . ثم يقول مصوراً ما هيأه له من أسباب غريبة وظروف عجيبة حتى تتم إرادته سبحانه «إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولـكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور » ، ولا يقتصر هذا التشجيع ، وهذه التهيئة على ما رأى الرسول فى منامه ، بل يكون ذلك مع المسلمين أيضاً حين المعركة نفسها ، ليقوى روحهم المعنوية ، ويدفع بالآخرين إلى لقائهم لينفذ فيهم وعده « ليحق الحق ويبطل الباطل » فيقول : « وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللـكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً

(١) سورة الأنفال ٥ — ٧ .

كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور »[1] ويصور لنا النعم التى أحاط بها عباده المؤمنين بعد أن ساقهم إلى الحرب فى سبيله فيقول مذكراً لهم ، « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » فسخر لهم الملائكة آلافاً كما فى سورة آل عمران ، لا آلفا ، تشد أزرهم ، وتضرب رقاب أعدائهم ، ثم يصور لنا القرآن كيف سخر الله الطبيعة لخدمة عباده المناضلين : « إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » ويحس الإنسان ، وهو يقرأ القرآن ، أن هذه المعركة لم تكن معركة أرضية ، بين الكفار وأفراد المؤمنين ، بل كانت معركة ربانية دافع الله فيها عن الذين آمنوا ، وتولى توجيههم ، وتهيئة كل الأسباب لمساعدتهم ، وقد عهدنا الله يدافع بالحجة عن رسوله والمؤمنين معه ، فما بالك وهم الآن فى حرب لم يتهيئوا لها ، اقرأ معى قوله تبارك وتعالى : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ، ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ، يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

***

قل لى أيها القارىء هل رأيت مثل هذا فى أية معركة ؟ ؟ ألا تحس معى أن الله القدير هو الذى يدير المعركة ويوجهها ، ويعين للضاربين كيف يضربون وفى أى موضع يهوون بضرباتهم ؟ هل رأيت تعليمات القواد لجيوشهم ؟ وهل قرأت هذه التعليمات الربانية ، وأية قوة يهبها الله للمحاربين حين يقول : (أنى معكم) ويقول : « سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » يكفى هذا ليضمن المؤمنون النصر ، وليجولوا بسيوفهم فى رقاب الكفرة الفجرة وهم آمنون ، وهل يبقى للشك موضع فى قلوب المسلمين ، وقد تكفل الله بالمعركة وجند لها الملائكة وسخر

(١) سورة الأنفال : ٤٢ وما بعدها

لما الطبيعة ؟ ! إنهم يحاربون بقوة الله ، ويقتلون الكفار بسلطان الله (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم ، ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين)[1] .

أيها القارئ المؤمن إن الله لم يتدخل فى هذه المعركة هذا التدخل ويشرف عليها هذا الإشراف، ويستجب للمسلمين فى كل ما يدعونه دون حكمة أو سبب !! لقد رأى الله منهم إخلاصهم العميق للدعوة ، وتفانيهم النادر فى حمايتها ، وحماية قائدها ، حتى ليؤثرون الاستشهاد حباً لله ورسوله على الحياة ، لقد استشارهم الرسول عليه الصلاة والسلام فيما يفعل : أيحارب أم يرجع ، فوجدهم جميعاً على قلب رجل واحد ، يؤثرون الموت على الحياة ، ويحبون الله ورسوله أكثر مما يحبون أنفسهم ودنياهم ، فيقول له المقداد بن عمرو (امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون) وينطلق صوت آخر هو صوت سعد بن معاذ زعيم الأنصار فيقول للرسول : (امض لما أردت فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله) كانت هذه هى الروح المسيطرة على نفوس المسلمين ، وهى روح تمتلئ بحب التضحية والفداء ، وتؤثر الاستشهاد فى سبيل الله ، فلا عجب إذن أن يتكفل الله لهؤلاء بالنصر ، ويمدهم بالعون ، ويهيئ لهم أسباب الغلبة والقهر ، برغم قلتهم ، وضعف عدتهم ، تحقيقاً لوعده الكريم لعباده المؤمنين : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وصدق الله العظيم « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

فهل نتذكر كلما أطل علينا شهر الأمجاد الروحية والمفاخر الحربية ، أن كفار الحياة تألبوا على الفئة القليلة المؤمنة ، فما ضعفوا وما استكانوا ، وضحوا بأعز الأشياء لديهم ، فى سبيل حريتهم وكرامتهم وعقيدتهم ؟ وهل نأخذ العبرة من

---

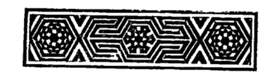
(١) سورة الأنفال ١٧ — ١٨ .

هذه الموقعة ، التى كان الإيمان فيها سلاح النصر والغلبة ، فنؤمن ، نؤمن بالله ونؤمن بأنفسنا ، وبأننا « خير أمة أخرجت للناس » ؟ .

إن المسلمين الآن كثرة ، ولـكنهم فى مضمار الحياة قليلون مستضعفون ، لأنهم فقدوا عنصر القوة ، وهو الإيمان ، وإنه لغريب أمر هذه الأمة ، تضعف هذا الضعف ، وبيدها أسلوب القوة ، وعدة النصر ! ! فما رأينا كتاباً يذكى فى أتباعه روح القوة ، وينزع عنهم لباس الذل والضعف ، ويتوعد المستضعفين بالنار كالقرآن ، الذى نتلوه صباح مساء ! ! وما كانت قصة بدر فى القرآن ، ولا غيرها من قصص الغزوات والحروب التى سجلها ، إلا توجيهاً قويا ، إلى القوة والتضحية ، والاستشهاد فى سبيل العقيدة .

فلعلنا نرجع للقرآن فنغذى به روحنا ، ونقوى بتعاليمه نفوسنا ، ونعشق التضحية كما عشقها من قبلنا ، من آبائنا وأجدادنا الأوائل ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، والذين طلبوا عزة الحياة بعزة الموت ، فحقق الله لهم عزة الحياة وكرامة الممات ، فعاشوا سعداء وماتوا كرماء ! ! وما كان الله ليخلف وعده لعباده المؤمنين « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهـاد . . »

٨ - أعيادنا ..



أعيادنا واحات السرور والبهجة وسط صحراء الحياة الجادة اللاغبة ، يقف عندها ركب الحياة المجهد ، ليستريح من وعثائه ، وينصرف بقلبه ومظهره إلى حياة يشع فيها الأمل والسرور والمرح ، ويفوح فى أجوائها العطر والسلام .

أعيادنا واحات وارفة تستقبلها الأمم كما تستقبل القافلة المتعبة ظـــلال الواحات ، وماءها العذب الفرات ، تطفىء ظمأها ، وتجدد نشاطها ، وتتهيأ لغدها ، وتقبل بعزم جديد ، وأمل نضير ، ونفس راضية ، وروح منشرحة طيبة ، على المرحلة الجديدة من حياتها ، راجية أن يعود إليها يومها السعيد — يوم العيد — وهى أطيب ما تكون نفسا ، وأنضر وجها ، وأحلى أملا .. وأقوى عزما وعملا ..

لذلك كانت الأعياد ضرورة اجتماعية قبل أن تكون سنة دينية ، فكان لكل أمة أو جماعة عيد أو أعياد ، تصنعها هى لنفسها من أحداثها ، إن لم يرسمها لها رسلها ، وجاز أن يكون للجماعة أعياد خاصة مشتقة من أحداثها وتاريخها وأعياد عامة تشترك فيها مع جماعات أخر تشاركها فى عقيدتها وفكرتها ، والأعياد الخاصة مظهر خاص من مظاهر الجماعة الواحدة لا يشاركها فيها غيرها ، ولا يجوز أن تفنى جماعة وتنهار معنويتها فتتخذ من الأعيـــاد الخاصة لغيرها ، أعيادا لها تحتفل بها وتروج لها .. أما الأعياد العامة التى يولدها الاشتراك فى العقيدة أو الفكرة مثلا فهى وإن كانت عامة فى كل أمة تعتنق هذه العقيدة أو تلك الفكرة فى الشرق والغرب فى الشمال والجنوب

فإنها آخر الأمر خاصة بأصحاب هذه العقيدة ليس لغيرهم أن يشاركهم فيها إلا إذا انهارت معنوياتهم ، وفقدوا خصائصهم ، وصاروا إمعات لا كيان لهم .

* * *

وإن من المهم لنا نحن المسلمين أن نعرف تاريخ أعيادنا وكيف وجدت ؟ وهل كنا فيها تابعين لغيرنا ؟ !

روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فى الجاهلية ، فقال : « إن الله تبارك وتعالى قد أبدلكم بهما خيراً منهما يوم الفطر ويوم النحر » وهذا الحديث واضح الدلالة فى الحياة الاستقلالية التى أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يربى أمته عليها حتى لا تكون تابعة لغيرها فى أعيادها وأفكارها .

إن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن — وهو بمكة — وسط مجتمع إسلامى بالمعنى الحقيقى ، بل كان المسلمون أفراداً قليلين ذائبين وسط المجتمع المكى الشرك ، وما كان لهم حينئذ كيان خاص يظهرون به ، بل إنهم كان فيهم من يتخفى بإيمانه خوفا من الأعداء وهربا من الاضطهاد فلما هاجر الرسول إلى المدينة ، وأصبح له فيها الكلمة النافذة ، وصار المسلمون كثرة لها طابعها ومسجدها وشعائرها ؟ وصاروا أحرارا ، فيما يأتون وما يدعون أصبح من المتعين أن يرسم لهم قائدهم ومربيهم محمد صلى الله عليه وسلم طريق الحياة الحديثة ، وأصبح من الضرورى أن يحفظهم من الاندماج فى غيرهم اندماجا يفنى شخصيتهم ، وبمعنى جامع : أخذ الرسول يكون لهم الشخصية الاستقلالية التى لا بد أن يتميزوا بها ، ولهذا كان يحب دائما أن يتجنب المسلمون الظهور بمظهر يهود المدينة . فهو حينما وجه المسلمين إلى اعفاء اللحى وحف الشارب علل لهم ذلك — كما جاء فى بعض الروايات — بقوله : وخالفوا اليهود والنصارى ، وحينما صام عاشوراء ، وكانت اليهود تصومه كره موافقتهم فى الصوم ، وقال لئن عشت إلى قابل لأصومن تاسوعاء ، وكانت اليهود لا تصومه ، وقال للمسلمين فى هذا الصدد صوموا يوم عاشوراء وخالفوا

اليهود صوموا قبله يوما وبعده يوما ، وإنما قال لهم هذا حتى يكون له وللمسلمين شخصية مستقلة ، بحيث لا يظهرون بمظهر التابع لأهل الكتاب .

وكان كثيراً ما يكره هذه الموافقة حتى قالت اليهود إن محمدا يريد ألا يدع شيئاً من أمرنا إلا خالفنا فيه .

والرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد هذا الذى فعله بقول عام وقاعدة شاملة فيقول « من تشبه بقوم فهو منهم » وكل هذا إنما فعله الرسول وقاله ، حرصاً منه — وهو القائد الحكيم والمربى الأعظم — على تكوين شخصية مستقلة للمسلمين ، حتى لايندمجوا فى غيرهم ، وهذا وإن كان أمراً لازماً لكل أمة ، فى جميع أدوار حياتها ، حفظاً لكيانها ، فهو فى دور تكوينها أشد وألزم ، لأنه دور بناء وتربية ، فيجب أن تبنى على أساس متين ، وهو دور طفولة الأمة فيجب أن يربيها مربوها بكل حيطة وحذر ، ويجنبوها كل مايؤدى إلى ضعف شخصيتها ، عندما تنمو ، ويبعدوا بها عن كل ما يؤثر على معنوياتها فى مجرى حياتها ، وليس هناك ماهو أخطر على الأمة فى دور طفولتها وتكوينها ، من أن تنهار شخصيتها وتفقد معنويتها ، وتحس ضعفها ، وتتعود التبعية لغيرها كالطفل تماماً .

من أجل هذا لم يترك الرسول أتباعه ، ليسيروا كما كانوا يسيرون فى الجاهلية ، أو يسيروا خلف اليهود ، بل خط لهم حياة جديدة بأعياد جديدة ، وقد جاء المدينة ولأهلها عيدان هما كما قيل : يوما النيروز والمهرجان ، وهما عيدان نبتا من البيئة الطبيعية ، حين يزدهر النبات ويعتدل الهواء ، وقد اعتاد الناس فى كثير من الأمم أن يحتفلوا بأمثال هذه الأيام ، لأنها مبدأ ربيع الحياة ، وتفتح الخير والازدهار فى الأرض . فقال الرسول لأتباعه «إن الله تبارك وتعالى أبدلكم بهما خيراً منهما . يوم الفطر ويوم النحر » .

قد يظن أنه من السهل ، أن يترك الناس على ما اعتادوا الاحتفال به ، وأنه شىء تافه لايستحق أن يهتم به الدعاة والمصلحون !! . . نعم قد يظن ذلك بعض الفارغين السطحيين ، ولكن العقلاء وبناة الأمم ، وأصحاب الدعوات والفكر ،

ينظرون إلى هذه النواحى نظرة لها قيمتها ، ولها ماوراءها ، إذ لابد لهم أن يعملوا على بناء الحياة الجديدة ، بمواد ومظاهر جديدة ، حتى يعيش الناس فى عهدهم الجديد بعقلية جديدة وتفكير جديد ، وخطى فى الحياة حديثة ، وذلك لازم لاسيما إذا كانت الحياة الجديدة ، مختلفة فى أصولها وأفكارها ومبادئها عن الحياة القديمة ، ونحن نرى فى أيامنا هذه ماتفعله الدول ، حين تنتقل من طور إلى طور . إنها تعمل على إلغاء كل مظاهر الطور القديم البغيض ، وتخط لها مظاهر جديدة ، تذكر النفوس دائماً بالعهد الجديد .

فليس من الغريب إذن أن يلغى الرسول عليه الصلاة والسلام الاحتفال بالأعياد القديمة فى مجتمعه الجديد ، ومع هذا لم يتركه بدون أعياد ، بل سد الفراغ بعيدين آخرين ، يتصلان أوثق الصلات بحياة المسلم الروحية ، وفرائضه التى يتقرب بها إلى الله .

وأولهما : عيد الفطر أى اليوم الذى يفطر فيه الصائمون بعد انتهاء شهر الصوم والصوم جهاد نفسى وبدنى معاً ، يجاهد الإنسان فيه نفسه ، ويلجمها عما اعتادت عليه من الخوض فى مسائل الناس وإيذائهم ، ويجاهد كذلك نداء بطنه الخاوية . فيمنعها عن الغذاء ، وإن أحست الجوع والعطش ، ويستمر الصائم فى هذا الجهاد المزدوج شهراً كاملا ، يطعم فيه الطعام للمحتاجين ، ويعكف على تلاوة القرآن ، وتفهم معانيه ، والاتعاظ به ، والله العلى الكريم يتجلى على عباده كل يوم من أيامه ، فيغفر لهم ذنوبهم ، ويعتقهم من النار ، فكان من الحكمة الإلـهية بعد الجهاد والحرمان ، طول شهر كامل ، أن يكون أول يوم يتحلل الإنسان فيه من هذا النظام ، عيداً يوسع فيه على نفسه وأولاده والفقراء من حوله ، ويفرح بما وفقه الله إليه من هذا كله ... ثم يجتمع اجتماعاً عاماً مع اخوانه ، مفتتحين اليوم بعبادة جماعية شعارها ، الله أكبر ، ويستمعون إلى واحد منهم يعظهم ويذكرهم نعمة الله عليهم ، ويستخرج لهم مواطن العبر ، من أحداث العام الذى ودعوه ، ويؤهل نفوسهم لاستقبال عام جديد ، يتداركون فيه مافاتهم ، ويصححون فيه أخطاءهم ، ثم يتبادلون التحية والتهنئة والدعوات الطيبات . .

وهذا هو عيد الفطر ، وما سنه الله فيه من صلاة واجتماع يقول عنه الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « للصائم فرحتان يفرحهما . إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربه فرح بصومه » وقد أراد الله برحمته وبره بعباده أن يكون الفرح بهذا اليوم فرحاً عاماً شاملا ، يدخل كل قلب ويعم كل بيت ، فأمر بإخراج صدقة الفطر عن كل نفس مسلمة ، وتوزع هذه الزكاة للفقراء والمحتاجين ، حتى يتفرغوا ليومهم ، يفرحون فيه كبقية إخوانهم ، ولا يفكرون فى قوتهم ، شأنهم فى ذلك شأن المسلم الغنى ، كل يفرح بما أتاه الله وقدره له .

وهذه حكمة الحكيم الخبير ، الذى أراد بما أمر به من زكاة ، أن يظهر المسلمون فى هذا العيد بمظهر التضامن والتعاون ، حتى تسود بينهم روح المحبة ، ويتلاقوا إخوانا متوادين .

وثانى العيدين عيد النحر ، وهو عيد يقع فى موسم عبادة من أعظم العبادات عند الله ، وهى الحج الذى جعله الله من عمد الإسلام ، وأركانه الخمسة ، فحين تجمع الأماكن المقدسة قصادها من كل قطر ، وقد تحملوا من المشاق والمتاعب أشدها وأقصاها ، يلتمسون بذلك المغفرة والرضا من الله ، وحين ينتهون من الوقوف بعرفة ، ويؤدون أهم شعيرة فى الحج ، ويفيضون من عرفات إلى المزدلفة فمنى ، حيث تنقضى بذلك معظم أعمال الحج ، جعل الله صباح هذا اليوم صباح عيد سعيد ، يستمر أياماً يفرح الحجاج والمسلمون جميعاً معهم بما رزقهم الله ، ووفقهم إليه وبما يأملونه من فضله ومغفرته .

وحتى يكون الفرح بهذا اليوم فرحاً عاما شاملا ، لايتخلله أنين محزون ، ولا دمعة فقير ، دعا الله المسلمين القادمين إلى نحر الذبائح فى هذا اليوم ، بعد أن يخرجوا من صلاتهم الجامعة ، ليطعموا منها الفقراء والمحرومين ، ويكفوهم ذل السؤال ، ومشقة العمل فى هذا اليوم السعيد ، وحتى يشعر الفقراء بروح العطف والتعاون من جانب الأغنياء ، فتبدو الجماعة الإسلامية فى مظهر قوى ، وبنيان متين ، وأخوة رحيمة ترضى الله والناس .

* * *

ومن المقرر فى النفوس أن مظاهر الاحتفال بالعيد عند أية أمة من الأمم يعتبر مقياساً لنضجها ، ومقدار وعيها ، فإذا انطلقت الأمة فى العيد من عقالها ،

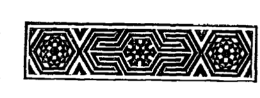
وتحللت من قيودها ، وأسرفت فى إبداء فرحها ، والانقياد لشهواتها ، وطغت عليها الفردية ، فلم تذكر وهى فى نعيمها ونشوة فرحها — فقيراً تواسيه ، أو يتيما تكفكف دمعه وتسليه ، أو محتاجا تسد حاجته وتعطيه ، إذا كانت الأمة بهذا المظهر الفردى ، كانت أمة بدائية ، لم يهذبها دين ، ولم تثمر فيها تربية ، وكانت أمة كالأطفال تسودها الأثرة ، ولا تعنى إلا باللون اللامع ، والفرقعات المدوية ، والجرى هنا وهناك .

أما إذا اعتبرت الأمة أعيادها فرصة كريمة لإبداء شعورها ، نحو بعضها البعض فاحتفلت بها فى هدوء الغافلين ، وترتيب الناضجين ، وتمتعت فى حدود العواطف الشريفة ، فلم تسرف فى شهواتها ، واتخذت من فرحة العيد طريقاً لادخال السرور على قلوب البائسين ، والأرامل والمنكوبين ، وظهرت فى هذا اليوم فى مظهر الأسرة الواحدة المتماسكة . إذا بدت الأمة بهذا الشكل ، وبهذه الروح ، كان ذلك دليلا وأى دليل على مبلغ نضجها ، ومقدار ما وصلت إليه من الوعى الاجتماعى ، والرقى الخلقى والتهذيب الدينى ، وكانت الأعياد فيها منبع خير ، وموسم فرح وابتهاج للجميع .

وقد أراد لنا الإسلام أن نكون أمة ناضجة مهذبة ، فأوصانا بالحرص على الخلق الكريم فى أعيادنا خاصة ، أوصانا بمراعاة شعور الجار وأطفاله ، فلا نلبس نحن وأطفالنا الحرير اللامع ، وهم بجانبنا لا يجدون الجديد العادى ، فيكون العيد عليهم وعلى آبائهم حسرة فى القلوب ، ودموعاً تنهمر على الخدود ، وأوصانا أن نتراحم ، ونذكر ذوى رحمنا ، ونجدد الروابط القوية بيننا ، وندخل السرور على عباد الله الفقراء ، وأوصانا أن ننهى ما بيننا من خصومات وأحقاد ، ونفتح قلوبنا صافية نقية ، تسع بحبها عباد الله جميعا . وعلمنا أن نتجه إليه سبحانه ، وقد أحيانا لهذا اليوم ، وحبانا بنعمه الكثيرة فيه — فنهلل له ونكبر ، ونذكره ذكراً كثيراً ونشكره بكرة وأصيلا ، فلا ننسى فى غمرات الفرح عظائم النعم ، وجلائل المنن ، بل تنطلق حناجرنا ترجع ما تعمر به قلوبنا : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولله الحمد .

بهذا يتجلى الله علينا بفضله وعفوه ، وجميل مغفرته ، ويكون العيد حقاً عيداً فى الأرض ، وعيداً فى السماء .

٩ — الحج ..



قال الله تعالى .

« وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ
يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ
يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ،
لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ .. »

« سورة الحج »

هذه خواطر مرسلة عن الحج ، لا تنتظر منها أن تدلك على أركان الحج وواجباته أو طريقة أدائه ، ولكنها ستأخذ بيدك إلى الماضى السحيق ، حيث بدأ تجمع الناس حول البيت العتيق ، وتبدأ السير بك فى رحلة عبر القرون ، إلى عصرنا الذى نعيش فيه الآن .

يقول علماء الاجتماع إن الإنسان الحاضر ترسب فى أعماقه تجارب أجداده الأبعدين والأقربين ، وأن كل ما حصل عليه من تقدم الآن فى شتى مناحى الحياة المادية والفكرية ، مبنى على جهود السابقين وأفكارهم ، ولو لم يحس الانسان ذلك ، ويمكننا أن نطبق هذا على الأديان ، فان كل رسالة سابقة قد بنت أساسا لأختها اللاحقة ، وهيأت لها الأفكار ، وفتحت لها العقول ، حتى إذا جاءت اللاحقة ، بنت على بعض ما خلفته زميلتها السابقة ، ولا أريد أن أتابع هذا القول فى كل جزئية ، يكفى أن نتابعه فى موضوع اليوم ، وهو الحج لنرى إلى أى زمن وأية رسالة يرجع أصل فريضة الحج التى فرضها الاسلام

يحدثنا القرآن عن رحلة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأهله إلى واد غير ذى زرع حيث مكة الآن ، ولم يحدثنا عن سبب هذه الرحلة ، وإن كانت هناك

مصادر أخرى ، تذكر سببا لها حين تقرر أن الغيرة التى دبت فى زوجه السيدة « سارة » من السيدة « هاجر » حين ولدت له إسماعيل ، قد شلتت هذه الأسرة الوادعة فى فلسطين ، وحملت إبراهيم على أن يأخذ ولده وأمه هاجر إلى مكان بعيد عن السيدة سارة ليعيشا فيه ، لكن يبقى بعد ذلك تساؤل آخر لماذا اختار إبراهيم هذه البقعة النائية الجرداء ليترك فيها طفله وأمه ؟ . ألم يكن هناك موضع آخر يليق بهما ؟ ! لقد كانت الأماكن الخصبة الآهلة بالسكان مستعدة لاستقبال هذه الأسرة الصغيرة ، ومقتضى التفكير العادى المستقل يقضى أن يتجه إبراهيم بفلذة كبده ، إلى المكان الخصيب المؤنس ، حتى يطمئن عليه ، فما الذى دفعه إذن إلى هذا المكان القفر ؟ ! لا نستطيع أن نقول إنها محض المصادفة ، ولا أن نقول إنها نتيجة تفكير فى اختيار المكان المناسب فمكة « أو برية فاران » كما تسميها التوراة لم تكن المكان المناسب فلم يبق إذن إلا أن يكون توجيه الله المحض خضع له إبراهيم ونفذه ، وكان إبراهيم أمة قانتا يخضع لتوجيهه ولو كان ذلك فى ذبح ولده ، وإننا لنجد تصديق هذا فيما رواه البخارى قال بعد أن روى تعلق هاجر بإبراهيم عند تركه لهما بمكة ، وقولها له : أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى ، الذى ليس فيه أنيس ؟ قالت له ذلك مرارا ، وهو لا يلتفت إليها فقالت أخيراً له ، آلله أمرك بهذا ؟ قال نعم ! فقالت إذا لا يضيعنا[1] فان هذا الذى رواه البخارى ليتفق تمام الاتفاق مع البحث العقلى عن توجه إبراهيم لهذا المكان ، وهذا ينتهى بنا إلى أن نقول : إن الله أراد لهذا المكان أمرا هيأ له أسبابه ومقدماته ، فساق إليه خليله إبراهيم . ومعه فلذة كبده وأمه ، ليدعهما فيه ، وليدعو الله شفقة عليهما (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) فكان الخير الذى يعيش فيه أهل هذه النقطة ومن حولهم ، إنما هو بركة هذه الأسرة الطيبة الطاهرة ، واستجابة الله لدعاء عائلها إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فقد تفتحت ينابيع الخير من زمزم . حين تفجرت مياهها ليرتوى إسماعيل وأمه ، ويرتوى ملايين الناس من بعدهم فى هذه المنطقة القفر ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ .

فهيأ لهم سبيل الإقامة حول زمزم ، ثم يوجه الله خليله إلى بناء البيت ، فيرفع قواعده مع ابنه إسماعيل ، حين شب وقوى يقولان : (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ثم يأمره بعد ذلك بدعوة الناس إلى الحج لهذا البيت الكريم ويقول له (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم)[1] وهكذا تتم إرادة الله ، ويصبح هذا القفر مثابة للناس وأمنا ، وتصبح للحوادث التى جرت فيه مع إبراهيم وأسرته ، ذكرى خالدة ممتدة على الزمان ، ما بقى الزمان ، يعظم الله ذكرها ، فيجعلها شعائر لعبادته ، والتقرب إليه فى شريعة خاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام.

وإن الفضول العلمى ليجعل الإنسان دائما يتساءل : وهل كان للبيت وجود قبل عهد إبراهيم ؟ وإذا كان له ذلك فهل كان إبراهيم على علم به ، حتى أتى إلى هذه البقعة من أجله ؟ وقد شحنت الكتب بروايات ترضى هذا الفضول وتزيد « تفنن أصحابها فيها عن قدم البيت وعن حج آدم ومن بعده من الأنبياء إليه ، وعن ارتفاعه إلى السماء فى وقت الطوفان ثم نزوله مرة أخرى ، وهذه الروايات يناقض أو يعارض بعضها بعضا فهى فاسدة فى تناقضها وتعارضها وفاسدة فى عدم صحة أسانيدها وفاسدة فى مخالفتها لظاهر القرآن[2] .

ولكن الإنسان يحس — برغم ذلك — بأن مكان البيت كان معروفا معهودا عند إبراهيم حين جاء بابنه إلى هذه البقعة ، وأنه كان يشعر بقداسة جزء من هذا المكان الذى هاجر إليه ، وأنه من أجل هذا تحمل المشاق وجاء بأسرته ، وأسكنها فيه ، واقرأ معى قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) فالإنسان يحس من قول إبراهيم (عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة) أن إبراهيم كان يعرف أن هنا مكانا مقدسا سماه بيت الله

---

(١) سورة الحج : ٢٧ .
(٢) تفسير المنار الجزء الثانى .

الحرام ، وجعل الغرض من المجيء إليه أو الفائدة من إسكان أسرته بجواره ، أنهم يقيمون الصلاة ويعبدون الله ، فلا بد إذن أن تقديس هذه البقعة كان معروفا على الأقل عند إبراهيم ، وأن تقديسها سابق على عهده ، لا مبتدأ من رفعه لقواعده ، لأنه حين ناجى ربه بهذا الكلام لم يكن قد رفع قواعده لأن إسماعيل كان لا يزال طفلا[1] ، وقد أعجبني قول الألوسي في شرح هذه الآية : المقصود إظهار كون ذلك الإسكان مع فقدان مباديه لمحض التقرب إلى الله تعالى ، والالتجاء إلى جواره الكريم » وقوله شرحا لما تفيده الآية « أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع الخالي من كل مرتفق ومرتزق إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك » وهذا الفهم للآية فهم سليم مستقيم ، لا يمكن نقضه ، أو دعوى استحالته، فمهما قيل فيه فهو فهم للآية بجوار ما يمكن أن يفهم فيها ، وهو فهم مقدم على كل فهم آخر لها ، ويمكنني بهذا القدر أن أستغني عن الروايات وأريح نفسي من نقدها ، أو ردها ، إذ يكفيني أن أشعر من القرآن أن حرمة هذا المكان وتقديسه ، كانت معروفة قبل أن يرفع إبراهيم قواعد البيت مع ابنه اسماعيل . ولاداعي بعد هذا لأن يستبد بي الفضول العلمي لأبحث هل بنته الملائكة قبل ابراهيم ؟ وهل حقيقة رفع أيام الطوفان . . . كما تقول الروايات ؟ وهل ، وهل . ؟ فان بيان هذا وان كان من تمام تعقب السلسلة إلى مبدأ التاريخ لكننا لانعثر على يقين من وراء هذا البحث، فانرح أنفسنا إذن ، ولنقف عند هذا الحد من الفهم للقرآن . .

وقد سجل القرآن تكليف إبراهيم بالحج إلى البيت ، ودعوة الناس ليفدوا إليه من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، كما كلفه بتطهير بيته — وقد رفع قواعده — من كل دنس الشرك وغيره ، فلا يجعل للأصنام ولا لغيرها مكانا فيه بل يجعله نظيفا خالصا للطائفين والعاكفين والركع السجود لله رب العالمين (وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود) وهكذا وضع إبراهيم نواة الحج إلى هذا

(١) وقد قال إبراهيم هذا الكلام ودعا ربه هذه الدعوة عند ما فارق هاجر وابنها أول مرة (أنظر حديث البخاري المذكور في القرطبي في تفسير هذه الآية ج ٩ ص ٣٦٩ طبعة دار الكتب).

البيت الكريم ، هو وابنه اسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، وتابع العرب من بعدهما الحج إلى بيت الله ، لم ينقطعوا عنه فى أى عهد ، بل بقى مكان حجهم ، وموضع تقديسهم ، برغم الخلط الذى طرأ على عبادتهم ، حين أشركوا بالله ، واتجهوا إلى الأصنام ، بل إن اتجاههم للأصنام كان منبته ومبعثه — كما تقول بعض الروايات — من تعظيمهم للبيت ، حين كانوا يحملون معهم بعض أحجاره المتناثرة حوله ، ليتبركوا بها ، إذا رجعوا إلى أوطانهم ، ولتكون ذكرى البيت الذى يحبونه ويجلونه ، فأخذت هذه الحجارات المجلوبة تحتل قلوبهم شيئا فشيئا ، وتوارث الخلف حبها عن سلفهم وزادوا عليه ، وربما خفى عليهم مبعث تعظيمها ، فعظموها لذاتها ، ثم نسى الجميع سبب تعظيمها وعكفوا عليها يعظمونها لذاتها ، لا لأنها مجلوبة من جوار البيت ، فكانت عبادة الأصنام ، فتعظيم البيت فى نفوس العرب لم يفتر حتى فى عهد ازدهار الشرك ، بل إنهم جعلوه مكان أصنامهم ، وأخذوا يفدون إليه كل عام تعظيما له ، ولكن كيف كانوا يحجون ؟ وهل هناك تشابه بين حجنا وحجهم ؟ وهل هناك رسل ممن جاءوا بعد إبراهيم غير رسولنا ، كلفهم الله بالحج ؟ وهل حج رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان العرب يحجون ، قبل أن يكلف هو وأمته بالحج ؟ .

لم تحدثنا المصادر الموثوق بها عن رسول جاء بعد إبراهيم كلفه الله بالحج ، وتعظيم البيت مع أنه كان هناك رسل من العرب إلى العرب كشعيب عليه السلام كما لم تحدثنا هذه المصادر عن البيت قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام — بل رأينا رسلا من غير العرب يتجهون لمنطقة المسجد الأقصى ويجلونه من أما كنهم المقدسة مع أنهم نسل إبراهيم ، وهذا وإن كان لا يلفت النظر كثيرا فان سكوت هذه المصادر عن التحدث عن تعظيم البيت والحج إليه فى عهد رسول من العرب إليهم كشعيب يثير التساؤل ، هل كلفه الله وسكتت المصادر عن الحديث ؟ أوكان سكوتها طبيعيا لأن الله لم يكلفهم بالحج وتعظيم البيت ، على كل حال لا نجد جوابا عن هذا إلا السكوت كما سكتت المصادر ، وإن كنا نميل إلى القول بأن الله لم يكلفهم بالحج وإلا لكان ذلك قد عنى بأشياء أخرى ... وكما عنى بالحج نفسه فى عهد ابراهيم .

ومع هذا فقد استمر العرب يحجون إلى البيت منذ عرفوا الحج فى عهد

إبراهيم ، وكانوا يحافظون على الحج محافظتهم على أقدس شيء عندهم ، بل كان أشراف مكة يتسابقون فى خدمة الحجاج الوافدين عليهم من أنحاء البلاد العربية ، وظل البيت الحرام موضع التقديس والتعظيم منذ إنشائه .

هل حج الرسول وهو فى مكة ؟

ذكرت لنا روايات متعددة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حج قبل الهجرة ، كما كان العرب يحجون ، قبل أن يؤمر بفريضة الحج فى السنة السادسة بعد الهجرة ، فقد جاء فى شرح المواهب اللدنية الجزء الثامن « فى الترمذى من حديث جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم حج ثلاث حجج : حجتين قبل أن يهاجر ، وحجة بعد ما هاجر معها عمرة ، وعن ابن عباس قال « حج صلى الله عليه وسلم قبل أن يهاجر ثلاث حجج اخرجه ابن ماجه والحاكم » . وقال ابن الأثير « كان عليه السلام يحج كل سنة قبل أن يهاجر » قال الحافظ « الذى لا ارتياب فيه أنه لم يترك الحج وهو بمكة قط ، لأن قريشا فى الجاهلية لم يكونوا يتركون الحج ، وإنما يتأخر منهم من لم يكن بمكة ، أو عاقه ضعف ، وإذا كانوا وهم على غير دين يحرصون على إقامة الحج ويرونه من مفاخرهم التى امتازوا بها على غيرهم من العرب فكيف يظن أنه صلى الله عليه وسلم يتركه ؟ وقد ثبت أن جبير بن مطعم رآه صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية واقفا بعرفة ، كما ثبت أنه دعا قبائل العرب إلى الإسلام بمنى ثلاث سنين متوالية » .

الحج قبل الإسلام :

ولكن كيف كان الحج قبل الإسلام ؟ وهل هناك تشابه بين حجنا وحجهم ؟ نعم !! فلقد كان السابقون يطوفون بالبيت طوافنا به !! وكان موضع تقديسهم وتعظيمهم ، كما نعظمه ونقدسه الآن ، وكانوا كذلك يقفون بعرفات ، ويفيضون منها ، ويقيمون بمنى ، ويرمون الجمرات ، ويسعون بين الصفا والمروة ، فأفعالنا التى نؤديها فى حجنا الآن تكاد تكون صورة مما كان يؤديه السابقون فى حجهم ، وإن اختلفت عنها فى الروح والجوهر .

وإذا أردنا أن نلتمس لأفعال الحج أصلا وتعليلا من الماضى ، فإننا نجد فيه

مامزيد ، فإن معظم الأفعال إنما تسجل ذكرى حادثة وقعت فى الزمن السحيق « فالسعى بين الصفا والمروة إنما يسجل ذكرى سعى هاجر ، وهرولتها هنا وهناك ، باحثة عن الماء لولدها الظامىء إسماعيل ، إذ كانت تجرى بين الصفا والمروة ، صاعدة على كل منهما ، لعلها ترى مكان ماء تسقى ولدها ، حتى كشف الله كربتها ، وآنس غربتها ، وفرج شدتها ، وفجر لها (زمزم) ، فالساعى بينهما ينبغى له أن يستحضر فقره وذله لله ، وحاجته إليه فى هداية قلبه ، وصلاح نفسه ، وغفران ذنبه ، وأن يلتجىء إلى الله عز وجل لتفريج ما به من الشدائد والنقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يثبته عليه إلى مماته ، وأن يحوله من حاله الذى هو عليه من الذنوب والمعاصى ، إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة ، كما فعل بهاجر عليها السلام ، وقد كان العرب يسعون بين الصفا والمروة ، وكان على كل منهما صنم يتمسحون بهما ، حتى جاء الإسلام ، وكره المسلمون أن يفعلوا كما كان يفعل العرب فنزل « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما »[1] .

أما الوقوف بعرفة : فقديم منذ إبراهيم عليه السلام ، حتى ليقال إنها سميت عرفات لأن إبراهيم قال لجبريل وهو يعلمه المناسك ، عند ما وصلا إلى مكان الوقوف : الآن عرفت عرفت ؟ فسميت عرفات وحذا الناس من بعده حذوه فى الوقوف بعرفة ، حتى فى أيام الجاهلية الوثنية ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة ، حتى إذا كانت الشمس على رءوس الجبال كأنها العمائم على رؤس الرجال ، دفعوا (أى نزلوا من عرفات) فأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدفعة من عرفة ، حتى غربت الشمس ، وقد أراد لذلك أن يخالف الجاهلية ، كما صرح بذلك فى خطبة له ، حيث قال عليه الصلاة والسلام « أما بعد فإن هذا اليوم الحج الأكبر ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون فى هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس إذا كانت الشمس على رءوس

(١) تفسير ابن كثير ملخصا حـ ١ ص ١٩٩ الطبعة الثانية سنة ١٩٥٤ .

الجبال كأنها عمائم الرجال وانا ندفع قبل أن تطلع ، مخالفا هدينا هدى أهل الشرك » فأخر الرسول النزول من عرفات إلى ما بعد الغروب حتى طلوع الشمس .

وأما رمى الحجارة : فهو ذكرى انتصار إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام على الشيطان ، حين أراد أن يثنى الوالد عن أمر ربه ، ويغرر بإسماعيل حتى لا يستجيب لأبيه حين هم بذبحه ، استجابة لما رآه فى المنام من الرؤيا الصادقة « يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين[1] » .

فالرمى عمل رمزى تذكارى لانتصار إبراهيم وإسماعيل على الشيطان يخلد ذكرى هذا الانتصار ، ويجدد فى نفوسنا العزم على التغلب على الشيطان ، كما تغلب عليه أبونا إبراهيم من قبل ، فعله إبراهيم حين طارد الشيطان بعزم وإيمان ، وفعله كل من أتى من بعده حتى الآن ، تخليدا لعمله فيجب على كل حاج ان يستشعر هذا من نفسه وهو يرمى هذه الحصيات ويعزم على مخالفة الهوى والشيطان ، حتى يحظى من الله بالرحمة والرضوان .

والذبح الذى نفعله أيام الحج ، إنما هو تخليد للفداء الذى نجى الله به إسماعيل من الذبح « فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم[2] » فنحن نذبح شكرا لنعمة الله على إبراهيم وإسماعيل وعلينا جميعا ، وإحياء لذكرى هذه النعمة الجليلة ، فمن إسماعيل الذى أنجاه الله وفداه جاء النسل الكريم ، الذى توجه نبينا عليه الصلاة والسلام ، المبعوث رحمة للعالمين فنى نجاة إسماعيل وفدائه ، نجاة وفداء لخاتم الأنبياء والمرسلين ، ورحمة ونجاة للجنس البشرى كله الذى جاءه محمد بالهداية والنور ، فعليه أن يشكر الله عليها ، ويتقرب إليه بما جعله فداء لاسماعيل ، وهو إراقة الدماء لاطعام المساكين والفقراء .

وأما الظهر الذى نظهر به حين نتجرد من ملابسنا حيث لا نستتر إلا بالرداء والإزار ، فهذا شىء له فى أفعال القدماء أصل ، فقد كانوا يطوفون بالبيت عرايا ،

(١ ، ٢) سورة الصافات : ١٠٢ — ١٠٧ .

حتى يتخلصوا حين طوافهم من الثياب التى أذنبوا فيها ، تقديسا للبيت والطواف به !
وظل الأمر كذلك معروفا غير منكور ، حتى جاء الإسلام وفرض كلمته على البيت
الحرام وأتم الله على المسلمين نعمته ، وأكمل دينه فقال الرسول صلى الله عليه وسلم
« لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان » ونحن الآن نتخلص
من ثيابنا العادية كما كان بعض السابقين يتخلص منها ، وإن اختلف الدافع ، لكنا
نراعى مع ذلك شيئا آخر لابد منه ، وهو ستر العورة الواجب فى الإسلام ، فنتخذ
الإزار والرداء لهذا الغرض ، ونظهر جميعا بمظهر واحد يتساوى فيه الغنى والفقير
والملك والسوقة .

أما الطواف بالبيت الذى نفعله الآن فرضا أو سنة ، فقد كان القدماء من
العرب يطوفون مثله ، منذ أن أقام إبراهيم البيت ، وكانوا يعظمونه ويقدسونه ،
ويلوذون به كلما حزبهم أمر ، ويعلقون به عهودهم ومواثيقهم وقصائدهم ، تأكيدا
لها وتوثيقا وتشريفا - كما رأينا فى العهد الذى كتبوه وعلقوه بالكعبة بشأن مقاطعة
الرسول ومن معه فى عهد الرسالة بمكة ، وكانوا يعظمون الحجر الأسود تعظيما كاد
يدفعهم إلى حرب عنيفة ، حين أرادوا وضعه فى مكانه عندما جددوا بناء الكعبة
فقد اختلفوا على من يرفعه ويضعه بيديه ، فى مكانه من البناء ، كل جماعة تريد أن
يكون لها هذا الشرف دون الأخرى ، حتى كادت تقوم بينهم فتنة عمياء ، لولا أن
اهتدوا جميعاً إلى حل . هو أن يكلوا أمر وضعه فى مكانه إلى رأى أول قادم
عليهم . وأراد الله أن يكون هذا القادم هو محمداً الصادق الأمين قبل مبعثه .
ففرحوا وسروا بهذا الحل الذى صادفه التوفيق . ولولا مكانة الحجر الأسود عندهم
لما اختلفوا هذا الاختلاف على من ينال شرف وضعه . وإعادته إلى مكانه من
بناية الكعبة .

ونحن الآن نعظم الحجر الأسود تعظيما يجعلنا نبدأ طوافنا به ، ونقبله إذا
استطعنا تكريماً لنقطة البدء فى عبادة الطواف لا اعتقادا فيه أنه يضر أو ينفع
حتى لكأن كل مسلم هو عمر رضى الله عنه يقول : وقد صفت روحه وتطهرت
نفسيته بالتوحيد « اللهم إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى
رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » .

وقد أمر الله رسوله مع أمته بالتوجه فى صلاتهم كذلك نحو البيت (قول

وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره[1] » فأصبحت الصلاة لا تصح إلا بالتوجه إليه أينما كان المسلم ، وفى أية بقعة على وجه الأرض وجد ، وهذه هى الذروة العليا من التعظيم والتقديس ، الذى زاد به البيت الحرام فى عهد الإسلام تشريفا وتكريماً وتعظيما .

وهكذا نكاد نجد أفعالنا فى الحج صورة مما كان يفعله القدماء فيه ، منذ عهد ابراهيم حتى أيام الجاهلية الوثنية ، مع فارق بالطبع فى روح العبادة بيننا وبين الجاهلية الوثنية ، وقد رأى المفسرون أن القرآن يشير إلى هذا عند قوله تعالى : (الحج أشهر معلومات) فقد قال الزمخشرى فى كشافه « وفيه أن الشرع لم يأت على خلاف ما عرفوه ، وإنما جاء مقرراً له » ويقول الشيخ محمد عبده فى تفسير المنار وقوله « معلومات » إقرار لما كان عليه العرب فى الجاهلية ، من أشهر الحج لأنه منقول بالتواتر العملى من عهد إبراهيم وإسماعيل .

ويقول عند قوله تعالى (وأتموا الحج والعمرة لله) وقد كان الحج معروفا فى الجاهلية لأنه فرض على عهد إبراهيم وإسماعيل فأقره الإسلام فى الجملة ، ولكنه أزال ما أحدثوا فيه من الشرك والمنكرات ، وزاد مازاد فيه من المناسك والعبادات .

ويقول عند قوله «واذكروا الله فى أيام معدودات » ولم يأمر برمى الجمار لأنه من الأعمال التى كانوا يعرفونها ويعملون بها . وقد أقرهم عليها وذكر المهم الذى هو روح الدين وهو ذكر الله تعالى عند كل من تلك الأعمال »

كل هذا يؤكد ما قلته من وجود التشابه الكبير ، بين أفعالنا فى الحج ، وأفعال السابقين من العرب قبل الإسلام .

ماذا فى أعمال الحج من عبادة ؟

ولكن كثيرا ما يتساءل الإنسان : وماذا فى أعمالى هذه من عبادة ؟ ماذا فيها من تقرب إلى الله ؟ مامعنى أنى أذهب إلى عرفات لمجرد الإقامة فيها ساعات ، آكل وأشرب وأنام ، وأشتغل بأعمالى التى أريدها ، دون أن يتحتم على ذكر أو عبادة أخرى ، إن الإنسان ليكفيه أن يذهب إلى عرفة ، فيضرب خيامه ، ثم ينام ويقوم ليأكل ويصلى صلاته العادية ، التى يؤديها فى أى مكان آخر ، ويكفيه كذلك أن يوجد فى أى جزء من هذا المكان الفسيح ، عند غروب

(١) سورة البقرة : ١٥٠ .

شمس التاسع من ذى الحجة ولو لدقائق معدودة ، ثم يغادره ، ومع ذلك « فالحج عرفه » . . ويتساءل الإنسان وماذا فى هذا من نسك وعبادة ؟ ؟ ثم ماذا فى المبيت بمنى ، هذا الوادى الضيق المحرق من عبادة ؟ وأى معنى نفهمه من الإقامة المزدحمة القاتلة فى هذا المكان ؟ إنها إقامة كاقامة عرفات فى الأكل والنوم . بل فيها يعود الإنسان إلى ملابسه العادية ، ويندفع الناس فى مواكب مزدحمة خانقة إلى مكان رمى الجمرات ، ويذهب الإنسان إليها ، ومعه حصى التقطه من المزدلفة ، لعله لا يدرى معنى التقاطه من هناك كذلك وترتفع آلاف الأيدى لتضرب هذه البناية الصغيرة القائمة ، بسبع حصيات وتنتهى بذلك الشعيرة . . ويعود الإنسان وفى نفسه علامة استفهام ضخمة عما فى هذا العمل من العبادة !؟

ثم ما الحكمة فى أن تجتمع هذه الجموع الزاخرة بين هذه الجبال المحرقة ، وفى هذه الأمكنة الضيقة ، وفى أوقات من السنة ، قد تبلغ الحرارة فيها أقصاها ويموت الآلاف من الناس من الازدحام والحرارة ، كما حدث فى بعض السنين الماضية ، والناس مع ذلك لا يؤدون عبادة خاصة غير الإقامة نفسها فى هذه الأمكنة ؟

ثم إذا نزلنا للسعى بين الصفا والمروة قطعنا المسافة بينهما ذهابا وإيابا سبع مرات ، بين درجات الصفا ودرجات المروة فأية عبادة فى هذا السير ؟ هل المهم من هذا كله هو مجرد الذكرى ؟ .

لقد كنت قبل أن أحج أتصور الحج داخل إطار من الروحانية السليمة الخالصة ، ولكنى والحق يقال ، رأيت أن مشاغل الإنسان الضرورية ، وما يكتنفها من مضايقات لابد منها فى قضاء حاجاته ، واصطدامه بالناس ومتاعبهم التى لا تنتهى ، ومشاكلهم التى لا تحد ، رأيت ذلك وأكثر منه يحول بين الناس وبين كثير من هذه الروحانية ! ! وعلى فرض أننا فهمنا بعض هذه الأعمال والمناسك على أنها رموز لأعمال قديمة منذ عهد إبراهيم عليه السلام ، فهى لا تكفى وحدها فى جعل هذه الأعمال شعائر ومناسك ، يترتب عليها هذا الغفران الذى يمنحه الله للحجاج ، فماذا إذن فى هذه الأعمال من عبادة تطهر الإنسان من ذنوبه كيوم ولدته أمه ؟ . . كنت أتساءل دائما ولا أستطيع أن أكتفى

مما يردده الفقهاء من أنها أمور تعبدية لا يعقل لها معنى ؛ لأن الشارع لابد له من قصد وغرض يرمى إليه من وراء هذه التكليفات الشاقة ، التى أمرنا بها ، نعم لابد أن الشارع يقصد إلى هدف من هذه الأعمال ، التى رتب عليها كل هذا الجزاء الضخم ، الذى لم تحظ به عبادة أخرى « فإن من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » فما هو هذا الهدف إذن ؟ لقد خرجت من حجى وتجربتى بمعنى أظن أنه هو الهدف الذى رمى إليه الإسلام ، بجوار إحياء ذكريات قديمة لسيدنا إبراهيم وولده إسماعيل ، وهو ما يصح أن يكون عنوانا عاما للحج وهو : الصبر والامتثال .

الصبر على متاعب السفر ، والانتقال الفاجىء من بيت الإنسان ، والراحة التى يركن إليها فيه ، والخيرات التى تحيط به . . إلى هذا المكان القفر الموحش ، الذى يتميز بصخوره الصلدة ، وحرارته المحرقة أغلب أوقات السنة . . . فإن الذى يصدم المسافر من متاعب ومشاق لا تستطيع أن تعبر الكلمات عنه هنا ، وليس له إلا الصبر . . الصبر العميق . . نعم الصبر على السفر وتزاحم الناس فيه ، وتسابقهم إلى توفير الأحسن لهم ، والصبر على المخاوف التى تنتاب الإنسان ، الصبر على الاقامة فى مكة ، هذه البلدة الطيبة حقاً ، لكنها مع ذلك الضيقة بالوافدين عليها ، المختلفة بكثرتهم ، وبغبارهم ورغباتهم . . الصبر على الإقامة فى أمكنة لم يألفها الإنسان ، ولا يرضى بها إن كان فى بلاده . الصبر على شذوذ الناس وأذاهم، وتغاير معاملاتهم ، وتصادم رغباتهم ، سواء فى ذلك الوافدون على مكة من الحجاج، أو المقيمون بها من أهلها ، الذين ينتظرون موسم الحج ليعيشوا ، أو ليثروا منه ، ويتحكموا فى الأسعار كما يشاءون !!!

ولقد كنت فى كل لحظة تمر على بمضايقاتها من الناس والجو المحيط بى ، ازداد فهما للسر فى قوله تعالى : (فمن فرض فيهن الحج فلارفث ولافسوق ولاجدال فى الحج)[1] ، وأزداد إيماناً وعمقاً بالحكيم الخبير ، الذى خلق فسوى ، والذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فخص الحج بتأكيد هذا النهى البليغ ، الذى جاء فى صورة النفى ، كأن ذلك يجب أن يكون أمراً واقعاً

(١) سورة البقرة من آية ١٩٧ .

ومقرراً فى النفوس . . إن كل لحظة تمر بالإنسان فى الحج ، يحتمل أن تثار أمامه مشكلة ، أو صدام مع الناس ، ويكاد يفقد كل أعصابه من مضايقاتهم ومؤذياتهم ، فهم خليط مختلفو اللغات والطباع والعادات والرغبات ، وليسوا قلة يتحمل اختلافهم ، أو يمكن الحد من رغباتهم ، بل هم كثيرون كثرة لا تجتمع فى أى مكان آخر .

والله العليم الخبير يعلم هذا جيداً ، فوضع لهذه النفوس ، فى هذه المواقف ، لجاماً يحكمها به ، وجعل ثواب الحج فى أن يلجم الإنسان نفسه بهذا اللجام ، ويهدىء أعصابه ، حتى ليكاد يميتها ويدفنها ، ويتحمله ، يتحمل كل مايعترضه من عقبات ومصاعب ومضايقات ، ويصبر ، فإن المغفرة للصابرين المتسامحين . . وتكون أيامه هذه تمريناً وتدريباً له على الصبر ، ومكافحة النفس الأمارة بالسوء حتى إذا نجح فى آخر الأمر . كان له أجر المكافحين الفائزين ، وأخذ درساً ينفعه فى حياته كلها .

والامتثال . . . الامتثال لله العلى الحكيم ، الذى كلفنا أداء هذه الأعمال ، وتركنا دون أن يبين لنا فى جلاء الحكمة منها ... فإن حقيقة الامتثال والخضوع تظهر فى مثل هذا المجال . فى الطاعة العمياء مع الثقة بالآمر ، فإن ذلك هو ميزان العبد الصالح . . لأن الأعمال التى تظهر حكمتها للعامل ، وتتضح فائدتها له ، ويعرف الثمرة التى سيجنيها من عمله .. قد يندفع إليها لاقتناعه بفائدتها الواضحة ، وأسبابها الظاهرة ، فلا تكون الطاعة فى أدائها محضة للآمر ، لأن الأسباب والغايات فيها كان لها نصيب كبير فى اقتناع العامل بها ، وعمله لها ، وبعكس ذلك الأعمال التى لا تظهر حكمتها أو دواعيها للعامل ظهور تلك ، فإنه يقدم عليها وهو مقتنع بها ، وقد يكون فى نفسه منها شىء ، لكنه يعملها استجابة للآمر الموثوق به ، ويتحمل فيها المشاق والصعاب ، وهو لايدرى الحكمة التى جعلته يرزأ تحت هذه الصعاب ، وليس أمامه إلا شىء واحد ، جعله يقدم على ذلك كله ، وهو التماس الرضا من الآمر ، وحب الامتثال له . ومثل هذه الأعمال يمتحن بها الشخص ، ويختبر مقدار إخلاصه . . . ولذا يسميها الفقهاء أعمالا تعبدية ، أى أن الدافع لها هو محض عبادة الله ، وخضوع العبد له ، دون أن يفهم الإنسان لها فوائد وأسبابا ظاهرة ملموسة ، ومن أجل هذا سميت أفعال الحج شعائر ، لأنها سمة الإخلاص

والخضوع ، يقول سبحانه وتعالى : (إن الصفا والمروة من شعائر الله) وقد جاء في تفسير المنار(1) : « وأما كون المناسك والأعمال شعائر وعلامات ، فوجهه أن القيام بها علامة على الخضوع لله تعالى وعبادته إيماناً وتسليما » ويقول : « في الأحكام التي شرعها الله نوع يسمى بالشعائر ، ومنها مالا يسمى كذلك ، كأحكام المعاملات كافة ، لأنها شرعت لمصالح البشر ، فلها علل وأسباب ، يسهل على كل إنسان أن يفهمها ، فهذا أحد أقسام الشرائع » .

والقسم الثاني . . هو ما تعبدنا الله تعالى به ، كالصلاة على وجه مخصوص ، وكالوجه فيها إلى مكان مخصوص ، سماه الله وبينه ، مع أنه من خلقه كسائر العالم ، فهذا شيء شرعه الله وتعبدنا به ، لعلمه بأنه فيه مصلحة لنا ، ولكننا نحن لا نفهم سر ذلك تمام الفهم من كل وجه والصلاة على وجه خاص والتوجه ومثلهما وإن كانا من الأمور التعبدية ، التي يمتحننا الله بها ، ويظهر فيها معنى الامتثال لكنها سهلة الاحتمال على كل حال .. أما أعمال الحج فيكون الامتحان فيها أقسى ، والامتثال أظهر وأوضح .

فليس هناك من الأمور التعبدية ماتبلغ المشقة فيها مبلغها في الحج ، ففيه إرهاق مالي وجسمي ونفسي ، يعرفه تمام المعرفة كل من أدى فريضة الحج مهما توافر له من أدوات السهولة والتيسير . . وذاق ما فيه من متاعب ومشاق ، لايوجد عشر معشارها في أية عبادة أخرى .

فأية عبادة أخرى ينفق فيها الإنسان ماينفقه في الحج ، فالمسلم قد يكون في حاجة إلى المال ، ينفقه في أبواب أخرى من أبواب حاجاته في حياته ، ولكنه يؤثر أداء الفريضة ، ويحرم نفسه وأولاده من أشياء كانوا يحبون تهيئتها . . والارهاق الجسمي يعرفه كل من كابده ، فالانتقال من بيت الإنسان ، الذي ألف الراحة فيه ، والسفر ، وهو قطعة من العذاب ، والمكث في هذا المكان الجبلي المزدحم الحار عشرات الأيام ، والانتقال فيه من مكان إلى مكان ، وعدم تيسر سبل الراحة فيه ، وسير الإنسان أياما وهو شبه عريان ، معرضاً للجو

(1) ج ٢ ص ٤٣ ، ٤٤ .

وتقلباته . . كل ذلك يكابده الإنسان فى الحج ولا يرى له مثيلا فى أية عبادة أخرى .

أما الإرهاق النفسى فيبدأ من بدء الرحلة ، وفراق الأسرة والأحبة ، والتفكير فى شئونهم ، ثم مصاحبة الناس ومخالطتهم ، وهم أخلاط غير منسجمة ، بل متفاوتة فى الخلق والعادة والنظافة ، ممايثير مضايقات يذهب أمامها حلم الحليم ، لولا أن الله عنى بالتوصية فى الحج خاصة بعدم الغضب والجدال . . كل هذا يمر على حساب الإنسان وأعصابه ، فيرهق نفسه ، ويكظم غيظه ، ويتحمل مالا يحتمل ، مما يجعله فى حرب عنيفة بينه وبين نفسه الأمارة بالسوء ، القلقة الغضوب ، ولاشك أنه فى هذه المعركة فى حاجة إلى ذخيرة قوية وافرة من الصبر والامتثال ، تجعله أهلا للمغفرة والجنة .

ومن أجل هذا كله قلنا إن الغاية الكبرى من الحج على ما ظهر لى إنما هى تعويد الناس على الصبر والامتثال فى الأعمال والأسفار ، وفى صبر الإنسان واحتماله وامتثاله يكون قبول عبادته ، وليس بغريب على الحج هذه الغاية ، فقد رأينا الأمم تعنى بتربية أبنائها على الشظف والتقشف ، وتخصص لهم وقتا ليجتمعوا فيه فى معسكرات عامة، تسودها البساطة والاعتماد على النفس ، ويدرب الشبان فيها على تحمل الشدائد ، ومجابهة الطبيعة بعواملها المتغيرة ، كما يدربون على الطاعة لقائدهم ، والانقياد له دون مناقشة ، حتى لا تغرق الأمة فى نعيمها وترفها ، وتنسى الشدائد والاعتماد على النفس ، وتنفر من الطاعة فى سبيل الجماعة ، فتنحل عزائمها وتخور قواها ، وتنهار لأول ضربة تسدد إليها أوشدة تصدمها .

فلا عجب إذا استظهرنا هذه الغاية من الحج ، فالاسلام دين اجتماعى يعنى بتربية النفس ، وتقوية الجسم ، وتعزيز الروح الجماعية فى تابعيه .

ولقد صرح القرآن بالغاية الكبرى والفائدة العملية العظمى من الصلاة ، وهى تطهير المجتمع من الفساد ، وإقامته على أسس من الفضائل ، تبث السعادة فى أرجائه فقال (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) والحج بما فيه من

وسائل متعددة لتهذيب النفس ، وتقوية الروح ، وتنشيط الجسم ، أقرب العبادات إلى الفائدة العملية والمعانى السامية التى لمسناها فيه .

معان أخرى كريمة :

على أن هناك معانى أخرى كريمة ، تتجلى فى تربية النفوس وصقلها ، وإعدادها لتحمل رسالة الإسلام ، وهى رسالة الإنسانية الكبرى ، فهذا المظهر العام الذى يظهر به الحجاج حين يتجردون من ملابسهم ، وزينتهم المتفاوتة تفاوتهم فى الثروة أو العادة ، ويلجئون إلى لباس موحد لا يظهر فيه التفاوت المعروف فى الملابس العادية . . وقد كشفوا رءوسهم ، وأصبحوا ولا تفاوت بينهم ولا تمايز فى مظهرهم ، فالملك كالمملوك ، والأمير كالحقير ، والغنى كالفقير ، والكل يتجه إلى الله فى ضراعة يسأله التوبة والمغفرة ، ويصبح الجميع فى سباق لبلوغ غاية واحدة ، هى الرضا من الله ، وقبول العمل ، ويحس الغنى والقوى بهذا ذل الحاجة الى الله ، وهوان نفسه أمام جبروته ، ويستشعر معنى المساواة فى هذه العبودية ، التى ضمت فى ردائها الجميع ، دون تمييز ، فتطامن نفسه ، وتنكسر حدتها ، ويحس فى لحظات نادرة تمر به معنى الأخوة الشاملة ، التى يحرص الإسلام على غرسها فى نفوس أتباعه ، ومن ناحية أخرى يرى الفقير الضعيف ذل الغنى القوى أمام ربه ، يتضرع إليه ، ويسأله قضاء حاجاته ، كما يسأله الفقير ، فيحس فى هذه الحالة معنى المساواة ، يتحقق فى رحاب الحج ، فهو والغنى والقوى عبيد الله المحتاجون إليه ، الفقراء إلى رحمته ، فترتفع حينئذ معنويته وتعلو فى نفسه منزلته ، ويسترد فيها قيمته ، فلا يذل ولا يضعف إلا لله ، وبهذا وذاك يتحقق التقارب الذى يريده الإسلام بين تابعيه ، ليعيشوا إخوة متفاهمين متحابين .

وأشهد أننى لم أر فى حياتى مظهر المساواة يتحقق بأجلى معانيه كما رأيته فى الحج ، فإن كان الفقير يقف بجانب الغنى فى صفوف الصلاة ، فان مظهرهما مختلف تمام الاختلاف فى نظافة الملابس وجودتها ونوعها ، وإن كان هناك اتفاق فى الامتناع عن الطعام والشراب فى الصيام بين الغنى والفقير ، فان ذلك أمر سلبى لا يرى ، ولا تنفعل النفس بمظهره ، أما فى الحج فقد نحى الحاج عن بدنه ملابسه

المتفاوتة التي تنم عن غناه وفقره ، ويراها الناس رمزاً لقيمته في المجتمع ، واستبدل بها لباساً خاصاً مشتركا متحداً أو متقارباً لايدرك تفاوته .

وهذا الإشتراك في اللباس يوحي للانسان معاني كريمة ، ويجعله يحس معنى الأخوة الأولى ، « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

ولم أكن وأنا في قافلة الحجيج أعرف الشخص الذي أمامي إلا أنه مسلم ، وفقير محتاج إلى الله مثلي ، فالوزير والأمير أمامي تخادمهما ، لا أميز بينهم إلا إن لجأت إلى السؤال عن أسمائهم وعملهم وانتقلنا سوياً إلى جو آخر غير جونا الذي نعيش فيه ولقد كانت نفسي تتفاعل بهذه المظاهر الملموسة أمامي ، أكثر مما تفاعلت بالمحاضرات والأحاديث والقراءات التي مرت بي طول حياتي . ولا شك أن هذا درس من أكبر الدروس العملية المفيدة فيما نسميه الديمقراطية التي ينشدها جميع الناس ولا سيما عباد الله الفقراء والضعفاء ، فهو تدريب عملي شاق على التآخي والمظهر الموحد والشعور الموحد ، لايتوافر في أي مظهر آخر من العبادات الأخرى .

هل يستفيد المسلمون ؟

ولكن هل يستفيد المسلمون في حياتهم من هذا الدرس الواقعي البليغ ؟ إنني أقرر مع الأسف أن غالبية الحجاج من العوام وأشباههم بل وأكثر المثقفين لايفطنون إلى هذه المعاني البليغة ، ولا إلى هذا الدرس العملي المفيد، ويمرون بهذا المظهر الممتلىء بالمعاني الجليلة دون أن يدركوا سره ومغزاه والفائدة التي يمكن أن يجنوها منه !!

وكان من الممكن أن يخرج الحجاج بفائدة نفسية كبرى لو عنينا بتلقينهم هذه المعاني ، ولفت نظرهم إليها في دروس عامة تلقى عليهم ، ولاسيما في مواسم الحج ، لأنها تكون ذات تأثيرقوي على نفوسهم ، إذ الامثلة الحية التي تمر بهم كل لحظة ، كبيرة النفع في تربية النفوس ، وإشعارها هذه المعاني السامية ، التي ينطوي عليها هذا المظهر . . ولكن مما أسفت له انعدام العناية بهذه الدروس في الحج ، حتى البعثات التي تضم المثقفين تتحول إلى ركود وخمول ، لا يستفيد الناس منها بعض ما كان يعلق على إرسالها من آمال ، وكان من الممكن استغلال هذا الاجتماع الهائل الذي يضم مسلمين من جميع أنحاء الأرض ، لتوجيههم

التوجيه السديد ، الذى يرشد إليه الإسلام ، نعم لو نهض المسلمون والمعنيون بتوجيههم لاستغلال هذا الموسم العام لتوجيه النفوس ، وهى فى هذا الجو الروحانى أكثر استجابة للتوجيهات — لظفرنا بفائدة عظيمة من هذا الاجتماع .

ومن الممكن — لتحقيق ذلك — أن تعنى كل دولة اسلامية بإيفاد مرشدين نشطين ، من علمائها الدارسين الفاهمين ، مزودين بمكبرات الصوت ليحدثوا حجاجها ، وكل من يشترك معهم فى لغتهم عن المعانى الكريمة التى تنبعث من هذا الاجتماع العظيم ، ويستغلوا الروح التى تسيطر على الحجاج ، لينتقلوا بهم الى حياة جديدة ، من العمل الصالح ، ويغرسوا فيهم الروح الاجتماعية التى يجب أن تسودهم فى كل حياتهم ، ويجعلوا من الحج نقطة تحول فى حياة الحاج ، حقيقة لاظاً ، وحبذا لو زودت كل دولة وعاظها بكتيبات صغيرة تتحدث عن هذه المعانى حتى تتوافر كل الوسائل لتوجيه الحجاج .

وفى مصر يستغل الأزهر ووزارة الأوقاف والشئون الاجتماعية فرصة اجتماع الناس فى المولد من كل ناحية ويتخذ الوعاظ والمرشدون من مكبرات الصوت أداة لإيصال مواعظهم وتوجيهاتهم لأكبر عدد ممكن ، فيحدثونهم عن أدوائهم وعيوبهم وعن العلاج الكفيل بالقضاء عليها ، ويفهمونهم القضايا الدينية الصحيحه فى الأولياء وكراماتهم وزياراتهم ، كما يحدثونهم عن أعمالهم ومصالحهم ، فيعود الناس بفائدة جديدة قد اكتسبوها من اجتماعهم ، فحبذا لو أمكن إيجاد هذا بصورة مكبرة فى موسم الحج .

وفى الحج معنى آخر من المعانى الكريمة ذات الأثر البعيد فى حياة المسلمين فإن اجتماعهم من جميع الأقطار ، واختلاطهم بعضهم ببعض فرصة كبيرة لإيجاد التعارف والتعاون ، وتبادل المنافع بين أكبر عدد ممكن من المسلمين ، فليست هناك فرصة تتاح للمسلم ، ليجتمع بإخوان له من المسلمين جاءوا من أقاصى الأرض كفرصة الحج ، وفى رحاب البيت قبلة الجميع تكون النفوس أكثر استعداداً لاستشعار معانى الأخوة والتعاون ، ومن الممكن أن يعرف المسلمون فى أية بقعة من الأرض حالة إخوانهم المسلمين فى جميع أقطار الأرض الأخرى عن طريق التلاقى والتعارف الذى يدعم

التعاون بينهم والنهوض بالمسلمين جميعا كوحدة متماسكة ، تدفع عن نفسها كل سوء يراد بها ، نعم من الممكن ذلك لو أراده المسلمون وسعوا إليه وهيئوا الأسباب له ، ولكن هل هذا المعنى متوافر الآن فى أية صورة من صوره ولو مبسطة ؟ الجواب بكل أسف بالنفى ، وذلك لأسباب يهمنا أن نذكرها حتى تقرب إلى النفوس المستعدة امكان تلافيها .

منها : أن أكثر الحجاج من كل قطر من العوام الفقراء ، الذين لم يعرفوا هذا المعنى الكريم من الحج ، والذين لايهمهم إلا أن يروا البيت ، وينتقلوا فى أماكن الشعائر ، ويرضوا نزعة دينية فى نفوسهم ويرجعوا ليقال إنهم حجاج ويحوزوا هذا الشرف وسط أقوامهم . والمثقفون الذين يأتون للحج وهم قليل ينقصهم حسن التوجيه كما تنقصهم وتصعب عليهم وسائل التعارف لو أرادوه وقليل منهم من يريد ذلك أو يسعى إليه .

ومنها : اختلاف اللهجات واللغات بين الحجاج اختلافاً يصعب معه التفاهم ، فكم التقيت بمسلمين من جنوب إفريقيا وشرقها ومن الهند وباكستان وتركيا ، وغير ذلك ، وكنت شديد اللهفة إلى التحدث معهم ، والتعرف على أحوالهم ولكن اختلاف لغاتنا ، كان العقبة الكبرى أمام ما أريد . ولعل المتاعب التى تعترض الإنسان فى حجه ، تحول بينه وبين كثير من رغباته فى تحقيق هذه المعانى ولقد كنت شديد الرغبة فى لقاء بعض علماء البلاد الإسلامية الذين عرفت أنهم يحجون فى ذلك العام ولكن ما أصابنى من متاعب حال بينى — وأنا آسف — وبين ما أريد .

ولو استغل زعماء المسلمين وموجهوهم ، فرصة اجتماع ممثلين من جميع الشعوب الإسلامية فى الحج ، وعقدوا لهم مؤتمراً يتحدثون فيه عن مواضع النقص وطرق الكمال فى مجتمعاتهم ، وأحاطوهم علماً بشكاية إخوانهم المسلمين وآلامهم فى الأقطار الأخرى ، وبصروهم بما يطلب منهم « كإخوة » من المعاونة والمساعدة أقول لو استغل الزعماء هذا لكان مكسباً ضخماً للشعوب الإسلامية وقضاياها ، ولو أن الزعماء والرؤساء أنفسهم جعلوا من موسم الحج كل عام مؤتمراً يضمهم فى رحاب البيت وفى أرض الرسالة ، ليتعارفوا ويتفاهموا ويتعاونوا ، لكان ذلك خيراً وبركة على المسلمين .

ولعل علماء الدين من جميع الأقطار ، ومن مختلف المذاهب ، هم أولى الناس بالتسابق إلى هذا الاجتماع ليتفاهموا على إزالة كثير من الخلافات المذهبية التي ورثها لنا التاريخ ، وأصبنا بالتفكك من أجلها ، لأن علماء الدين هم القدوة ، أو هذا هو الذي ينبغي وعليهم أن يضربوا لرجال السياسة المثل في طرح الهوى ، والاتجاه إلى ما ينفع المسلمين ويرفع عنهم الكابوس الثقيل ، الذي ظل يثقل كاهلهم ، ويوقف ركبهم ، ويشل حركتهم ردحاً طويلاً من الزمن ، وقد دفعني شعوري بهذا المعنى إلى التحدث مع فضيلة الشيخ محمد بن ابراهيم آل الشيخ مفتي المملكة السعودية حينما كنت أقوم بالتدريس هناك ووجدت منه أنه يشاركني هذا الشعور ، ويتحمس له ، وخطا في سبيل تحقيق هذا المعنى خطوات لم تسر حتى نهايتها وحينما كنت بالهند لمست رغبة جارفة من علمائها في التقائهم بعلماء البلاد العربية ولا سيما علماء الأزهر في موسم الحج ليتحدثوا معهم في مشاكلهم ويعرفوا اتجاهاتهم ، وكم أود ويود معي كل مخلص أن يحيا هذا المشروع ويتلاقى في موسم الحج علماء الشعوب الاسلامية والمهتمون بقضاياها في مؤتمر ضخم منظم يعقد كل عام لتوجيه الشعوب الاسلامية إلى خير السبل التي تحقق أملها وترفع شأنها ، فإن الاجتماع في هذا المكان المقدس لا يتيسر — لظروفه المادية والروحية — في أي مكان آخر وصدق الله العظيم إذ يقول : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم » .

وهذه المنافع التي يشهدونها في الحج ، لا تقف عند حصر لو اتجهوا إلى استغلال كل فرصة في هذا الاجتماع الروحاني العالي ، وأتمنى أن يوفق الله زعماء المسلمين وقادتهم وعلماءهم ليوجهوا إلى هذا المؤتمر بعض ما يوجهونه من عناية إلى اجتماع الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، فإن الاتجاه إلى الشعوب الاسلامية ، وبث روح التعاون والتعارف والتآخي بينها ، لهو أقوى وأجدى على هذه الشعوب من التماس إنصافها من هذه الهيئات ، التي برهنت الأيام على أنها وسيلة في يد الأمم القوية تستعين بها على هضم حقوق الشعوب الضعيفة وإن القوة التي تنبعث من داخل الشعوب الاسلامية وتنظم في هذا المؤتمر الاسلامي العظيم ،

لتغنيهم عن الوقوف طويلاً على باب الأمم المتحدة ، ينتظرون منها ما ينتظره الظمآن من السراب الخداع ، فقد علمتنا الحوادث أن الأقوياء لا يسلمون لضعيف بحقه إلا بعد أن يجبرهم على ذلك جبراً ، وأنه لا سبيل لضعيف يبتغى الفوز بحقه إلا أن يقوى ويجد له إخواناً يعاضدونه ، ويشدون أزره فى إخلاص ، ولن يجد أى شعب مسلم نصيراً له كما يجده فى الشعوب الإسلامية الأخرى ، متى أحسن توجيهها « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

وإنه مما يزيدنا أملاً فى المستقبل أن نرى أحد قادة المسلمين مدركاً تمام الإدراك ، للدور العظيم الذى يمكن أن يؤديه هذا المؤتمر للنهوض بالمسلمين ، وخدمة قضاياهم ، فحين نمسك بكتاب فلسفة الثورة نجد السيد الرئيس جمال عبد الناصر ، يولى هذا المؤتمر عناية خاصة ، وهو يضع خططه للنهوض بوطنه الصغير ، ووطنه الإسلامى الكبير ، الذى يمتد عبر قارات ومحيطات ، يقول فى آخر هذا الكتاب :

« ثم تبقى الدائرة الثالثة ، الدائرة التى تمتد عبر قارات ومحيطات ، والتى قلت إنها دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات » .

« ولقد ازداد إيمانى بمدى الفاعلية الإيجابية التى يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الاسلامى بين جميع المسلمين أيام ذهبت مع البعثة المصرية إلى المملكة العربية لتقديم العزاء فى وفاة عاهلها الراحل الكبير » .

« ولقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخواطرى تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الاسلام ثم وجدتنى أقول لنفسى » .

« يجب أن تتغير نظرتنا إلى الحج لا يجب أن يصبح الذهاب إلى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد فقط أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة » .

« يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم إلى متابعة أنبائه لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صورا طريفة لقراء الصحف

وإنما بوصفه مؤتمراً سياسياً دورياً يجتمع فيه كل قادة الدول الاسلامية ورجال الرأى فيهم وعلماؤها فى كافة أنحاء المعرفة وكتابها وملوك الصناعة فيها وتجارها وشبابها ليضعوا فى هذا البرلمان الاسلامى العالمى خطوطا عريضة لسياسة بلادهم ، وتعاونها معا حتى حين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام . »

« يجتمعون خاشعين . . ولـكن أقوياء متجردين من المطامع مستضعفين لله ولـكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم حالمين بحياة أخرى . . مؤمنين أن لهم مكاناً تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله فى هذه الحياة » ! .

أماكن الحج

بعد أن وصلنا إلى هذه النقطة ، وفرغنا من بحث المعانى التى يمكن للباحث الفاحص أن يجدها فى الحج وأعماله المتنوعة ، أشعر بأن فى النفس أشياء لا أستريح إلا إذا وصلتها بنفوس القراء ، وهذه الأشياء تدور حول أماكن الحج هذه وما هى عليه .

إن مكة العاصمة الروحية للمسلمين وهم مئات الملايين ، يحج إليها كل عام مئات الآلاف منهم وفيهم بحمد الله أغنياء أصحاب ثروات ولهم دول وسلطان وإمكانيات وقد مر أربعة عشر قرناً تقريبا ، والمسلمون يتدفقون إلى مكة ، وما حولها ، وإلى المدينة ، وكان ولا يزال منهم حكام تدفعهم عواطفهم الدينية إلى أداء الفريضة ، وإشباع الرغبة الدينية بزيارة هذه الأماكن المقدسة وأعتقد أن كل مثقف من أهل البلاد أو من الوافدين عليها لابد أن يدور بنفسه ما دار بنفسى ، عندما شاهدت هذه الأماكن لأول مرة ، لقد انتابنى تفكير ممتزج بالأسى كثيراً وقلت : هل كان يليق بملايين المسلمين منذ أن قامت لهم إمبراطورية ضمت الشرق والغرب إلى الآن أن يتركوا هذه الأماكن على حالتها التى نراها ؟

مكة : مهوى أفئدة المسلمين ! كيف تـكون مدنهم المتوسطة فى شتى دولهم أحسن منها حالا ، وأرقى منها تنظيما ، وأوفر منها راحة ؟ وعرفة ومنى والمزدلفة ؟ ! كيف يتركها السابقون فى مئات السنين الماضية حتى تتسلمها منهم كما تركها الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع تغيير طفيف فى بعض المعالم ، لا يوفر تنظيما ، ولا يجلب راحة ؟

الخلفاء الأمويون والعباسيون ومن بعدهم ، وحكام مصر وخلفاء بنى عثمان ، الذين حكموا هذه الأماكن المقدسة ، ماذا فعلوا لها ، حتى يوفروا الراحة للآلاف من قصادها كل عام؟ يمر الإنسان بعرفة وبمنى فلا يجد للسابقين من هؤلاء أثرا ملموساً فيها مع شدة حاجتها للأعمال . . ويمر الإنسان بمكة ويتفقدها فلا يرى لهؤلاء كذلك كبير فضل فى تنظيمها والرقى بها ! ؟

هل يليق بالعاصمة الروحية للايين المسلمين على مر السنين ، أن تكون مبانيها وشوارعها على هذا المنظر ، الذى يقل عن نظائرها فى المدن المتوسطة فى الدول الإسلامية المختلفة ؟ !

لو أن هذه الأماكن لغير المسلمين لحولوها إلى جنان فيحاء ، ولجعلوا من مكة عروس العالم فى نظامها ومبانيها وأناقتها ، وجعلوا من منى وعرفات جنات مريحة جذابة ، وبدلوا متاعبها إلى راحة واطمئنان ، يذهب الحاج إليها ، وكأنه يذهب إلى نزهة جسمية وروحية معاً .

ولكنى مع ذلك لا أريد أن أبحث كثيرا عن مسئوليات الماضين ، فذلك بحث لا خير فيه إلا بمقدار ما نستفيد منه نحن فى شد عزائمنا ، لنصحح أخطاء الماضين منا أو إهمالهم . . والذى أريد أن أقوله هنا للمسلمين جميعا — حكاما وشعوبا — وفى مقدمتهم حكام هذه البلاد المقدسة أن من الممكن أن تأخذ هذه الأماكن حظها وأن نعوضها ما فاتها فى الماضى ، وإن المخترعات الحديثة وأساليب الحياة العصرية ، لتسهل علينا كثيراً مما نحب أن نعمله فى هذه الأماكن وإننى برغم ما أعرفه من بعض الأعمال الإصلاحية الطيبة التى تقوم بها الحكومة السعودية منذ أن فتح الله عليها خزائن الثروة من البترول ، سواء فى عرفات ، أو فى منى ، أو فى مكة والمدينة فإننى أعتقد أن الإصلاحات التى أنشدها وينشدها المسلمون فوق طاقة مالية دولة إسلامية واحدة ، والمسلمون جميعا مسئولون عن النهوض بهذه المشروعات فى قوة وتضافر ، ليجعلوا من الرحلة إلى الحج ، فى هذه الأماكن رحلة محتملة لا يتطرق إلى نفس الحاج أثناءها ما يتطرق إليه الآن من مضايقات فوق الطاقة ، ومؤذيات لا تتحملها النفس . .

إن الإنسان يخرج للحج وأول شىء يقدره أنه سيموت هناك من الحر ، دون أن يجد إسعافاً ينعشه !

وقد رأينا بوادر العمل لهـذا الإسـعاف من المستشفيات التى تقيمها الحـكومة الآن وتنقذ كثيراً من الموت ولـكنها دون الحاجة بمراحل . فلماذا لا تساهم الدول الإسلامية فى الإكثار من هذه المستشفيات ، وترسل أطباءها وممرضيها ليقوموا فيها باستقبال المرضى من حجاجها ؟ !

لقد دخلت المستشفى الذى أعدته الحـكومة السعودية بمريض معى ، أصابته ضربة الشمس وقد راعنى كثرة المرضى ، وثقل العبء ثقلا لا يمكن للأطباء والممرضين القلائل احتماله ، وكان المرضى من كل لون وجنس ولغة يئنون ويشكون ، ولـكن من ذا الذى يعرف شكواهم ؟ وإنى لا أزال للآن برغم السنين التى مرت اتألم ألماً يستولى على كل حواسى ، حينما أتذكر منظراً رأيته واشتركت فيه : امرأة وردت للمستشفى مصابة بضربة الشمس وهى فى النزع الأخير لا تتكلم العربية لا يعرف أحد فى المستشفى اسمها أو جنسها ، والمرأة تتكلم وكأنها تريد أن تفهمنا اسمها ، ومكان زملائها ، ومن أية دولة هى ، ونحن كثيرون حولها ، نحاول أن نفهم فلا نستطيع واستمرت الحال دقائق كلها ألم محض ، والمرأة تقترب من الصمت ، ونحس لهفتها على إفهامنا أحوالها ، ونحن كذلك متلهفون ، ومع ذلك أخلدت إلى الراحة النهائية فى هذه الحالة المحزنة ، دون أن نعرف عنها شيئاً ! ! وسمعت أناساً يشكون ويئنون والممرض بجانبهم حيران لا يعرف الشكوى ، ولا مصدر الأنين ، وماذا يعمل الممرض ؟ هل من المفروض عليه أن يعرف هو والأطباء لهجات العالم الاسلامى ، وهى عشرات ؟ ! !

وهنا — فى هذا الموقف المؤلم — أحسست الحاجة الماسة إلى ضرورة وجود أطباء وممرضين من كل دولة ، لها حجاج ، حتى يقوموا على خدمة مرضاهم ، والتعرف على مرضهم والاستجابة لطلبهم !

إنى — وقد أديت الحج مرة — أريد أن يرجع الحاج بعد رحلته بروحانية تفوق روحانيته التى أقبل بها على الحج أريد ألا يعلق بذهن الحاج أشياء منفرة عن الحج ، أريد أن نجذب إلى الحج مرات كل من تعود فى حياته النظافة والمحافظة على صحته ونفسيته .

ليتنا نفهم السر من الحج ، ونفهم مقدار الغفران ، الذى جعله الله للحج المبرور ، حتى نحرص عليه ونصل بفضل الله إليه . . ليتنا ! !

الذبائح

بقى علينا كذلك أن نبحث مسألة الذبائح التى تنحر فى منى ومكة وعرفات فى موسم الحج إن الله قد فتح باباً للحاج يجبر منه بعض مايقع فى نسكه من نقص أو خلل وهو أن يذبح . ومن ذا الذى يتم أفعاله فى الحج كما يطلب منه ؟ فلابد إذن من الذبح ، وحتى الذى يظن أنه تم افعاله لا تستريح نفسه إلا إذا ذبح . .
ويتم كل هذا الذبح فى أيام متتابعة ، ومن مئات الآلاف من الحجاج ، لقد كان عدد الحجاج فى السنة التى أديت فيها فريضة الحج حولى الثلاثمائة ألف حاج من جميع الأقطار .. وعرفت من قرب وعن تجربة أن كثيرا من الحجاج لا يكتفى بذبيحة واحدة بل يذبح ذبيحتين أو أكثر وعلى فرض أن هناك قلائل من الحجاج لا يذبحون ، فإن من الممكن أن نقول فى يسر ونحن آمنون من الخطأ والمبالغة إن متوسط الذبح ذبيحة لكل حاج ، ومن ذلك نستطيع أن نقول إن ما يذبح باسم الفقراء والمساكين فى أيام ثلاثة لا يقل بحال من الأحوال عن ثلاثمائة ألف ذبيحة ، وإذا أردنا أن نتبسط أكثر على سبيل الجدل نقول مائة ألف ذبيحة وإذا جعلنا ثمن الذبيحة فى المتوسط خمسة جنيهات كان ماينفق على الذبائح نصف مليون من الجنيهات إن لم يزد عن ذلك .

هذا حساب بسيط التزمت فيه المؤكد جدا من الأرقام ، حتى لا يتهمنا أحد بالمبالغة فى التقدير وإن ضخامة المبلغ الذى ينفق فى هذا السبيل يوجب علينا أن نحرص على وصوله إلى أيدى أربابه من المستحقين — حتى تتحقق حكمة الشارع من الذبح فى هذه الايام ... وإن كان بعض الناس يقول إن المهم أن نذبح ونريق الدماء وكفى . . فإنى لا أتفق معه فى هذا وأرى أن الشارع الحكيم لا يدفعنا دفعا إلى مجرد إراقة الدماء دون أن يكون الغرض من ذلك إطعام المحتاجين مع امتثال أمر الله فى الذبح .

فعلى هذا نتساءل : هل يوجد من المحتاجين من يمتص مائة ألف ذبيحة تذبح لتؤكل فى ثلاثة أيام . . . ؟ العقل يحيل ذلك . . . والواقع يؤيد هذه الاستحالة فقد رأينا آلافا من الذبائح تلقى فى الفضاء ؛ والحرارة تبلغ ذروتها ، فتفسد

وتتعفن فى سرعة ؛ فيضطر المسئولون إلى إهالة التراب عليها ، حتى لا تؤذى الآلاف من الناس برائحتها ، وما يتولد فيها من جراثيم ومضار ، وهكذا نشهد مئات الآلاف من الجنيهات يهال عليها التراب فى ساعات معدودات ، ويحرم منها المسلمون : الدافع الذى يدفعها ثمنا لذبيحة ، وغيره الذى لم تصل إلى يده ، لأنه غير موجود فى هذا المكان ليستطيع استغلالها . وتتكرر هذه الحالة المؤسفة كل عام وتذهب مئات الآلاف من الجنيهات سدى .. كأننا ندفنها تحت التراب بأيدينا ، تقرباً إلى الله ! ! وما كان الله وهو الخبير ليرضى منا بهذا التصرف الذى لا يتفق مع العقل ولا مع المصلحة ، وإنما يتحالف مع السفة والتبذير ، وإضاعة المال فيما لا فائدة فيه . . إن نفس الانسان لتثور كلما رأت هذه الآلاف تذهب مع الرياح كل عام ؛ ويأسى لهذه الثروة الهائلة التى تضيع، دون أن ننتفع بها أى انتفاع كان ، مع أنها كافية لإقامة مشروعات ضخمة ؛ وإصلاحات واسعة نرى المسلمين فى أشد الحاجة إليها ؛ ولا سيا فى البلاد المقدسة ؛ بل نفس المرافق فى هذه البلاد فى مسيس الحاجة إلى مال تقوم عليه كما سبق أن تحدثنا عن ذلك . . فهل يتفق مع هذا أن ندفن مئات الآلاف كل عام تحت التراب ؟ ! ! أعتقد أن الله لا يتعبدنا بهذا الوضع ولا بهذه الصورة . . ولقد كان الذبح معقولا يوم أن كان المسلمون محدودين ، وحولهم فقراء يمكنهم أن يمتصوا هذه الذبائح أما وقد كثر المسلمون وكثر الحجاج وسيكثرون كثرة هائلة كلما تيسرت سبل الحج ؛ حتى تصل هذه الأرقام التى ذكرناها إلى أضعافها ؛ فهل يعقل أن تبقى الحال على ماهى عليه الآن ؟ ! نكتفى بأن نذبح ونرمى تحت الشمس ، ليأخذ الفقراء ربع الكمية المذبوحة أو أقل . ثم يترك الباقى للتعفن والفساد . . ولا ينتفع به أحد ! ! أظن أن هذا الوضع لا يرضى به إنسان عاقل يدرك شيئاً من حكم الشرع فى كل أحكامه وتكليفاته . .

إذن فما هو الحل . . . ؟

يظهر أمامنا حلان لهذه المشكلة . .

أما أولهما : فهو أن نتحلل من ضرورة الذبح ، ونكيف أعمالنا حسب ما نراه من المصلحة ، فإذا رأينا أن هناك فقراء فى حاجة إلى ذبح ذبحنا ، وإذا

رأينا حالة تشبه هذه الحالة التى وصفنا ، تركنا الذبح وتصدقنا بالمال . . أعطيناه فقيراً إن وجد ، أو وضعناه فى صندوق يعد لذلك يصرف منه طوال العام على فقراء الحرمين .

وأما ثانى الحلين : فهو أن نقيم مصنعاً لتجفيف هذه اللحوم الكثيرة ، والانتفاع بجلودها ومخلفاتها ، ونتتفع بهذه اللحوم المحفوظة طوال العام أو نبيعها وننتفع بثمنها ، حيث نوزعه على المحتاجين . . وهذا الحل يقوم على ضرورة التمسك بظاهر ما أمرنا به الشارع من الذبح اعتباراً بأن الذبح وإراقة الدماء تقرب إلى الله ، ولو لم نجد من الفقراء من يأكل ما نذبحه . . . لأن القربى هى الذبح ، ولو دفناه بعد ذلك تحت التراب ! ! وحجة هذا الرأى ظاهرة فهى تقوم على الوقوف عند نص الشارع . أما هذه الحالة الطارئة من كثرة الذبح فيمكن للمسلمين تنظيمها ، لو أنشأوا مصنعاً لتعبئة اللحوم فى علب تحفظها ، ثم نوزع منها على الفقراء ، أو نبيعها ونوزع ثمنها عليهم . ثم يذكرون دوافع أخرى للتمسك بالذبح ، منها : أنها تذكر بحادث إبراهيم مع ابنه اسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، ومنها سر اقتصادى آخر وهو استهلاك عدد كبير من المواشى التى تنتجها البلاد تيسيراً لهم ، وتحقيقاً لدعوة إبراهيم عليه السلام : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » ومع أن البلاد العربية الآن تستورد حاجتها من اللحوم مما تسقط معه هذه الحجة فإننا لا نقف عند ذلك ، بل نقول إننا لم نمنع الذبح ، وسوف يستمر قائماً لمن شاء أن يذبح ، وكل ما نقوله هو أن نفتح باب الخيار للحاج ، إن رأى المصلحة فى الذبح ذبح وإن كانت الحال كما هى الآن اتجه إلى المال . يدفعه إلى فقير أو يضعه فى صندوق الفقراء والمصلحة العامة فى هذا التخيير ظاهرة واضحة ، لأنها ستحفظ لنا مئات الآلاف من الجنيهات ننفقها فى مصالح المسلمين ، بدلا من أن ندفنها تحت التراب مختارين ، والمصلحة العامة . . لها فى توجيه التشريع ميزان أى ميزان ، فلقد رأينا عمر رضى الله عنه يوقف حق المؤلفة قلوبهم فى الصدقات ، لأنه رأى أن مصلحة المسلمين هى عدم الدفع لهم ، بعد أن قوى شأن المسلمين ، وأصبحوا فى غير حاجة لتأليف جماعة

من الناس ، مع أن القرآن نص فى صراحة على أنهم يأخذون ، وهناك أمثلة كثيرة مشابهة لهذا — لا داعى لإيرادها كلها — فى رعاية المصلحة فى أحكام السابقين ، لكنا نحب أن نذكر مثلا واحداً قريب الشبه جداً من حالتنا التى نبحثها ، لأنه فى موضوع أخذ القيمة فى الزكاة بدلا من عين كانت هى الأصل ، والزكاة من أركان الإسلام التى تعبدنا الله بها .

كان معاذ بن جبل رضى الله عنه والياً على اليمن وتصرف فى الزكاة التى كان يجبيها تصرفاً استهدف فيه المصلحة العامة ، جاء فى جامع الأصول جـ ٥ ص ٣٤٥ حديث ورد فى البخارى قال : « قال معاذ لأهل اليمن ائتونى بعرض ثياب خميص[1] أو لبيس فى الصدقة مكان الشعير والذرة، أهون عليكم ، وخير لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة » أخرجه البخارى .

فهذا معاذ رضى الله عنه ، من أقرب الصحابة وأحبهم لرسول الله ، وأفقههم لدينه ، يتصرف هذا التصرف ، وأمامه أحاديث تنص على أخذ أشياء بعينها تركها وأخذ بدلها هذه العروض من النسيج ملبوساً أو غير ملبوس ، وقد نص هذا الحديث المروى عنه على أنه أخذ هذا النسيج فى الزكاة بدل الشعير والذرة ، وصرح بأن السبب فى هذا إنما هو مراعاة مصلحة الدافع والمدفوع له « أهون عليكم وخير لأصحاب رسول الله بالمدينة » فمراعاة مصلحة الطرفين هى السبب فى أخذ القيمة من النسيج بدلا من الشعير والذرة المنصوص عليهما .

وقد أقر معاذ على هذا التصرف ، ولم يعب عليه أحد ، ولم يقل له : لماذا تركت ما أمامك من النصوص ، وتصرفت بأخذ القيمة ؟ لم يقل له أحد هذا ، لأن المصلحة فيما ذهب إليه ظاهرة واضحة ، ولم يخرج فى تصرفه عن توخى المنفعة سواء الدافع أو المستحقين للصدقة وهى زكاة الزرع الواجبة .

فنحن إذا جئنا الآن ورأينا وجه الضرر البالغ فى الذبح على الصورة التى نراها الآن ، وقلنا لا مانع من أن ندفع قيمة الهدى إلى الفقراء لأن القيمة أنفع لهم ، لأننا حين ندفع القيمة نتفادى بسفها وتبذيراً وأضرارا أخرى تترتب على تعفن

---

(١) ومعناه ثياب صفيقة . وروى خميس بالسين ومعناه ثياب مما طولها خمسة أذرع . اهـ هامش الصفحة نفسها باختصار .

الذبائح ... و.... و .. إلخ . إذا قلنا هذا لم نكن بعيدين عن القصد والاعتدال ، ويكون تصرفنا هذا شبيهاً بتصرف معاذ فى أخذ القيمة مع وجود النص أمامه على الحبوب ، والمصلحة فى تصرفنا قد تكون أظهر وأوضح من المصلحة التى رآها معاذ فقد استهدف هو التسهيل على الدافعين نعم مجرد التسهيل . كما رأى أن أهل المدينة قد يكونون أشد حاجة إلى الملابس ، أشد حاجة . . . مع أنه كان من الممكن على الدافع أن يشترى بثمن الأقمشة شعيراً أو ذرة ويدفعها لمعاذ إن كان قد تصرف فيما عنده من حبوب . ومع أن الذرة كذلك نافع لأهل المدينة ؛ لكن معاذاً أحب الأحسن يعنى لم تكن هناك ضرورة ملجئة لمعاذ رضى الله عنه جعلته يتصرف هذا التصرف ، بل كان هناك استحسان وتفضيل . مع أن فى كل خيرا . فلمجرد أرجحية الخير فى ناحية اختارها وأخذ القيمة .. مع وجود النص على العين .

وفى حالتنا هذه فى الحج نجد الضرورة واضحة ظاهرة وملحة فى دفع القيمة لأنه ليس أمامنا شيئان نفاضل بينهما أيهما يزيد خيراً على الآخر بل هناك ناحية فيها ضرر بالغ وتضييع أموال باهظة ، وناحية أخرى فيها منفعة وحفظ أموال فأيهما نختار ؟ أظن أن الأمر واضح وظاهر .

يقول الواقفون مع النص : إن العيب فينا لأنه يمكن أن ننظم طريقة ننتفع بوساطتها بهذه الأموال ؛ ويقترحون إنشاء مصنع لحفظ هذه اللحوم كاللحوم التى تأتينا من الخارج ، وبذلك نمنعها من التلف ونستطيع توزيعها على الفقراء طول السنة أو نبيعها ونوزع ثمنها على الفقراء .

وعلى فرض التسليم بنفع هذا المشروع . . فماذا نعمل إلى أن يتم ؟ ! . . هل نترك الأموال تذهب كما تذهب الآن هباء ؟ ! . وإذا قالوا فلتذهب كما ذهبت فى الماضى حتى نقيم هذا المصنع ؛ قلنا لهم تعالوا بنا إذن نناقش فكرة المصنع الذى تعلقون عليه أملكم ، إن المصنع سيستقبل فى ظرف أيام قليلة عشرات الآلاف من الذبائح قد تصل إلى مائة ألف وقد تزيد بازدياد عدد الحجاج تبعاً لتسهيل طرقه فهل يستطيع مصنع أن يقوم فى هذه الأيام القليلة بصنع هذه اللحوم المكدسة وتعبئتها فى علب ؟ وإذا لم يستطع فهل يعد ثلاجات كبيرة للمحافظة عليها حتى يعبئها ، وكم تكون مساحة هذه الثلاجات ، وكم تتكلف ، وإلى متى

تستطيع هذه الثلاجات أن تحفظ هذه اللحوم المكدسة فيها ؟ وكم من الآلات والعمال يجب توافرها لمجابهة هذا العمل الضخم ؟ وإلى متى يستمر هذا العمل ؟ هل يستمر طول السنة ؟ وهذا بعيد لأنه غير ممكن عملياً ، أو يستمر شهراً أو شهرين ، وحينئذ يتعطل العمال وتقف الآلات بقية السنة ، وهل نكون ملزمين حينئذ بأجور العمال والموظفين طوال السنة كي يعملوا معنا هذه الأسابيع أو الشهور ؟ وكم يتكلف كل ذلك من الأموال ؟ وهل نستطيع بعد أن ننفق على المصنع وموظفيه وعماله ولوازمه هذه النفقات أن نجد فائضاً من دخل المصنع نوزعه على أربابه ومستحقيه الأولين ، وهم الفقراء الذين أقمنا هذا المصنع من أجلهم ، وإذا بقى شيء فما قيمته إذن ؟ هل نستطيع أن نقول إن حق الفقراء وصل إليهم كله أو نصفه أو ثلثه ؟ ؟ إننى أشك فى هذا لأننى أعتقد أن مصاريف هذا المصنع ستمتص ثمن كل ما يصنعه تقريبا ، ويكون مثلنا فى هذا تماماً مثل ما جرى فى بعض الأوقاف التى وقفت على مساجد وأعمال خيرية فامتص الموظفون والمشرفون على هذه الأوقاف كل إنتاجها أو أغلبه وأخذوه ماهيات وأجوراً ونفقات ، ولم يبق شيء للجهات الأصلية التى وقف عليها ! ! .

وإذا سلمنا جدلا بأنه سيكون هناك ربح من هذه العملية يوزع على الفقراء فالنتيجة أن المانعين لدفع القيمة أقروا بجواز بيع هذه اللحوم وإعطاء قيمتها للفقراء ! ! وأعتقد أن هذا لف متعب ثم رجوع إلى فكرة دفع القيمة آخر الأمر وعلى رأى المثل العامى المعروف « ودنك منين يا جحا » . إذا أجزنا أن نبيع هذه اللحوم المصنوعة فى المصنع ونعطى ثمنها للفقراء ، فلماذا نلف وندور ؟ لماذا لا نفتح الباب لدفع القيمة من أول الطريق ؟ ونوفر على الفقراء ما أخذ من حقهم تكلفة للعمال والمصنع والتعبئة . . الخ .

إننا بعد أن نصفى أرباح المصنع ونسدد مصاريفه قد لا نجد شيئا نعطيه للفقير وإذا وجدنا شيئا فهو تافه وقليل على كل حال . . لأن الذبيحة التى أشتريها بخمسة جنيهات وأدفعها للمصنع ليحفظها ويعبئها فى علب لتباع لا يمكن بحال أن تصفى أرباحا بخمسة جنيهات لأنها ستتحمل مصاريف صنعها . . وثمن البيع معروف فى الأسواق من الآن . . وتكون النتيجة أن الخمسة الجنيهات التى

دفعتها ثمنا للذبيحة لن يصل منها شيء للفقير وإن وصل شيء فهو قليل على كل حال .

وكان من الأولى أن أدفعها من أول الطريق لصندوق الفقراء حتى توزع كلها عليهم أو تقام بها مشروعات خيرية إصلاحية ترفع من شأن المسلمين .

إننى أدعو كل متحمس لفكرة المصنع أن يدرسها عمليا ويسأل نفسه هذه الأسئلة التى أوردناها ولقد كنت من قبل أقول مثل قولهم لكنى أمام هذه الصعوبات وأمام امتصاص مصاريف المصنع لمعظم إنتاجه إن لم يكن كلها فى رأيى ثم أمام ما رأيته من تصرف السابقين الأولين رضوان الله عليهم فى مواقف مشابهة لموقفنا هذا رأيت أن الأمر يستلزم منا أن نفكر وأن نفتح باب الخيار بين القيمة والذبح لكل حاج ليختار المناسب الأصلح .

بقيت للمتمسكين بالذبح نقطة لا أسميها حجة .. وإلا أعطيتها فوق قيمتها ؛ فهم يقولون إن العرب يعيشون على رعى الأغنام والإبل ويعتبر الحج موسما لهم لبيع مواشيهم وإلا بارت لأنهم لا يستطيعون تصديرها وهى فوق حاجتهم من الاستهلاك فلو فتحنا باب القيمة كسدت مواشيهم ، ولقد قلت : إن هذه ليست حجة ولكنها من المبررات وهى لا تقف أمام الواقع لأن العرب هناك الآن يعتمدون على استيراد أكثر ما يذبحونه من الحبشة والصومال واريتريا والسودان والشام وليس فى بلادهم ما يكفيهم ويسد حاجتهم الآن نظرا لارتفاع مستوى المعيشة وكثرة الذبح وقلة الأمطار وشيوع الجدب . . فهذه العملية — أعنى عملية الذبح للهدى — إنما تروج أهالى هذه البلاد التى تمد العرب بالأغنام .

ثم هم يقولون كذلك إن الله يتعبدنا بإراقة الدم ، ولله سبحانه وتعالى أن يتعبد عباده بما يشاء ، بما يدركون حكمته وبما لا يدركون وأنا أسلم لهم بهذا من الناحية العامة ، لكنى لا أسلم لهم أن التعبد هو مجرد إراقة الدم وكفى ، لأننى أفهم أن الذبح نفسه وسيلة لمعنى آخر يتجلى فى غير ذلك من الصدقات والأضحيات والكفارات ، وهو انتفاع الناس من الفقراء المحتاجين بذلك ، لأن الصدقة والأضحية والذبح فى الحج إخراج مال من يد إلى يد أخرى بقصد

الانتفاع لا بقصد الاهدار فنحن ندرك الحكمة من الذبح فى الحج ، كما ندركها فى الأضحيات ، كما ندركها فى الصدقات الواجبة وغير الواجبة ولا نعقل أن يتعبدنا الله بإهدار مئات الآلاف من الجنيهات وحرمان الناس منها لمجرد أنه يريد منا إراقة الدم فحسب ولا شىء بعد ذلك . فالذبح فى الحج يشبه الكفارات فى اليمين والظهار والقتل وغيرها . . تكفير عن خطأ أو بدل عن متعة يتحمله الشخص القادر فى ماله لينفع عباد الله المحتاجين فالنفع عنصر هام أو هو العنصر الهام فى الموضوع فإذا لم يتحقق فكيف نقول إننا قمنا بما علينا ؟ لا . . قد يكون كلامهم فى عبادة بدنية خالصة يؤديها الانسان فهو يقوم بها ولو لم يدرك مغزاها لأنه هو سيحصل النفع منها لنفسه ثوابا عن هذا الخضوع وليس هناك طرف ثان يقصد نفعه من هذه العبادة البدنية كالصلاة وعدد الركعات وتحديد الأوقات فى الصلاة لكنه فى الذبح . . لا . . . لأنه إذا جاز للانسان أن يفهم أعمال الحج الأخرى أنها مجرد أعمال تعبدية فلا يجوز له أن يفهم فى الذبح كذلك لأن الغرض واضح بين وله نظائر — كما قلت — فى الأضحية والصدقات والكفارات فلابد إذن من انتفاع آخرين من الذبح . . . فإذا لم يتحقق كما نرى الآن فقد فقدنا العنصر الهام فيما يراد من الذبح (١) .

وليس هناك إنسان يقول مثلا : إننا إذا لم نجد من نعطيه الصدقة أو الكفارة أو الأضحية رميناها أودفناها فى الأرض ونكون بذلك قد أدينا ما علينا !!!.

ثم لهم أخيرا تساؤل.. نهم يقولون : لو أننا تصرفنا وأجزنا إعطاء القيمة يكون معنى ذلك جواز حرية التصرف فى النصوص ؟ ونحن نقول : وما رأيكم فيما فعل عمر رضى الله عنه فى حرمان المؤلفة قلوبهم من الصدقات مع أن القرآن قد نص على إعطائهم ؟؟ وما رأيكم فيما فعل معاذ من التصرف فى الصدقة من أخذ النسيج مكان الذرة والشعير مع وجود النص أمامه؟! . وفى موضوعات أخرى تصرف الصحابة فيها فى النصوص الواردة فيها . . فهل منع النص من أن يتصرف عمر أو معاذ

(١) انظر كتاب تاريخ الفقه للدكتور محمد يوسف موسى

أو غيرها حسب ما يراه من المصلحة ؟ ! فلسنا نريد أن نطلق الأمور تجرى بدون ضابط ولا رابط حتى يقال إن الأمر سيؤدى إلى هجر النصوص ، ومع ذلك فنحن أمام ضرورة وحالة ضارة ومتلفة للأموال فكيف نتصرف فيها ؟

وبعد : فهذا رأى أعرضه على القراء للتمحيص ولا أتعصب له إن لم أجد الحق فى جانبه ، لأنه يهمنى أن نصل إلى الحق والخير دون تعصب ، ولعلنى بذلك أكون قد فتحت بابا لأهل العلم ينفذون منه إلى البحث وتقرير الصواب . إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

١٠ ـ الهجرة..

أو الصراع بين العقيدة والعاطفة

قال تعالى : (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا).. سورة التوبة ٤٠

إذا كان المجاهدون وأصحاب الدعوات الإصلاحية يوطدون أنفسهم دائماً -- وهم في مستهل طريقهم -- على تحمل المصاعب والمشقات وتقبل المتاعب والصدمات. فإن آخر شيء يفكرون فيه أن يدفعوا ثمن جهادهم وبلائهم في سبيل فكرتهم وبلدهم تنكر الناس لهم .. حتى يضطروهم لمغادرة وطنهم الذي يجاهدون من أجل سعادته ، وأن تمتد إليهم الألسنة والأيدي بالسوء -- أيدي الذين يرجون إسعادهم -- حتى يحملوهم على الفرار من وطنهم الحبيب ناجين بأنفسهم ومعهم إيمانهم وفكرتهم التي تؤنسهم في غربتهم وتزاملهم في وحشتهم وفراق الوطن أفدح شيء تتحمله نفس : الفراق الذي يرغم الإنسان عليه ، وينتزع به من بين أحبابه ثم لا يدري هل يعود إليه ؟ ومتى وكيف ؟ إن نفوس المصلحين حساسة جياشة دائماً بعواطفها نحو الأرض التي نشئوا فيها والصحاب الذين زاملوهم في مهد الصبا وملاعب الطفولة ، وهم أشد الناس حباً ووفاء لكل شيء اتصل بحياتهم ، وأثر في نفوسهم. الدار التي احتضنتهم ، والملاعب التي وسعتهم ، والأقارب الذين نشأ على حبهم وعطفهم والزملاء الذين تهفو نفسه إليهم ، ويختلس الأوقات وينتهبها ليقضي سمره معهم .

ما أحب ذكريات الصبا والشباب إلى الإنسان ! وما ألصقها بنفسه ، وأقربها

إلى قلبه ! إنه ليحن إليها دائماً ، ويركن قلبه إلى مواطنها كل وقت ! إنها جزء من نفس الإنسان وروحه ، فهل يفرط فيها راضياً ؟

إن اللوعة القاتلة لنفس الإنسان أن يرى نفسه مطروداً من ديار أحبها وأخلص لها ، وعاش من أجلها ، واتسع قلبه لها وأمسى وأصبح يفكر فيها ويرجو الخير لها .

وإذا أحس الإنسان العادى هذا . . فإن نفوس المصلحين أشد إحساساً وإرهافاً . فيجب إذا نحن تحدثنا عن هجرة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، أن نستجمع عواطفنا ، ونستشعر من داخل أنفسنا ، قياساً مكبراً على مشاعرنا ، ذلك الجو الذى عاش فيه الرسول وصحابته وهم يفكرون فى الخروج من وطنهم ، فرارا بدينهم وفكرتهم ، ثم هذه اللحظات الفاصلة فى حياتهم ، وهم يترقبون الفرص ، ويتحينون الظلام ، وخلو الأزقة والطرقات من المارين ، لا ليهجموا على أعدائهم ويقضوا على منافسيهم ، حتى يخلو الجو لهم فى بلدهم ، بل ليخرجوا ويهربوا من وطنهم ، ويقتطعوا أنفسهم من بلدهم إلى بلاد لا يعرفونها ، ولا يدرون كيف مصيرهم فيها ؟ ؟ ؟

إنها لحظات قاسية مريرة لا تتحملها إلا نفس مؤمنة .. عميقة الإيمان ، ترجو الخير من خلال المحن ، وفيما وراء الأهل والأحبة والوطن !!

إننى لأتصور هؤلاء المؤمنين وهم ينتزعون أنفسهم انتزاعاً من بلادهم . وهم يفارقون عتبة دارهم ، وهم ينقلون خطاهم ثقيلة فى حارتهم ، وهم يلقون النظرة الأخيرة على متاعهم وأموالهم ، وفلذات أكبادهم على أحياء أو آباء رحماء ، أو إخوة أوفياء ، بل وهم ينظرون إلى أحجار دارهم ومحال أسمارهم ، وأمكنة تجارتهم ، وإلى دور أصدقائهم ، ينظرون إلى كل ذلك اختلاساً فى ظلمات الليل البهيم ويودون أن يودعوه ويقبلوه ولكنهم لا يريدون أن يثيروا حولهم ضجة أو ينبهوا لهم حساً فينفلتوا إلى خارج مكة ، وكلما باعدت بينها وبينهم الخطوات أداروا وجوههم نحوها حنيناً إليها ، حتى إذا حجبتها الجبال عن عيونهم ساروا فى طريقهم إلى مهجرهم وبلدهم لا يفارق خيالهم يستعرضون فى شريط طويل أطوار حياتهم التى قضوها فى رحابه وحوادثهم التى شغلوا بها هذه الحياة . ويذكرون محمداً ودعوته وكيف سمعوه لأول مرة وكيف أقبلوا على دعوته وآمنوا بها ثم تحملوا العذاب سنين طوالا

من أجلها ، ثم هم الآن يتحملون أقسى مرحلة من العذاب فى سبيلها ويسجلون نهاية هذا الشريط من حياتهم فيها بهذه الخطوات المضنية القاسية ، ثم يطوون كل ذلك حيناً ويفكرون فى المستقبل . فى البلد التى سيحلون بها ، كيف هى ؟ وكيف يعيشون فيها .. وليس معهم مال يعتمدون عليه بعد أن تركوه وراءهم فى مكة ؟ وكيف ستكون دعوتهم فى رحابها ؟ يفكرون فى المستقبل . والمستقبل غيب ، لكن لابد من تمزيق حجبه ، واستشفاف شىء مماوراء هذه الحجب ، على قدر ما يظن الإنسان على الأقل . لو أنهم كانوا على صداقة مع إخوانهم فى المدينة من قبل .. لوجدوا اطمئناناً كثيراً فى قلوبهم . ولو كان معهم مال يعتمدون عليه .. لخفف قليلا أو كثيراً من أعبائهم وأزال عنهم شيئاً من عنائهم وهمومهم ، لكن لاهذا ولا ذاك . ولا شىء معهم إلا إيمان قوى غلاب ، هو كل زادهم وأنعم به من زاد فإن خير الزاد التقوى ، ولا يعرفون فى المدينة إلا أناساً آمنوا كإيمانهم فاتصلت القلوب وتعارفت قبل أن تتقابل الأشباح ، وما أقوى هذا الاتصال وهذا التعارف . إنها أخوة فى الله تفوق أخوة الدم والنسب ، وتعلو على كل صلة فى هذه الحياة ، ويأمن الإنسان بها نوائب الدهر ومفاجآت الأيام .

وهل هناك ما هو أقوى من أخوة الفكرة والدين ؟ إنها ارتباط روحى يقهر كل ما يصادفه فى الحياة من ماديات ، ويسخرها له ، ويعلو على الدنيا ومصاعبها ومصائبها ، ويرفرف بنسماته الحلوة على الأحباب المتآلفين ، ليعيشوا بنعمة الله إخواناً منعمين وهكذا كان . . كان الإيمان وصلة القلوب ، جمعها فى رحابه ، وأظلها بريحانه ، فنعموا بشدائد الحياة ، كما ينعم المترفون الفارغون بترفهم وفراغهم ، بل وأحلى وأعذب ، ولذا لم يفكر المهاجرون كثيرا فى عنت الحياة المقبلة .. بجوار إخوانهم الأنصار ، كان كل همهم أن يجدوا الحرية لهم ولدعوتهم ، وليس هذا بالأمر العسير فى نظرهم ، لكن الوطن الحبيب لايفارق خيالهم . وهل يمكن ؟

هل يمكن بمجرد انتزاع أنفسنا من بين جدرانه قهرا عنا ، وبمجرد اختفائه عن عيوننا .. أن ننساه ؟ وكيف ؟ وهل يمكن أن نهمل ماضينا فى لحظة أو لحظات ، أو فى شهور أو سنين ؟ هل يمكن أن نقتطع جزءا من ذهننا ونرمى به ، ونتركه بجوار جدران الوطن الذى تركناه كارهين ؟ إن ذلك غير ممكن وهو فوق طاقة البشر . فليفكر المهاجرون فى وطنهم كما يشاءون ، مافى ذلك من ضير عليهم ،

فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وإن ذلك لهو الوفاء والحب الطبيعي له ، ولتعصر نفوسهم اللوعة لفراقه ، فما لدفع ذلك من حيلة . وإنها لمعركة لابد منها ، يتحملها المهاجرون ، ويجتازونها راضين ، قانعين بحب الله ورسوله ، عوضا عن كل ماخلفوه وراءهم ، بل عوضا عن كل مافي الحياة من عزيز وحبيب ! أليسوا يقرءون الكتاب ؟ أليسوا هم المخاطبين بقول الله : (قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله فتربصوا . . حتى يأتي الله بأمره) .

إنها آية فاصلة ، كان لابد منها وسط للمعركة النفسية الهائلة التي تخوض غمارها نفوس المؤمنين في مكة والذين لابد لهم أن يهاجروا لتقطع على بعض المترددين ترددهم ، وتقضي على وسوستهم ؛ وتطمئن المؤمنين حين تضع الدنيا بما فيها في كفة وتضع الهجرة إيمانا واخلاصا لله ورسوله في كفة أخرى . وهل يبقى بعد ذلك تردد في نفوس المؤمنين ؟ لقد آثروا الله ورسوله وهاجروا وتركوا الدنيا ومتاعها في مكة وقالوا : « بل الله ورسوله أحب إلينا » لكنهم على كل حال لا ينسون وطنهم الأول وليسوا مطالبين بذلك فقد بقيت ذكراه تقض مضاجعهم حتى بعد أن استقروا بالمدينة فينشد بلال الشعر ، تشوقا إلى مكة وأسمارها وجبالها فيقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفخ وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

فخ ومجنة وشامة وطفيل أسماء أماكن وجبال بمكة وما حولها .

وتفيض نفس أبي بكر كذلك بالحنين إليها ، ويحس الرسول في نفسه ونفوس أصحابه هذا الحنين الطبيعي ، ويرى فيه عاملا من عوامل التعب والإرهاق النفسي . فيتجه إلى ربه وسط هذه الموجة من الحنين واللوعة ويدعوه ويقول : « اللهم أحبب إلينا المدينة حبنا مكة أو أشد » وهو دعاء يشير في النفس شتى العواطف ، ويملؤها إشفاقا وعطفا وتقديراً نحو هؤلاء الذين ضحوا براحتهم وبكل شيء أحبوه — منذ صباهم — في سبيل فكرتهم وعقيدتهم ويصور للمجاهدين الذين أتوا بعدهم .. فداحة التضحية التي ضربها لهم مثلا عاليا سيد المجاهدين وصحبه الأبرار .

ليستصغروا بعد ذلك كل جهاد يبذلونه ، وكل تضحية يقدمونها . . . لكن : هل كانت الهجرة للمدينة هى التجربة الوحيدة فى حياة الرسول وصحابته الأبرار ؟ أو أن هناك تجارب أخرى مريرة اجتازوها قبل هذه الهجرة الأخيرة ؟ ؟ .

الهجرة إلى الحبشة[1]

لم تكن الهجرة للمدينة هى التجربة الوحيدة التى مرت بالرسول وصحابته الأبرار ، بل كانت هناك تجارب أخرى مريرة ، فى الحبشة والطائف لعلها كانت أمر وأقسى من الهجرة للمدينة ، وهل فى ذلك شك ؟

لقد كانوا عربا لم يخرجوا إلا قليلا من نطاقهم المحدود فى جزيرتهم وربما لم ير أكثرهم البحر طوال حياتهم لكنهم أمام أمر من قائدهم ليهاجروا إلى الحبشة وأين تكون الحبشة هذه ؟ وكيف يذهبون إليها ؟ إنها فى الشاطىء الآخر ولابد من ركوب البحر للوصول إليها وسيجدون فيها أناسا لم يعرفوهم ولم يألفوهم من قبل ليسوا من جنسهم ولا هم يتكلمون بلغتهم ولا يدينون بدينهم وليس لهم بهم من صلة.. إلا أنهم يؤمنون بعيسى . وكتابه الإنجيل وهى صلة قد تبدو واهية فى أيامنا هذه لكنها فى وسط موجة الشرك والكفر بالأديان والكتب السماوية حينذاك كانت صلة قوية ؛ لأنهم جميعا أهل كتاب منزل من السماء وهذه الصلة التى اعتمد عليها الرسول وصحابته حين اتجهوا للحبشة ، هى التى أحسوها فى نفوسهم .. يوم أن انتصر الفرس على الروم وكان انتصارا يحمل فى طياته انتصار عباد النار المجوس على المسيحيين أهل الإنجيل ، فتأثر أهل القرآن لهزيمة إخوانهم المسيحيين كما فرح عباد الأصنام بانتصار إخوانهم عباد النار ، وتحدثت المجالس فى مكة بهذا وذاك ، ووجد المسلمون فى نفوسهم غيظا من شماتة الكفار فى هزيمة الروم ،

---

(۲) كان عدد المهاجرين أولا عشرة رجال وخمس نسوة . وكانت أول هجرة من مكة وكان منهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله (ص) وبقى مع الرسول فى مكة عدد قليل ولما علموا بإسلام عمر عادوا لكنهم رأوا قسوة قريش على المسلمين لا تزال كما هى فرجع بعضهم للحبشة ولما حاصر المشركون الرسول وقومه ، وأدخلوهم الشعب أمر الرسول جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة فهاجر معظمهم وكانوا ۸۳ رجلا و ۱۸ امرأة .

فثار أبو بكر الهادىء وتعصب للروم وراهن على انتصارهم ، وكان من أثر ذلك كله أن أنزل الله قرآنا يسجل هذه الروح ، ويؤيد تحمس المسلمين لإخوانهم الروم ويزيل من نفوسهم المرارة التى أحسوها لهزيمة إخوانهم ويبشرهم بالانتصار والغلبة لمن تحمسوا لهم ، فيقول الله فى مفتتح سورة سميت باسم الروم (الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) .

فسجلت هذه الآيات البينات .. الصلة الروحية القوية والعلاقة السليمة الطبيعية التى بين أهل القرآن وأهل الإنجيل . وهى صلة الحب والتعاون بينهم ، ولو لم يكونوا على تعارف ، وستبقى هذه الآيات شاهد صدق خالد على روح المسلمين الطيبة ، نحو إخوانهم المسيحيين .

وهذه الروح هى التى دفعتهم إلى التوجه نحو الحبشة ، برغم أنهم لم يكونوا على تعارف ففيها ملك لا يظلم ، ولابد أنه سيحمى المسلمين من مطارديهم ، بحكم الصلة التى بينه وبينهم .

لكن : هل تراها كذلك من جانب النجاشى وأعوانه ؟. هل يحسون نحو المسلمين ما يحسه المسلمون نحوهم ؟ ذلك أمر يعرف عند نزولهم بالحبشة ، وإلى أن ينزلوا ويطمئنوا ، ستظل الوساوس تستولى على نفوسهم ، وبقى مع ذلك أمامهم مصاعب ، لا يمكن تجاهلها ، فهم سيركبون البحر ، وربما يكون أكثرهم لم يروه من قبل ، وهم سيقبلون على أناس ليست لهم بهم صلة الجنس أو النسب أو اللغة ، وقد تركوا الرسول وراءهم فى مكة وتلك كلها — لعمرى — مخاوف ومصاعب لا يتغلب عليها إلا الإيمان الراسخ العميق بالرسول وتوجيهه .

وإذا نحن وازنا بين الحالتين: الحالة التى هاجر المسلمون فيها وحدهم للحبشة، والتى هاجروا فيها مع الرسول للمدينة ، وجدنا أن الهجرة الأولى للحبشة كانت أمر وأقسى على من هاجر من المسلمين، مافى ذلك من ريب. فقد عرفت الظروف

الصعبة التى اكتنفت هجرتهم للحبشة ، وهى ظروف لم تتوافر كلها عند هجرتهم للمدينة ، إذ أنهم سيهاجرون إلى بلد من جزيرتهم على كل حال ، وإلى إخوان لهم فى الجنس واللغة . ثم إلى ماهو أكثر من هذا ، إلى إخوان لهم فى الدين ، عرفوا رجالا منهم أثناء بيعة العقبة .

فهم إذن لم يهاجروا إلا بعد بيعة الرسول وأهل المدينة الذين أقسموا على مناصرتهم وعلى حرب الأسود والأبيض من الناس فى سبيلهم ، فحينما يتوجهون للمدينة يتوجهون مطمئنين إلى أنهم سيلقون أحبة ، يفتدونهم بالغالى مما يملكون ، وهم يحسون أنهم مقبلون على بلد يكثر فيه إخوانهم ، وتتنفس فيه دعوتهم التى ظلت حبيسة بمكة ثلاث عشرة سنة .

فالمرارة التى أحسها المسلمون ، وهم مهاجرون للحبشة لم يحسوا مثلها تماماً حين هاجروا للمدينة .

وكانت هذه هى التجربة الأولى للمسلمين تحملوها صابرين ، واغتربوا فى بلاد الحبشة ، مستظلين بحماية النجاشى . حتى عاد بعضهم لوطنهم الأول ، ومكثوا به مدة حتى آن أوان الهجرة الأخيرة للمدينة وبقى أكثرهم فى الحبشة حتى رجعوا للمدينة بعد هجرة الرسول إليها

وهناك تجربة أكثر مرارة من هذه وتلك مرت بالرسول صلى الله عليه وسلم وحده وكانت هجرة أيضاً . كانت هجرة للطائف سماها بعض المؤرخين رحلة ، لأن الرسول كان يرجو منها أن ينصره الله بأهل الطائف ويتخذهم أنصاراً لدعوته ، كما اتخذ أهل المدينة — فيما بعد — أنصاراً له ، وهذه الرحلة أو هذه الهجرة التى تحملها الرسول وحده . أعتقد أنها تفوق فى مرارتها وقسوتها الهجرة للحبشة والمدينة معا .

ومع ذلك تمر كتب السيرة عليها مروراً عابراً ، مما جعل كثيراً من المسلمين القارئين لها يفهمون أن هذه الرحلة كانت من الرحلات السهلة الهينة ، ويعتقدون أنها كانت رحلة إلى ضاحية من ضواحى مكة ، مع أنها كانت أقسى رحلة وأشقها على رسول الله ، وأشهد أنى كنت ممن يفهمون هذا الفهم الذى وجدته عند كثير

من المثقفين ، حتى ذهبت إلى مكة عام ١٩٥١م وتقرر أن يكون عملى فى الطائف، وكنت إلى تلك اللحظة أعتقد أنها على بعد يسير من مكة ، ولكن بعض العارفين أخذ يعطينى فكرة عنها . فعرفت منه أن السيارة تقطع إليها من مكة ما يقرب من ١٥٠ كيلو متراً فدهشت وتساءلت : وهل قطع الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الطريق الذى نقطعه الآن ؟ إننا كنا نظن أنه ذهب إليها وعاد منها فى يوم أو فى ضحاه قال : إن الرسول قطع المسافة إلى الطائف من طريق أخصر من هذا قليلا ، ولا تسير فيه السيارات الآن وهو ما يقرب من مائة كيلو متراً ، يقطعه الناس اليوم سيراً على الأقدام أو ركوباً على الدواب . قلت : إنها مسافة طويلة جداً عما كنا نظن ، وإنها لرحلة شاقة ومتعبة لا بد أنها أخذت أياماً قاسية من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم رجعت إلى كتب السيرة ، فوجدت ابن هشام يقول عن هذه الرحلة : « ولما هلك أبوطالب — بعد وفاة خديجة — نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم.. من الأذى مالم تكن تنالمنه فى حياة عمه أبى طالب ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج إليهم وحده » .

إذن كان الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة فى أزمة نفسية ، وكان فى شدة بلغت أوجها بعد أن فقد النصيرين : الزوجة التى كانت تتلقاه فى البيت بصدر حنون ، وقلب شفيق ، فتزيل عن نفسه المجهدة المتعبة كثيراً من الهم والتعب . ثم تبعها العم ، الذى كانت تخشاه قريش ، فتمنع عن محمد — كارهة — كثيراً من سفاهتها . فوجد الرسول نفسه بعدهما فى أتون اتقدت ناره وتشعب لهيبه ، وأصبح بمكة ، وقد انطلق عليه سفهاؤها ، وتناولوه بالإيذاء والاعتداء ، فإذا رجع إلى بيته وجد الحزن يخيم على جوانبه ، فتثور فى نفسه ذكرى الزوج الوفية .. فتمتلئ من الهم ، وتفيض عينه من الحزن ، ويبحث حوله عن نصير فى الخارج ، أو مواس فى الداخل فيعز عليه النصير والمواسى ، ويفكر فى الدعوة التى حمله الله أمانتها — وهل يفكر إلا فيها — ويحاول أن يجد لها متنفسا بعد أن ضيق القرشيون عليه الخناق ، ولم تعد مكة بيئة صالحة لنشر دعوته ، فإلى أين يذهب ؟

وقد بلغ الأمر منتهاه ؟ وفكر الرسول فوجد أن فى الجنوب الشرقى من مكة قوما من ثقيف ، يقطنون « الطائف » وبينهم وبين قريش عداء ، ربما يساعد على احتضانهم دعوته ، وهم ان استجابوا كانوا نعم العون والنصير .

ولا بد أن الرسول مرت به حالة من التفكير العميق ، فى هذه الرحلة ونتائجها ، وإن الإنسان ليتصور الحالة النفسية التى كان الرسول يمر بها فى هذه الآونة : كيف يذهب ؟ وهل يستجيب له هذا الحى من العرب ، بعد هذا السفر الطويل ؟ ان هذا هو الأمل . . ولكن كيف يكون موقفه ان تنكروا له ؟ ثم كيف تكون عودته إلى مكة حينئذ ؟ وماذا يفعل الشامتون ؟ لابد أن الرسول قد فكر فى هذا كله ، ومرت بنفسه فترات من الأمل المشرق له ولدعوته حينا ، ويتصور المستقبل الباسم للإسلام فتنبسط أسارير وجهه . وتشرق جنبات نفسه : وحينا تمر به صور اليأس من استجابتهم . ومن النتائج المرة التى تتبع إعراضهم ، فتمتلىء نفسه هما وحزنا ، وخوفا من هذا المستقبل القاتم . . ولكن : هل يستسلم لهذا الجانب المظلم ، ويقعد خوفا من إعراضهم . ومن النتائج المؤلمة التى تترتب عليه ؟ كلا .. إنه عليه الصلاة والسلام لا يترك فرصة أمامه لدعوته إلا انتهزها ، وليكن بعد ذلك ما يكون من مصاعب ومشاق ، فكل شىء يهون احتماله فى سبيل دعوة التوحيد .

وجاء الوقت المحدد ، فخرج الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الطائف وحده وبدأ رحلة المشاق والمتاعب ، ليس معه أحد إلا ربه ، الذى يرعاه ويحفظه .

لقد تصورت الرسول سائرا بين الجبال ، يحمل عبء الدعوة ، وهو ينقل خطاه ، صاعدا فوق الجبال ، وهابطا منها ، تصورته حينما كنت أنظر حولى من السيارة التى تنهب الأرض نهبا إلى الطائف .

نعم تصورته عليه الصلاة والسلام وحيدا ، يقطع هذه المسافة تحت ثقلين من تعب النفس ، وتعب الجسم ، كنت إذا رأيت عربيا يسير هنالك ، فى بطن الجبل ، يعلو ويهبط ، قلت : ألم يكن الرسول تضمه الجبال كهذا الرجل ؟ كان يسير فى الشمس المحرقة ، وفى ظلمات الليل البهيم ، لايؤنسه شىء الا تفكيره فى ربه ، واتصاله بخالقه وحارسه .

من كان يظن حين يراه وقتذاك أنه يحمل أمانة ربه ؟ ومن كان يظن حين ينظر إليه ، أن ينظر إلى المثل الأعلى للانسانية . إلى الرجل الذى اختاره الله ليبلغ رسالة السماء وليكون خاتم الأنبياء ؟ من كان يظن وهو ينظر إلى هذا الرجل العربى — كأى عربى تضمه هذه الجبال — أنه ينظر إلى الرجل الذى سيهز العالم بأسره ، وأن لفظ الخلود سيقترن بمبادئه واسمه ؟

من كان يفكر ممن رآه ، أن هذا الرجل سيجذب الملايين إليه والى دعوته ، وأن هذه الملايين من خارج الجزيرة ستؤمن به ، قائدا ومنقذا وشفيعا ؟

من كان يفكر أن هذا الرجل العربى الذى يسير وحيدا فى فيافى الجزيرة القاحلة ، سيحيى مواتها ، ويجعلها مهوى الأفئدة فى جميع أنحاء العالم ، ويجعل لغتها التى حاصرتها الجبال فلم تخرج إلى ما وراءها . . لغة عالمية خالدة تتعصب لها دول وشعوب ، وتطرق المجامع الدولية ، وتبعثها موجات الأثير من كل ناحية ، وتصبح بفضله لغة شعوب ، ولسان حضارات ؟ نعم من كان يظن ، حين ينظر إلى هذا الذى يسير مثقلا بالهموم أنه سيفعل كل هذا ؟ .

كانت هذه خواطر مرت بى سريعا ، سرعة السيارة التى كنت أركبها ، وقلت لا أشك فى أن كل من رآه مر عليه كأى عربى يمر عليه بالليل والنهار ، ولم يكن يعلم أية نفس يحمل هذا الرجل ، ولا أية رسالة يؤديها .

قطع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المسافة الطويلة المتعبة ، ولاشك أن الأمل كان يدفعه فى كل خطوة من خطواته ، الأمل فى أفق جديد لدعوته ، ولاشك كذلك أنه كان مع هذا الأمل شيء غير قليل من الخوف ، الخوف من الفشل .

كان الرسول يؤمل أن تنضم اليه ثقيف وتنصر دعوته ضد أعدائه وأعدائها ، بعد أن عز عليه النصير فيهم ، ولكن هذا الأمل كثيرا ما كان يختفى أمام عوامل القلق والخوف من إعراضهم وصدودهم ، وهذه حالة لم تمر بحياة الرسول قبل ذلك ولا بعده ، فقد كان يعرض نفسه على القبائل فى موسم الحج ، ولكنه لم يتكلف سفرا كهذا السفر ، ولم يلجأ مع ذلك الى أعداء قريش كما لجأ هذه المرة وقد سافر بعد ذلك إلى المدينة . ولكنه لم يخرج إليها إلا بعد أن اطمأن إلى

مركزه فيها ، وأرسل طلائعه يعلمون أهلها الإسلام ، فكانوا محل الرعاية والعناية ومكث مدة تكونت فيها جماعة إسلامية تفوق أصحابه بمكة ، فلم يكن اذن حين سافر للمدينة محل خوف ، أو قلق من المصير المجهول ، ولكنه كان مطمئنا إليها ، عازما على الاقامة فيها .

وأقبل الرسول عليه الصلاة والسلام على الطائف وعمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم وهم إخوة ثلاثة ، أقبل عليهم الرسول ونفسه متجه إلى الله أن يهديهم سواء السبيل ويهدى بهم من وراءهم من قومهم ، ولكن قلوبهم كانت مغلقة ونفوسهم كانت متكبرة ، حتى ليقول له أحدهم فى سخرية واستهزاء ، وكأنما عز عليه وهو السيد الكبير أن يرى هذا القرشى اليتيم رسولا من الله ، يدعوه إلى هذا الأمر العظيم فيقول له « أما وجد الله أحدا يرسله غيرك » كأنما ظن أن الرسالة تتبع الجاه والمال ، فاهما أنها ملك وسلطان ، وقد جهل المغرور أن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وكانت هذه نغمة سائدة فى الناس حينئذ حكاها القرآن ورد عليها حين قال : (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربك ؟) وكان هذا الرد من الثقفى الكبير الذى يحمل كل معانى الاستخفاف والاستعلاء صدمة لآمال الرسول عليه الصلاة والسلام فى القوم وصدق الله العظيم (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) ، (لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) .

وكانت نتيجة مريرة على نفسه العظيمة ، فقد قطع الأميال الطويلة والأمل يحدوه ، ومن ورائه قريش ، لابد أنها سترقب فى لهفة أمر هذه الرحلة ، بعد أن تعلم بها ، وهى تتوق إلى فشلها ، حتى تشمت كما تحلو لها الشماتة وتزداد فى عتوها والرسول عليه الصلاة والسلام يحس كل هذا ويقدره ، حتى لنجده يقول لهؤلاء الثلاثة المتكبرين ، من ثقيف بعد أن يئس منهم « إذ فعلتم ما فعلتم فا كتموا عنى » وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيذرهم « يجرئهم » عليه .

إن الرسول قد لقى إعراضا وصدودا من كثيرين قبل ذلك ، ولكنه ما كان يحسب لأى إعراض سابق ماحسبه لهذا الإعراض ، كان يدعو الناس فى موسم الحج ، ووراءه الصادون عن دعوته ينفرون الناس منه ، وما كان يقيم لهم وزنا ولا حسابا ، أما هذه المرة ، فتختلف ظروفها وأوضاعها .

لقد ترك مكة حزينا لفقد النصيرين ، واشتداد الإيذاء عليه ، وسافر طويلا إلى أعداء قريش ، والتجأ اليهم لعلهم ينضمون إليه ، ويدخلون فى دينه ، ولكنهم لم يستجيبوا فماذا تفعل قريش إذن ؟ وما مبلغ فرحها وشماتتها ؟ إنهم لاشك سيشمتون ، وسيزدادون عليه جرأة ، ومن هنا كان حزن الرسول وخوفه من إذاعة الخبر .

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شماتة الأعداء

وهو قد لجأ الى أعداء قريش يستعين بهم وهذه ناحية أخرى تؤثر فى نفوسهم وتلهب حماسهم لإيذاء الرسول . وما كان يغيب عن الرسول كل هذا ، فطلب منهم أن يكتموا هذا الأمر حتى لا تشتد عليه عواصف العدوان فى مكة .

أما القوم من ثقيف فقد عصفت بهم نزواتهم ، ولم يكونوا رجالا كرماء فى خصومتهم ، فحتى هذا الأمر البسيط الذى طلبه الرسول منهم لم يستجيبوا له ، ولم يكتموا الخبر ، ويتركوا الرسول يرحل من حيث أتى ، بل لجوا فى خصومتهم ، ولجئوا إلى السفاسف . ونزلوا إلى الدرك الأسفل من الخصومة ، ولعبت بهم أهواؤهم وأحقادهم فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه الى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة .

فداك نفسى وما أملك وكل المسلمين يا رسول الله . . إننا نرى الصبية فى هذه الأيام يجتمعون حول رجل غريب الأطوار ، يعاكسونه ويشاغبونه ، فتأخذنا الشفقة عليه ، ونحميه من عبث الصبيان ، وهؤلاء الزعماء يغرون بك السفهاء والصبية ، وقد كنت تؤمل لهم الخير ، وترجوه منهم ، كيف كانت حالة الرسول فى هذه اللحظة الرهيبة من حياته ؟ وإلى أى حد بلغ الألم والأسى ؟ إن أمره قد اشتهر ، ومنظره وسط السفهاء والصبية قد عرف ، وها هى ذى الأحجار تنهال عليه ، وتسيل الدم من قدميه !!

إن الإنسان العادى ليفر بنفسه من هذا المنظر . نعم . . وإن الألم ليترع نفسى ويعتصرها كلما تصورت الرسول ، يتجمع عليه هؤلاء الأشقياء ، ويطاردونه بالسباب والحجارة . فكيف إذن كان ألم الرسول عليه الصلاة والسلام فى هذا الموقف ؟ .

لقد زاد من آلامه النفسية ، أنه حين لجأ إلى ظل سور بستان فى جنوب الطائف أن كان هذا البستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وهما من ألد أعدائه ، وقد كانا فى بستانهما يشاهدان هذا المنظر المؤلم ، وهما بلا شك قد انفرجت أساريرهما ، وفرحا لهذا الذى يلقاه محمد ، والرسول بلا شك يحس هذا منهما .

وإنه ليشق على كل نفس أن تتعرض للمهانة والإيذاء ، ولكنه يشق عليها أكثر وتصيبها مرارة تملأ جوانبها ، أن يشاهد أعداؤه هذا العدوان ، ويقفوا على بعد متفرجين ، نعم إنها مرارة ، لا مرارة أشد منها ، تلك التى تعرض لها رسول الله أكرم الخلق على الله .

من أجل هذا وجدنا الرسول فى هذا الموقف وحده ، من بين مواقفه العديدة الشديدة يتجه إلى الله فى حزن وألم يشق المرائر ، ويناجيه هذه المناجاة التى تهتز لها قلوبنا ، وتنهمر منا دموعنا ، كلما سمعناها أو قرأناها ، وتصورنا الرسول يتحرك قلبه قبل أن يتحرك لسانه بهذه المناجاة « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

هذه هى الشكوى التى ما شكاها الرسول فى موقف غير هذا الموقف صورت بواعث الألم فى نفسه ، كما أبانت لنا عن بواعث الاطمئنان وقوة الإيمان ، والتجرد عن كل ما فى الدنيا ، والاتصال بالله وحده مالك الملك ذى الجلال والإكرام ، وكان الشاعر يترجم عنها وهو يقول :

فياليت ما بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

ولعل مما يصور تماما حالة الرسول النفسية ، وما لحقه من سفهاء الطائف ، هذا العطف الذى تحرك فى نفس كل من هذين العاتيين من كفار مكة ، وهما فى بستانهما بالطائف . .

لقد استدرهما هذا المنظر المؤلم حين التجأ الرسول إلى ظل الحائط ، يجلس فيه ، ويستريح من عناء المطاردة ، والقذف بالحجارة وينظر إلى الدماء تسيل من عقبه ، أقول استدر هذا كله عطف هذين الجبارين فأرسلا إليه غلامهما « عداس » بشىء من العنب ، فلا شك إذن أن ما لحق الرسول كان من الشدة بحيث طغى على العداوات والحزازات والخلافات ، ولا يكون ذلك إلا حين يبلغ الأمر أشده ، ويجاوز حده .

نعم لقد كان كذلك ، وكان هذا هو الذى بعث فى نفس الرسول هذه الكلمات الحزينة التى يملؤها الأسى ، كما يملؤها الإيمان فى وقت واحد « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس .. » .

ولقد كان الرجل الوحيد الذى استفاد من هذه الرحلة الشاقة هو «عداس» الغلام المملوك لابنى ربيعة ، الذى حمل قطف العنب إلى الرسول ، وجلس بجانبه ، وهو يتناوله . فكانت جلسة مباركة حملت الإيمان إلى قلبه ، فآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . وفى غمرة الحزن والأسى ، وبعد المناجاة الحزينة المؤمنة ، تمتد أسباب السماء إلى الأرض ، ويرسل الله جبريل إلى صفيه وعبده محمد يقول له « إن الله قد أمرنى أن أطيعك فى قومك لما صنعوه معك » وكان هذا تفويضا من الله أعطاه لرسوله ومصطفاه ، ليفعل فى هؤلاء اللئام ما يشاء ، ويرد على صنيعهم القبيح بما يريد ، ومحمد فى سورة غضبه وفى غمرة حزنه وألمه ، وكل انتقام يريده الآن مقبول ، وكل عذاب يصبه على رءوس السفهاء قصاص غير منكور .

ولكن محمداً الرسول يرتفع بإنسانيته فوق مستوى البشرية ، وينسى آلامه وأحزانه ، ومافعله الثقفيون به ، ويتجاوز عن سيآتهم ، ثم يطلب من الله الهداية لهم ، ويقول « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » ويعجب جبريل لهذا الخلق الربانى ويقول له « صدق من سماك الرؤف الرحيم » نعم . أليس هو القائل أيضا للقرشيين عند فتح مكة وقد ناله من أذاهم ما ناله « اذهبوا فأنتم الطلقاء » صلى الله وسلم على سيد البشر والمرسلين .

بعد هذا أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يفكر فى الرجوع إلى مكة . لقد تركها مؤملا ألا يرجع إليها هكذا فقد كان يظن أنه سيجد فى الطائف البيئة الصالحة لدعوته ، ولكنه اضطر للرجوع اليها على عجل دون أن يتحقق شىء من أمله ... فكيف يرجع إليها ؟ . . .

لابد أن الأخبار السيئة التى حدثت له فى الطائف قد سبقته إلى مكة ، ولابد أنهم الآن يروحون ويجيئون ويجلسون فى ندواتهم يتحدثون فى شماتة عما أصاب محمداً فى الطائف على يد ثقيف ، ولا بد أن قلوبهم قد ازدادت جرأة عليه . وسيفتنون بلا شك فى إيذائه والتنكيل به بعد الفشل الذى أصابه ، وليس له الآن بمكة العم الذى كان يحميه ، ولا الزوجة التى كانت تواسيه ... يارباه.. أى موقف هذا ؟ وأى نفس تحتمله إلا إذا كانت نفس رسول .؟ !

لقد كانت المسافة الطويلة بين مكة والطائف سهلة السير على الرسول حين كان الأمل يخفف عنه متاعبها ويقرب له أطوالها .

كان الأمل يؤنسه فى وحشته ، وينير له الطريق فى ظلام الليل البهيم ، ويذلل له الصخر فى وسط الجبال العاتيات وشعابها ، كان ذلك وهو مقبل على الطائف .. ولكنه الآن وبعد هذا اللقاء المتجهم ، والإيذاء المؤلم ، والرجوع الفاشل .. كيف يقطع هذا الطريق ؟ وكيف يتحمل متاعبه ؟ إن كل خطوة يخطوها نحو مكة تقربه من الجو الكريه ، وتدنى منه الوجوه العابسة والأيادى الطويلة المؤذية ، إنه يتصور أمامه وجوه الشامتين تحيط به ، وعلى شفاههم بسمات السخرية والاستهزاء ، ويتوقع أن يخرج إليه السفهاء ، يقابلونه فى مداخل مكة ، يبادرونه

بما يكره أن يلقاه ، وليس فى المسلمين من يستطيع عنه دفاعا ، وليس فى عصبيته من يقوم مقام عمه أبى طالب ، فكيف كان الرسول يسير قافلا إلى مكة ؟ وكيف تحمل مشقة سير هذه العشرات من الأميال وهو مثقل بالهم والحزن والتفكير فيما مضى ، وفيماهو مقبل عليه ؟ وهل هناك دواء لهذا الموقف إلا الإيمان الراسخ .. الايمان الذى يتغلغل فى أعماق النفس فتعلو به على الرواسى الشامخات ، وتهزأ بالعوادى والنائبات ؟ وهل كانت هناك نفس تحمل من الإيمان ما كانت تتحلى به نفس محمد الرسول عليه الصلاة والسلام .

وهكذا سار الرسول من الطائف إلى مكة مثقلا بالهموم والأحزان ، حتى إذا كان على أبوابها أشفق على نفسه ، وعلى الدعوة التى يحمل أمانتها من المتربصين الشامتين ، وبحث عن رجل معتدل يحميه من شر هؤلاء المتحمسين لإيذائه ، ويدفع عنه العاصفة التى تنتظره فى مكة ، ووجد غايته فى المطعم بن عدى بن نوفل ابن عبد مناف ، فأرسل إليه يخبره أنه سيدخل مكة ، فى حمايته وجواره . . .

وتحركت فى نفس المطعم بن عدى أخلاق العرب ونجدتهم ، وشهامتهم فى حماية المستجير بهم ، فأجابه إلى ما طلب وأخذ لهذا الأمر عدته ، لم يكن يخفى عليه مقدار تحمس المكيين لإيذاء محمد . فتسلح هو وبنوه وتوجهوا مع الرسول إلى المطاف لحمايته ، واحترم المشركون العرب عهد المطعم لمحمد ، ووقفوا بعيدا ، وهم يتلمظون ، ويتحرقون غيظا أن لم يستطيعوا أن يشفوا غليلهم من محمد فى هذه الفرصة المواتية .

وكانت نتيجة هذه الرحلة ما ترى من ازدياد الألم فى نفس الرسول ، وتجرؤ المشركين عليه حتى اضطر أن يدخل مكة فى حماية المطعم . وما أشدها على النفس من مرارة ، ألا يستطيع الإنسان دخول بلده إلا فى حماية رجل يخالفه فى فكرته وعقيدته .. وبعد أن يتلمس هو هذه الحماية ويرجوها منه .

الطائف . . . والمدينة . . .

ختمت رحلة الرسول إلى الطائف هذا الختام الحزين ، وسجل رجال من الطائف فترة من تاريخها ، كلما تذكرها أتباع محمد تذكروها فى ألم ممض ،

ممزوج بالغيظ والمقت لهؤلاء الذين آذوا الرسول ، وألجئوه إلى هذه الشكوى التى لم يشكها طول حياته ، ولا تزال كلمة « الطائف » مقترنة فى أذهان المسلمين إلى يومنا هذا ، وإلى ما شاء الله ، بهذا الحادث المر فى حياة الرسول ، حتى ليكاد المسلمون ينسون ما قاساه الرسول فى مكة ، طول الإثنى عشر عاماً بجانب ما لقيه فى يوم واحد من أهل الطائف ...

وهكذا يكون التاريخ ! يكتبه أفراد قليلون بأعمالهم لبلادهم ، فيظل عالقاً بها لا يمكن محوه . ويكون له أثره فى مستقبل بلادهم ، فإما سعادة وعزة ورفعة ، وإما هوة وذكرى مؤلمة . . .

لقد كانت فرصة ساقها الله لأهل الطائف أن يحموا محمداً ودعوته . . ومن يدرى ؟ لعلهم لو فعلوا لظل الرسول معهم ، واختارهم أنصاراً ، واختار الطائف وطناً جديداً فيه المحيا وفيه الممات . .

أرأيت إذن .. المستقبل الزاهر الباسم المجيد . الذى كان ينتظر الطائف ، فأضاعه هؤلاء الثلاثة الشامتون المتكبرون . . ولكن هكذا إرادة الله . . . إنه جل شأنه كان يدخر هذا المجد لرجال آخرين ، ولبلد آخر ، كان يدخره لأهل يثرب « المهديين » ويدخره لهذه البلدة البسيطة التى تقبع وسط الجبال قانعة بالحصار المضروب عليها من هذه الرواسى ، لتصبح فيما بعد « المدينة » التى تهفوا إليها قلوب الملايين من المسلمين ، فى شتى أنحاء الأرض ، وفى كل زمان ، إلى أن تقوم الساعة ، يتذكرها كل مسلم بقلبه ، ويذكرها بلسانه كل يوم ، بعد أن مجدها الله فى كتابه ، واختارها حبيبه دار المحيا والممات بعد أن نصره أهلها وحموه ، وبذلوا كل غال ونفيس لديهم فى سبيل رضاه ، ورضا الله الذى أرسله ، وحماية الدعوة الخالدة التى أرادها الله هداية ورحمة للعالمين . .

وبينما تزهو المدينة على بلاد العالم كله بما ضمته من جسد أكرم الخلق على الله ، ومن كرام الصحابة ، والتابعين الأبرار ، وتراثهم الخالد ، وبما شع منها من نور أضاء العالم كله ، وبما سطرته فى التاريخ من أمجاد ، وبما يفد عليها كل عام من آلاف المسلمين ، مقبلين عليها فى خشوع وابتهال . بينما المدينة تزهو بذلك كله ، تنزوى الطائف على ربوة عالية فى قلب الجزيرة ، تتلمس أساليب الحياة والشهرة ،

بعد أن فاتها قطار المجد والخلود والشهرة من قديم . وفى جنوبها على حافة بستان من بساتينها يقوم بناء صغير مهمل يطلق عليه « مسجد عداس » أقيم أخيراً — على ما يبدو — فى المكان الذى جلس فيه الرسول ، حيث جاءه عداس بقطف العنب وهو مسجد حزين ، كالذكرى التى يبعثها فى النفس حين تراه . . .

وهكذا تسعد المدن وتشقى ، بما يقدمه لها أهلها من أعمال ، ورحم الله الأبرار من الرعيل الأول من أهل المدينة الذين خطوا خطواتهم الوئيدة الحذرة فى الليل البهيم ، على جبال مكة ، وبين شعابها ليلتقوا بمحمد ، وليعقدوا معه بيعة العقبة ، وبخطوا بذلك لهم ، ولمدينتهم ، وللاسلام ، مجداً وسؤددا ، سيظل يشغل صفحات التاريخ ، ما دام كتابه مفتوحاً فى هذه الحياة ، وسيظل يملأ القلوب ما دامت هناك قلوب تهفو إلى رسول الله . . « وللدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين » .

ونحن إذا قارنا بين هذه الهجرات الثلاث هجرة الرسول للطائف ، وهجرة الصحابة للحبشة وهجرتهم جميعاً فيما بعد للمدينة . وجدنا أن أشدها مرارة وأسوأها نتيجة هى الهجرة للطائف ، ما فى ذلك من نزاع .

ومع ذلك لم يحفل بها المؤرخون . ولم يبرزوها الإبراز الذى تستحقه ، بل مروا عليها مروراً سريعاً . ولعل ذلك راجع إلى عدم تعرض القرآن لها ، كما لم يتعرض لهجرة الحبشة كذلك ، كما أنه يرجع لاعتبار عمر رضى الله عنه هجرة المدينة بدءاً للتاريخ الإسلامى ، إعتباراً للنتائج الطيبة ، والأثر الحسن ، الذى ترتب على هجرة المدينة . فإن دعوة الإسلام بعدها شقت لها آفاقاً جديدة،ودخلت فى طور جديد، وخطت خطوات واسعة نحو الانتشار والقوة ، حتى تعدت شبه الجزيرة ودانت بها أمم كثيرة وأصبح لها فى كل مكان أنصار وأعوان .

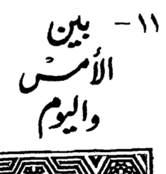
وكان ذلك كله بفضل أهل المدينة ، والهجرة إليهم . لكن لو أردنا أن نضع الآلام مقياساً لعظم الهجرة وبدء التاريخ ، لكانت الهجرة للطائف هى أولى الهجرات بالاعتبار ، وتأتى بعدها الهجرة للحبشة . ثم تأتى الهجرة للمدينة فى الرتبة الثالثة ، لأن الهجرة للمدينة لم تكتنفها الصعاب التى اكتنفت الأخريين ،

وما حصل للرسول فى الطائف ، حصل عكسه تماماً فى المدينة ، ففيها أحاط الناس به لكن لا ليضربوه ، ويؤذوه ، كما حدث فى الطائف ، بل ليحتفوا به ، ويعظموه ويفتحوا له قلوبهم وبيوتهم ، ويجد فيهم الأنصار المخلصين لدعوته ، الذين يبذلون المال والدم فى سبيلها . . . والذين يحملون مشعل الإسلام فيما بعد إلى القارات التى حولهم فيضيئونها بنوره ويهيئون لهم سعادة الدنيا والآخرة بهداه .

ومع ذلك فإننا لا ننسى مطلقاً تلك الآلام التى أترعت بها نفس الرسول وأصحابه ، فى الطائف أو فى الحبشة ، بل نضعها دائماً أمامنا مثلا عالية ضخمة ، لما يتحمله المجاهدون ويبذلونه فى سبيل فكرتهم وعقيدتهم . .

وصلى الله على سيد المجاهدين ، وصحابته المؤمنين الصابرين ومن اهتدى بهديهم وجاهد فى الله جهادهم « أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

١١ – بين الأمس واليوم



« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَا هُمْ مِنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

(سورة المجادلة).

كلما قرأت آية من آيات القرآن الكريم ، التى تتحدث عن المنافقين وتصرفاتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذتنى رعدة نفسية ، واستولى على إشفاق غريب ، ومصدر هذا الإشفاق ، وهذه الرعدة فى نفسى أننى أجد كثيراً من هذه التصرفات ، التى دمغ الله بها هذا الصنف من الناس ، وتوعدهم من أجلها بالعذاب الشديد الدائم ، والتى أخرجت هؤلاء عن الإسلام ، وجعلتهم من أخطر أعدائه عليه ، أجد هذه التصرفات تتغلغل اليوم فى أوساطنا الإسلامية وتتشرب بها نفوس كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام فى الشرق والغرب وفى كل أمة من أممه ؟ ! ! فأتساءل هل عرف هؤلاء موقفهم وحددوا أماكنهم من الإسلام ؟ ! ! !

الذى لا أشك فيه أن كثيراً من هؤلاء أو كلهم لا يدرون حقيقة موقفهم من الإسلام ولا يظنون أنه بعيد عنهم ، بل يعتقدون أن عملهم وتصرفهم لا يعدو أن يكون تصرفاً شخصياً بعيداً عن أن يتناوله الإسلام ويتناولهم بهذا الحكم الحازم ، حتى إننا لنراهم إذا سمعوا القرآن مرة يتحدث عن المنافقين يحملقون ويشمئزون ، ويرثون لحال هؤلاء المجانين المساكين ! ! وربما حدثوك فى جرأة عن المنافقين وخستهم وخطرهم على مجتمعهم ، وكأن المنافقين لفظة تاريخية لم يعد

لمدلولها وجود !! وكأنهم وقف على من كانوا فى عهد الرسول فلا يمكن أن يتكرر وجودهم فى المجتمعات بعد ذلك !!

لقد كانت تلاوة هذه الآيات والبحث فى أسباب نزولها تدعونى دائماً إلى المقارنة بين الوضع فى البيئة الإسلامية الأولى التى كانت تنبت فيها هذه التصرفات وتستدعى نزول هذه الآيات ، وبين وضع المسلمين الحالى فأجد الشبه قوياً بين الوضعين ، بين تصرفات السابقين من المنافقين والقدماء ، وبين تصرفات كثير من أبناء الإسلام الكبار منهم والصغار الآن .

فلقد كان الإسلام بالمدينة يحوطه الأعداء داخل المدينة وخارجها يتربصون به الدوائر ، والرسول والمخلصون معه يحاولون — جاهدين — تثبيت دعائم الإسلام وإرساء تعاليمه الجديدة ودفع السهام التى توجه إليه من أعدائه ، ومن حوله المتربصون الذين يتلمسون المعايب والسقطات ، بل يخلقونها خلقاً ويبحثون عن الثغرات لينفذوا منها إلى أغراضهم الخبيثة ، وينفثون منها سمومهم القاتلة ، وكان هؤلاء الأعداء يجدون فى بعض المسلمين طابوراً خامساً يعينهم ويساعدهم على الوصول إلى أغراضهم ليفرقوا صفوف المسلمين ، ويفتوا من عضدهم ، ويهنوا من عزائمهم ، ويبثوا فيهم الشكوك ، والإسلام غض طرى ، والمجتمع الإسلامى فى بدء تكوينه ، وكل هذا يؤثر فيه ، ويترك فى نفوس المسلمين صداه . .

هؤلاء الصنف من المسلمين سماهم الله منافقين ، وهم قوم وجدوا فى المسلمين شيئاً من القوة والحماسة لدينهم ، فلم يستطيعوا أن يقفوا أمامهم فى جرأة وصراحة ويقولوا رأيهم المكبوت ويجابهوا الرسول برفضهم لفكرته وعقيدته وحكمه ، لأنهم يخشون أن ينالهم من ذلك أذى فى أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، أو تفوتهم مصلحة يحرصون عليها ، فبادروا بالانضمام للمسلمين وهتفوا بهتافهم — لا إله إلا الله محمد رسول الله — والتفوا حول الرسول بالمسجد يصلون معه ويصومون ويحضرون مجلسه ودرسه ، ويشاركون المسلمين فى كل شىء من ظواهرهم ، حتى أنهم ليخرجون أحيانا للحرب فى صفوف المسلمين المخلصين !!

أليسوا بعد هذا مسلمين ؟ نعم إنهم كذلك فى ظاهر الأمر لا ينقصهم شىء

من الظاهر لكن كل هذا لم يجد نفعا عند الله لأنه كان ينقصهم أهم عنصر في الإسلام وفى تكوين المسلم ، وهو عنصر الإخلاص للفكرة التى هتفوا بشعارها وأعلنوا أنهم من أتباعها . . وبذلك انفصلوا بروحهم وأمانيهم عن المسلمين ، واتجهوا بإخلاصهم إلى أعداء الإسلام ، فعاشوا مع المسلمين بأجسادهم ولسانهم ، وعاشوا مع أعدائهم بقلوبهم وأفكارهم وإخلاصهم وأمانيهم فهم (إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) وإذا أحسوا شيئا يهدد مظهرهم ومركزهم بين المسلمين جاءوا إلى الرسول يقولون (نشهد إنك لرسول الله — والله يعلم إنك لرسوله — والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) فإذا خلوا بأعداء الإسلام أذاعوا لهم أسرار المسلمين ، وهونوا من شأنهم ، وطعنوا فى دينهم ، وأغروا بهم أعداءهم ، وتعاونوا معهم سراً على المسلمين ، يشجعونهم على حربهم والفتك بهم ، فإذا اضطرتهم الظروف للخروج فى صفوف المسلمين المحاربين خرجوا معهم — ولكن بروحهم هذه الخبيثة — فيشيعون الرعب فيهم ويبثون الخلل والخوف فى صفوفهم ، ويمثلون معهم مهمة الطابور الخامس بلغة العصر الحديث .

هكذا كان المنافقون بل كانوا أكثر من هذا وأشد ، ولعلك بعد هذا العرض تهفو نفسك إلى معرفة بعض الآيات التى تصف أحوال هؤلاء لتعرف إلى أى حد تنطبق هذه الآيات على كثير من أبناء المسلمين الآن ، ولاسيما الذين يتولون شئون الحكم فيهم ، وتنفعل نفسك كما انفعلت نفسى حين تقرؤها .

إذن فاقرأ معى هذه الآية التى أختارها لك من سورة المجادلة (ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) فهذه الآية تشير إلى قوم من المسلمين انطلقت حناجرهم تهتف بشهادة التوحيد وتتلو كتاب الله وتفعل أفعال المسلمين لكنهم — كما قلت — عاشوا بأرواحهم وإخلاصهم مع قوم آخرين غضب الله عليهم ، وهم اليهود الذين ناصبوا الرسول العداء فى المدينة وتألبوا عليه وألبوا معهم المشركين وتربصوا به صلى الله عليه وسلم وبالمسلمين الدوائر حتى حاولوا أن يغتالوه ويستريحوا منه ويخلص لهم جو المدينة كما كانت من قبل هجرة الرسول إليها ، هؤلاء المسلمون

الذين تراموا على أقدام اليهود ، واتخذوهم أحبابا وأنصارا ، وأعطوهم أسرار المسلمين ، وتعاونوا معهم ، وكانوا فى أعمالهم وسلوكهم صورة سيئة للمسلم المتهاون فى عقيدته ، المضحى بها فى سبيل شهواته وماله ، هؤلاء الذين ظهروا بالمدينة فى الأوساط الإسلامية ، واندمجوا مع الجماعة المسلمة بحجة أنهم مسلمون ، لم يرض الله أن يتركهم هكذا يلوثون الجماعة الإسلامية ، ويضربون أسوأ المثل للاسلام ، وهو فى أمس الحاجة للقدوة الحسنة والمسلم المثالى ، ففضحهم وأنزل فى شأنهم قرآنا ، يلفت النظر إليهم ، ويعجب الرسول وكل مخاطب من أحوالهم الشائنة ، وسيرتهم الخبيثة المعوجة ، حين مالئوا قوما من اليهود غضب الله عليهم ، وهم ليسوا من اليهود ، حتى يتعصبوا لهم ويتعاونوا معهم ، ويعطوهم أسرار المسلمين ويجرئوهم عليهم وهم بفعلهم هذا انسلخوا من الإسلام والمسلمين فصاروا مذبذبين ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ولكنهم مع ذلك يحلفون حين يواجهون بهذه التهم ويصرون على أنهم برءاء وأنهم من المسلمين المخلصين ، يحاولون بذلك أن يبقوا على مراكزهم وصلاتهم الطيبة مع المسلمين حتى لا يفجعوا فى أنفسهم ومالهم ولكن هيهات . فقد أعلن الله حالهم . وكشف أعمالهم وبين جزاءهم (أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون) .

ولئن كان الوحى قد انقطع الآن ، لقد ترك لنا البيان القاطع ، والدلائل الواضحة فى شأن هؤلاء المسلمين ، الذين يلعبون بمصالح بلادهم وإخوانهم ، ويرضون أن يكونوا مطية للعدو ، يصل على أكتافهم إلى أغراضه ، وذلك البيان موجود فيما نقرؤه صباح مساء ، من آيات الله الحكيمة التى تحكى حالهم وتبين مصيرهم . .

« اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين ، لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون ، استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون »[1].

---

(١) الآيات من أواخر سورة المجادلة . .

ومن قبل جعل الله الشدائد والحروب ، ميزاناً توزن به قيم الرجال ، وتبين معادنهم ويميز به خبيثهم وطيبهم ، وكانت تلك التصفية ، من حكم الله العالية فيما أصاب المسلمين من بلاء وشدة ، وهزيمة يوم أحد ، وستظل كذلك في كل مجتمع قل أو كثر ، فعند الشدائد يتجلى الإخلاص ، وتظهر الرجولة والبطولة وستظل هذه الآية شاهداً قوياً لهذه الحكمة العالية ، (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء)(١).

حقاً فالقرآن هدى وشفاء ، لمن يتناوله ويتدبره ، ويسير حسب رسمه الذى رسمه ، فما ترك ناحية إلا عالجها ، ولا مشكلة إلا تناولها ، وألقى عليها من ضوئه وهداه ما ينير الطريق للسالكين ويعطى العبرة للمؤمنين .

لقد لفتت نظرى هذه الآية الكريمة (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم)(٢) وبحثت عن سبب نزولها الذى يكشف لنا عن معناها ، ويبين هدفها ومغزاها ، فوجدت : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل اليهود يوماً عن شىء مما فى التوراة ، فكتموه الحق ، وأخبروه بخلافه وأروه أنهم قد صدقوه ، ومنوا عليه بذلك ، وفرحوا بما فعلوا ، فأطلع الله رسوله على ذلك وسلاه بما أنزل من وعيدهم(٣) .

فوقفت معجبا دهشاً أمام هذه الآية التى عالجت داء قديما تمكن فى يهود المدينة ، وأباح لهم أن يغرروا بالرسول حين سألهم عن شىء فى توراتهم ، وهم قراؤها وحفظتها ، فأجابوه بغير الحق ، ودلسوا عليه ، وهم فى ظاهرهم جادون ، يعلنون أنهم قد أظهروا الحق ، وأجابوا الرسول بالصحيح من التوراة ، ولم يكتفوا بهذا التدليس ، بل راحوا يمنون ، ويقولون فى زهو إن الرسول سألهم عن شىء

(١) سورة آل عمران .
(٢) سورة آل عمران .
(٣) تفسير الكشاف .

فى توراتهم ، فأجابوه إجابة صحيحة ، وكأنهم يحمدون أنفسهم ، ويظهرون للمسلمين جميل ما صنعوا ، وحسن ما فعلوا ، حتى يحمدهم الرسول والمسلمون ويشكروهم على فعلهم ..

والرسول عليه الصلاة والسلام بشر ، لا يعلم الغيب إلا أن يعلمه الله إياه والله هو الحق ، وهو غيور على الحق أن يطمسه هؤلاء ، وغيور على رسوله أن يغرروا به ، ويزوروا عليه ويخدعوه . فأنزل هذه الآية الكريمة تنعى عليهم فعلتهم الشنيعة . وتبين أن جزاء هؤلاء المغرورين الخادعين إنما هو العذاب الأليم ..

١٢ – كيف نفهم الإسلام ؟

قال تعالى :

« إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ »(١)

كيف نفهم الإسلام ؟ ؟

سؤال قد يبدو غريبا ، لاسيما عند العلماء الذين يقومون على فهم الدين ، وحماية تعاليمه ، وبثها فى نفوس الناس ، ولكنه ليس بغريب عند من يتطلب المعرفة الحقة للاسلام ، ويريد الاهتداء إلى المنبع الروحى الذى استقى منه العرب ، فأحيا نفوسهم ، وخلقهم خلقا جديدا ، وجعل منهم أمة تملى على التاريخ ما تشاء من أحداث وأعمال ، حتى نستعيد نحن كذلك هذا المجد على نفس الأسس التى قام عليها . . .

نعم نريد الاهتداء ، فكلنا يدعى الإسلام ، ومع ذلك نجد أنفسنا بعيدين كثيرا عن العزة التى تليق بالإسلام والمسلمين ، فمن أين إذن جاءت هذه الهوة ؟ . الهوة التى باعدت بيننا وبين ما نأمل ، مما كتبه الله للمسلمين ؟ — هل ضللنا الطريق السليم ؟ أو أن الطريق الذى كان سليما فى الماضى لم يعد سليما فى الحاضر ؟ أسئلة تتوارد على الأذهان ، وتثير أنواعا من الشكوك عند الذين لم يتحصنوا ضد هذه الشكوك بفهم سليم لدينهم . . ولكن الفاهمين يعلمون جيدا مصدر هذه العلل ، ويضعون أصابعهم على موطن الداء ، وهو عدم فهم المسلمين لدينهم الفهم السليم الذى يبنون عليه حاضرهم العظيم .

(١) سورة الرعد .

إن الناس الآن لفى أشد الحيرة من أمر دينهم ، ويتساءلون عمن يأخذون عنه الدين بعد أن اختلف القوامون عليه فى فهمه ، وتصويره تصويرا نأى به عن طبيعته ، وأبعد به عن قصده ، وخلق أنواعا من الحجب على هدايته .

فهناك قوم يتصورون الدين صلاة وصوما فيبالغون فى أمرهما ، ويتخذون الصلاة عنوانا وحيدا على المسلم ، ثم هم بعد ذلك لايبالون بأى مظهر أو تعليم آخر من تعاليم الإسلام ، فهم يسارعون إلى الصلاة ، ويحرصون على أدائها فى تبتل ، يشبه تبتل الصالحين ، فإذا خرجوا إلى عملهم ، لم يظهر عليهم أثر من آثار عبادتهم فهم فى معاملتهم للناس كذابون غشاشون ، يسارعون إلى الشر مسارعتهم لأداء الصلاة ، ولا يلقون بالا إلى قول الحكيم الخبير (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) ولا إلى قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه «من غشنا فليس منا» وهؤلاء أسوأ مثل للمصلين ، وأقبح دعاية للمتدينين ، استعاذ منه السابقون وعلمنا الله فى قرآنه أن ندعوه حتى لا نكون منهم (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم) .

وهناك جماعة من المسلمين يعنون بلبس المرقعات ، يكثرون الاذكار ، ويمسكون المسابح الطويلة ، ويرسلون اللحى ، ويضخمون العمائم ويجعلونها ألوانا شتى ، يطلبون رزقهم باسم الدين ، وينتظرون عيشهم من أيدى المحسنين ، ويفرضون على أتباعهم ضرائب أو عادات يعيشون عليها ، وإذا سألتهم ماذا يعملون ؟ لم يجدوا جوابا إلا انهم هداة مرشدون !! وربما قالوا لك : متوكلون ، والرزق على الله مضمون

وهناك قوم يفهمون أن الإسلام مظهر لا روح .. فهم ينفذون بعض تعاليمه ، ويهملون البعض الآخر ، وقد يحتكمون إليه فى بعض المعاملات ، ولكنهم يهملون الجوانب الاجتماعية الروحية فى الإسلام ، فهم مثلا يغيب عنهم أن المسلم مسئول عن أخيه ، وأن الدولة يجب عليها حماية الضعفاء والمساكين ، والعجزة والمسنين ، وأن الإسلام لايجيز أن يموت بعض أبنائه من التخمة ، فى حين يموت إخوة لهم من الجوع والحرمان !!

وهناك قوم يفهمون الإسلام على أنه لاصلة له بنظم الحياة السياسية والاقتصادية ، فهم يريدونه على أن يعيش فى المحاريب منعزلا عن ركب الحياة غير متدخل فى تنظيمها ولا توجيهها ، فإذا تكلم عالم فى شأن الحرية للمسلمين ، ومناهضة الغاصبين والمستعمرين ، قالوا عالم خرج عن الحد ، وليس له إلا المنع والصد ، واتهموه بالتدخل فيما لا يعنيه !!

وهناك قوم من المسلمين يفهمون أن الإسلام إنما أمر بالعبادات لتصفية النفوس، وتقويم الأخلاق ، ثم يدعون أنهم قوم صفت نفوسهم واستقامت أخلاقهم ، فهم، من أجل ذلك غير ملزمين بهذه العبادات ! !

ومن المؤلم أن نجد كلا من هؤلاء يدعى أنه هو الذى يفهم الإسلام ، وأنه أبر أبنائه به . وأحرصهم عليه ، ثم ينتقص من شأن الآخرين ! ! وهم جميعاً فى هذا كالعميان الذين أمسك كل واحد منهم بجزء من الفيل ، فصور له حسه الناقص أن الفيل هو الجزء الذى لمسه بيديه ، ثم أنكر على غيره ما يقول :

وكل يدعى وصلا بليلى وليلى لا تقر لهم بذا كا

لقد غاب عن هؤلاء جميعاً أن الاسلام دين روحى إجتماعى إصلاحى ، قد جمع للحياة أسلحتها ، وأراد أن يكون المسلم أنموذجا طيبا فى هذه الحياة ، طيبا فى نفسه وفكره ، طيبا مع من حوله من أفراد أسرته ، طيبا فى معاملته للناس ، ومن أجل هذا وجهه إلى كل مايصلح شأنه ويقوم خلقه ، ويهيء له عيشة سعيدة فى الدنيا ، ونعيما مقيما فى الآخرة ، فهو إن أمره بالعبادات فإنما يريد منها أن تكون وسيلة لإصلاح خلقه ، وتقويم معوجه ، وتهذيب سلوكه ،حتى يعيش سعيدا مع من حوله ، وهو حين يأمر بفضيلة من الفضائل إنما يريد سعادة الناس ، ومن أجل هذا تتجه كل تعليماته عبادة أو معاملة إلى هذه الغاية السليمة ، ونحن نقول عبادة ومعاملة مجاراة للتقسيم الفقهى وإلا فكل عمل يقوم به الإنسان بنية خالصة هو عبادة لله ، مهماً كان نوع هذا العمل ، والله يطلب من الإنسان أن يخلص له فى صنعته إخلاصه له فى صلاته ، ولا يقبل الله صلاة عامل غشاش أو تاجر كذوب أو موظف خائن ، أو حاكم ظالم ، فالإخلاص لله لايتجزأ ، وهو روح تلازم الإنسان فى كل عمل من أعماله ، فتتجه إليه وتعبده فيها كأنك تراه

فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، ثم هو لا يرضى منك بالبطالة والكسل ، ودعوى الفضل والقربى إلى الله ورسوله بدون عمل ، كما لا يرضى منك أن تتصنع التقوى وتسرف فى التدين المكذوب وتعنى بناحية من الدين، وتهمل ناحية أخرى وتدعى التخلق بخلق الإسلام فى عمل ، ثم تتحلل منه فى عمل آخر ، أو تتظاهر أمام الناس بالخلق والمحافظة على مظاهر الدين ثم إذا خلوت إلى نفسك سبقت الشريرين وفعلت فعل العصاة المذنبين « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » .

والله لا يرضى عن التشدق ولا عن التنطع والتشدد ، فإن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى ، كما لا يرضى منا أن نعطى التوافه والبسائط ، ما نعطيه الواجبات وعظائم الأمور ، بل نضع كل شىء فى موضعه ، ونقيس كل أمر بمقياسه ، فلا نغلو ولا نهمل ، بل نكون وسطا ، ونأخذ الدين على أنه إصلاح ، وتهذيب ، وتقويم وإسعاد ، لا على أنه « فلاحة » نعنى فيها إذا عنينا بالبذرة دون أن ننظر الى الثمرة ، علينا أن نفهم أن الله لا ينظر إلى صورنا ، ولكن ينظر إلى قلوبنا وإخلاصنا فى أعمالنا ، وأنه بمقدار ما نحب الخير للناس يحبنا الله « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم » وبمقدار إخلاصنا فى عملنا يعطينا من ثوابه ، ويغدق علينا من نعمائه ، وهكذا . . فالدين روح وعمل ، روح تشمل الناس جميعا ، وتسعهم جميعا ، وعمل على هدى هذه الروح ، وفى نطاقها وتوجيهها .

فلينظر المسلمون إذن إلى مكانهم الآن من دينهم وتعاليمه ، وليعلموا أنه ليس منا من بات شبعان وجاره جائع ! ! .

ليس من المسلمين من لم يشعر بشعور أخيه ، ليس منهم من يظلم ، أو يقر ظلما ، أو يغش أو يساعد على غش ، أو يحتكر أو يقر احتكارا ، ليتنعم هو على حساب أقوات إخوانه المسلمين ، ليس منهم ، وإن ادعى أنه مرشدهم وحاميهم ، وواعظهم ومربيهم .

ليس من المسلمين هذا الصنف الكسل المتعطل ، الذى ينتظر من الناس أن يطعموه ، وهو قادر على الكسب والعمل ! ! .

ليس منهم هؤلاء الذين يريدون أن يحصروا الإسلام داخل محاريب المساجد ،

ويحولوا بينه وبين اختصاصه في تنظيم الحياة ، فى كل شأن من شئونها ، فى البيت والشارع والمدرسة ومجلس الحكم ، مدعين أنه نزل لزمان وأناس غيرنا وغير زماننا .

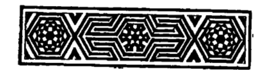
ليس من المسلمين الذين يدعون حسن الخلق ، وبلوغ الأرب ، من جمال الأدب، ثم يتحلل من العمل فقد كان الرسول مثالا فى حسن الخلق، أدبه ربه وأثنى عليه أكمل ثناء وقال له (وإنك لعلى خلق عظيم) ومع ذلك كان أكثر الناس عبادة لله ، وخوفا منه ، كان صواما قواما ، وكان أكثرهم شكرا وعملا لله ، يصلى حتى تتورم قدماه ، وكان يصوم حتى يظن أنه لا يفطر ، قال له صحابته : ما حاجتك إلى العمل ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال لهم : «أفلا أكون عبدا شكورا» وقال لهم« إن أقربكم لله وأخوفكم منه أنا » . ولقد حرص عليه الصلاة والسلام على أن يفهم صحابته أن الإسلام كل لا يتجزأ ، وأن الجنة ليست للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ، وليست للصائمين الذين لا يتركون قول الزور والعمل به ، وليست للذين يقرءون القرآن ويهملون العمل به ، وليست للذين يبالغون فى العبادة ويؤذون الناس بأعمالهم وألسنتهم ، وليست للكسالى القعدين الذين يتخذون من التعبد صناعة ، وينتظرون من غيرهم ان يطعمهم .

حرص الرسول على هذا وأكثر منه ، مما يخلق المجتمع السعيد ، وألقى فى نفوس المؤمنين ان العزة لله ولرسوله ولهم ، وأفهمهم أن العزة لا تنال بتلاوة القرآن ، والقعود عن العمل به ، ولا بالكثرة من الأذكار والتمتمة والحوقلة مع إهمال الأعمال ، وإساءة الأخلاق .

فليت المسلمين القوامين على الدين يفهمون الطريق الصحيح للعمل به ، وليت الذين يعكفون على الدنيا يعرفون ان الخلق الإسلامى هو طريقهم الى الدنيا التى يريدونها ، وإلى الآخرة أيضا ، ليتنا جميعا نتناسى الخلاف حول التافه من الأمور ، ونعنى بلب الدين وثمرته ، حتى نصلح من ذات أنفسنا ونسعد فى دنيانا وآخرتنا .

أخى المسلم : لعلك تقول معى الآن إن المسلمين فى حاجة الى تعبئة خلقية واعية ، تقوم على الفهم الصحيح لمعانى الدين وتعليماته ، وأهدافه وغاياته ، وحينئذ نستبشر خيرا بمستقبلهم . وتعود الدنيا من جديد لتقف على بابهم (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فادع الله معى أن يرزقنا الفهم الصحيح لدينه ، ويهبنا القدرة والعزم ، لنعمل بما نعلم ، ويهدينا إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

١٣ – سنة الله في رقي الأمم



يقول كثير من الناس إن هناك موجة من الإلحاد تنتشر بين الناس بمناسبة وصول (جاجارين) إلى الفضاء ، وإذا صح هذا فلا شك أن سببه هو الجهل بالإسلام وكتابه المجيد ، فمثل وصول (جاجارين) مثل أي اكتشاف علمي آخر هو استغلال لما خلق الله في السموات والأرض من أشياء توصل العلماء بتفكيرهم وبحوثهم إلى الوصول إليها ، فاستعانوا بها على الوصول إلى طبقات الفضاء ، أو نقل الأصوات والصور عبر الأثير إلى مسافات بعيدة ، وما توصل إليه العلماء الآن من إدراك خواص المخلوقات واستغلال علمهم على الوجه الذي نراه ، هو جزء يسير جداً جداً مما أودعه الله في هذا الكون من أسرار وعجائب وخواص . .

وكل اكتشاف علمي يجب أن ننظر إليه من وجهين : من ناحية العقل الإنساني الذي خلقه الله وهيأه لهذا الإدراك الواسع ، وذلل له طريق اكتشاف بعض ما في الكون من أسرار ، ومن ناحية الخواص التي خلقها الله في الأشياء والتي أدى إدراك بعضهم إلى تسخير ما في الكون للانسان ، ومن خلال هذه النظرية المزدوجة يجب أن تعنو جباهنا لخالق الكون القدير الذي (خلق لكم ما في الأرض جميعا) لا أن تخلق فينا موجة من الشك والإلحاد .

والمسألة ليست مسألة الاكتشاف فى ذاته ، ولكن مسألة العقل والتفكير الذى يتناول به الإنسان النظر إلى هذا الاكتشاف .

فإذا كان عقل الإنسان مستقيما ، وتفكيره سليما ، وروحه متقبلة للنظر إلى هذه الاكتشافات نظرة للتأمل فى خالقها ، وخالق موادها الأصيلة ومودع الأسرار والخواص فيها ، أمكن أن يصل الإنسان بذلك إلى غاية الإيمان والخضوع الخالق ، ولكن إذا كان التفكير مختلا والقلب مريضاً نظر إلى هذه الأشياء نظرة مريضة فلم يدرك ما فيها من أسرار ، ولا من وراءها من خالق قوى قدير ، ويصدق فيه قول الشاعر الذى يصور هذه الحالة أبدع تصوير فيقول :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

والله سبحانه وتعالى يقول : (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) .

ذلك لأن الناس فى نظرتهم للأشياء جد مختلفين ، يرون الوردة الجميلة ، ولكن نتيجة رؤيتهم لها تختلف ، فمنهم من لا يهمه إلا ظواهرها ورائحتها ، ومنهم من يمر عليها ولا يهمه شىء فيها ، ومنهم من يفكر فيما وراء ظاهرتها ورائحتها ، فى الذى أبدعها ونسقها ، وأودع فيها طيب الرائحة وجمال اللون ، فيصل من خلال هذا التفكير إلى الإيمان بالمبدع الخالق القوى القادر ، ولهذا نجد القرآن يعرض أمامنا فى آيات كثيرة مظاهر كونية فى السموات والأرض ، فى النبات والحيوان والإنسان نفسه ، ويلفت نظرنا إلى ما فيها من أسرار ، ويدعونا إلى التعمق فى دراستها ، والوصول من خلال هذه النظرة الفاحصة إلى الإيمان بالخالق ، وهذا هو الطريق الذى سلكه كثير من العلماء الغربيين ، ووصلوا بواسطته إلى الإيمان بالله ، بعد غلوهم فى الجحود والإلحاد حتى «دارون» نفسه نجده يقول : « إنى أرى أن الأحياء التى عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أولية ، نفخ فيها الخالق نسمة الحياة »[1] فيعترف بوجود الخالق المبدع . . ومن خلال دعوة القرآن إلى التعمق فى دراسة الكون ،

---

(١) كتاب « الإسلام والمبادئ المستوردة » ص ٤٩ .

ونداء للذين يمرون عليه ، دون أن يعوا أسراره ، نفهم عناية الإسلام بالعلم بكل صوره وألوانه ، وترحيبه بكل ما ينتجه العلماء من دراسات واكتشافات . بهذه الروح فهم المسلمون الأول دينهم وقرآنهم واندفعوا فى مجال العلم يحققون أكبر قدر من السبق العلمى الذى تعترف به كل المحافل العلمية ، والذى قامت عليه نهضة العرب معتقدين أن عملهم فى هذا المجال العلمى ، إنما هو استجابة لدعوة القرآن إلى النظر والتأمل والبحث والمقارنة .

فقد كان عمر بن الحسام يقرأ كتاب المجسطى فى الرياضات السماوية لبطليموس على أستاذه الأبهرى ، فدخل عليهما بعض الفقهاء فقال لهما : ما الذى تقرآنه ؟ فقال الأبهرى : أفسر آية من القرآن هى قوله تعالى : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج[1]) وعلق الفخر الرازى من أئمة علماء التفسير على هذا فقال : « ولقد صدق الأبهرى فيما قال : فإن كل من كان أكثر توغلا فى بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علما بجلال الله وعظمته » فالدراسة العميقة المستفيضة للكون مما يدعو إليه القرآن ، وكل ما يصل إليه الدارسون من نتائج علمية محققة لا يمكن أن يتنافى مع ما جاء به القرآن ، بل يؤيد آياته ودعوته أما أن بعض الناس يغترون بالعقول التى وصلت إلى هذه الاكتشافات ، ويقفون عند هذا الحد ، فذلك من قصور فى تفكيرهم ، ومرض فى قلوبهم ، وغرور استولى على نفوسهم ، فالعقل من خلقه ؟ والطبيعة من أبدعها ، وأودع فيها أسرارها ؟ .

والوصول إلى الفضاء ، أو إلى المريخ أو غيره لا يصادم أى نص فى القرآن أو الحديث ، بل ربما كان من مقتضيات دعوة القرآن إلى العلم والتعمق فى دراسة الكون وأسراره وتفسيرا لبعض آياته كما يقول الأبهرى ، ولو أن المسلمين ظلوا يفهمون القرآن كما فهمه السابقون ، لظلت موجة العلم التى بدأها أسلافنا فى يدنا ، وكنا أولى من غيرنا بهذا السبق العلمى الذى نرى غيرنا قد وصل إليه .

حقيقة قد يختلط الأمر على بعض الناس ويظنون أن هناك تعارضا بين وصول

---

(١) راجع كتاب « الاسلام والمبادئ المستوردة » للكاتب فصلى : الاسلام والعلم المسلمون والعلم

جاجارين إلى الفضاء وبين ما ورد فى النصوص الدينية من كلمة السموات ، واختراق الرسول صلى الله عليه وسلم للسموات السبع ، وصعوده إلى سدرة المنتهى الخ . . .

وهذا الاختلاط لا يرجع منشؤه إلى نفس النصوص الدينية ، ولكن إلى فهم بعض الناس لها ، فكثير منهم من يفهم أن السماء هى هذه القبة الزرقاء التى نراها ، والتى رآها جاجارين على غير ما نراها ونحن على ظهر الأرض .. والسماء فى اللغة هى كل ما علاك ، ولكن حين ندخل فى نطاق تحديد السموات السبع التى ذكرها القرآن لا يمكن لنا تحديدها بأنها هى هذه القبة الزرقاء ولا هذه الأفلاك السبعة ، لأنها أصبحت أكثر من سبع الآن ، فمن الخطأ تحديد السموات بأنها هى التى تكون المجموعة الشمسية ، ولماذا لا تكون السموات التى تحدث عنها القرآن ، وجاءت الأحاديث تخبرنا بأن الرسول اخترقها ، هى فوق كل ما نعرف من عالم الكواكب ، وهل يمكن لعالم يحترم نفسه وعقله والعلم الذى يمثله أن يقطع بعدم وجود شىء وراء ما وصلنا إليه بواسطة المكبرات النظرية (التلسكوبات) ففى كل يوم يظهر جديد ، وقد يصل العلماء إلى اختراع مكبرات نظرية ذات أبعاد أقوى مما نعرفه الآن فتكتشف لنا من عالم السماء مالا نعرفه الآن .

وقطعا لا يمكن الادعاء بأن ما نصل إليه فى المستقبل هو غاية حدود هذا الكون ، وإلا كان هذا الادعاء نفسه دليل الجهل والقصور لمدعيه ولو بلغ من العلم ما بلغ . . وصدق الله إذ يقول (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) فهذه القضية القرآنية يمكن تطبيقها علينا مهما بلغنا مع العلم ، فالإشكالات التى نتصورها لا تنتج من نفس النصوص الدينية ، ولكن من بعض الأفهام السطحية أو العامية لها ، وهذا بالطبع لا يتحمل وزره الدين ، ولكن يتحمله الذين يتخبطون فى الفهم ، ويدعون الإحاطة والعلم بتحديد لمعانى الكلمات والمدلولات ، ثم يجدون أنفسهم قد اصطدموا بنتيجة غرورهم وادعاءاتهم ، ونحن لا نطلب من القرآن أن يحدثنا فى تفصيل عن خواص الأشياء فلم يأت لهذا الغرض ، لأنه كتاب هداية يكتفى بلفت الأنظار والعقول إلى بعض مظاهر الكون وأسراره لنهتدى بهذه النظرة العاقلة الفاصلة للخالق جل وعلا .

ولهذا لا يمكن لعاقل أن يعيب عليه أنه لم يتحدث عن هذه الخواص ولم يعلمها الناس ، والقرآن مع ذلك لم يسد المنافذ على الباحثين بل فتحها أمامهم ، ودعاهم إلى النظر فيها ، ودعاهم فى حماس إلى استعمال عقولهم للغوص إلى أسرار الكون ، ومن الجهل الفاضح الذى يقع فيه القاصرون والمغرورون أن الإنسان حين يبحث ويصل إلى بعض هذه الأسرار يأتى هؤلاء ويرتبون عليه نتيجة عكسية لما أراده الله جل وعلا من دعوتهم للبحث ، ويقولون وصل فلان ، واخترع فلان ولا بأس بأن يصل هذا ويخترع ذاك فكلهم يغوصون فى البحر الذى أوجده الله لهم ويسبحون فيه ، ولم يخلقوا جديدا ، ولكنهم استخرجوا بعض ما فيه ، والذى لم يستخرجوه أكثر مما عرفوه واستخرجوه وكان الأولى — كما قلت — لو استقام تفكير الناس أن يهديهم هذا التفكير إلى الإيمان العميق ، كما حصل لبعض العلماء الذين وصلوا عن طريق بحوثهم العلمية إلى الإيمان . . . الإيمان الراسخ بالله .

إن كثيرا من الأبحاث العلمية الحديثة قد أضافت توكيدا جديدا لنفوس المؤمنين بالقضايا الدينية . . فقد ورد مثلا فى الآيات التى تصف مظاهر القيامة من تفتيت الجبال وصيرورتها كالصوف المنفوش ، ونسفها نسفا من أمكنتها ، ومن غليان البحار وفورانها على شواطئها ، ورد من ذلك ما كان العقل يقف أمامه جامدا ، والقلب يؤمن به مسلما ، ولكن جاءت القنبلة الذرية وغيرها من القنابل المدمرة التى عرفنا كثيرا من آثارها فقربت لنا فهم هذه الآيات ، ولم يأت العلماء الذين اخترعوا هذه القنابل وعرفوا الخصائص التى قامت عليها بجديد لم يكن موجودا ، وإنما استغلوا الموجود وما فيه من خصائص على صورة خاصة ، فولدت لهم القوة الهائلة المدمرة .

وهل يصعب على الله الذى خلق هذه الخصائص أن يحولها نفس التحويل ، الذى توصل إليه العلماء وأقوى منه ، فينتج عنه ما تحدثت عنه آيات القيامة وانتهاء هذا العالم ؟

وكان كثير من الجاحدين — ولا يزالون — يتشككون فى إسراء الرسول وسيره ليلا من المسجد الحرام فى مكة إلى المسجد الأقصى فى القدس ، والعروج به إلى الرحلة القدسية السماوية ، والعودة فى نفس الليلة إلى مكانه فى مكة ، تشكك

المتشككون فى هـذه القضية حتى زلزلت إيمان بعض ضعاف النفوس ، وحملت بعض المفكرين على الجزم بأنها كانت رحلة روحية لا جسدية ، استكثارا منهم أن تتم هذه الرحلة الجسدية فى ليلة واحدة وفى طريقه ما سموه الفضاء ، وانعدام خصائص الحياة فيه مما رتبوه على معلوماتهم القاصرة وبنوا عليه استحالة الرحلة الجسدية ، ولـكن جاءت رحلة لرجل الفضاء ودوران الأقمار الصناعية وغيرها مما يتصل بهذا الإنتاج العلمى ، فقربت للمتشكـكين القضية التى شكوا فيها .

فإذا كان الإنسان — وهو الإنسان الذى لم يؤت من العلم إلا القليل — استطاع أن يصنع هذه الرحلة فى وقت قصير ويجاهد الآن للوصول إلى أكثر مما حققه ، فهل يبقى مجال للشك فى قدرة الله على الإسراء بالرسول والعروج به إسراء وعروجا جسديا لا روحيا ؟

إن كثيرا من الأبحاث العلمية والاكتشافات الحديثة تلاقت مع كثير من النصوص والقضايا الدينية وأيدتها ، وكان الفضل للنصوص الدينية التى سبقت هذه الأبحاث بقرون ، ولم يكن لدى الرسول صلى الله عليه وسلم أى استعداد شخصى للوصول إلى تقرير هذه القضايا وهذه الحقائق . . فأصبح من المؤكد اليقينى أنها هابطة عليه من العليم الخبير وهذه هى النتيجة التى يجب أن يصل إليها كل فـكر سليم . وهنا نهتف ونرحب كمسلمين بالعلم الذى يخدم قضية الإيمان ولا يعارضها ويحقق قول الله (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق . . أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) .

بقى بعد ذلك شىء ، كثيرا ما يدور فى النفوس ويقلقها أو يحولها عن الحق ويوجد فيها بلبلة يود المخلصون أن يتخلصوا منها ، وينطلق المنافقون الذين فى قلوبهم مرض فيتفيقهون بها ، ويدعون التفلسف على حساب الإيمان .

وقد سمعت بنفسى كثيرا من هذه التساؤلات والتفلسفات .

يقولون إن روسيا الملحدة التى لا تؤمن بدين ولا بإله استطاع علماؤها أن يصلوا إلى مالم يصل إليه غيرهم من المؤمنين بالإله والأديان على اختلافها ، ألا يعتبر نجاحهم هذا دليلا على قوة فـكرتهم وسلامة اتجاههم الإلحادى ؟

وهنا نقول إن كثرة العلم عند إنسان لم تكن فى يوم من الأيام مقياسا لسلامة خلقه وصحة سلوكه وفكره ، كما أن العلم لم يكن فى يوم من الأيام دافعا مطردا إلى الخلق القويم ، والسلوك المستقيم ، والايمان الراسخ ، مثله مثل المال وكثرته فى يد بعض الناس أو الأمم ، فلم يكثر فى أيدى الأغنياء لأنهم على قدر من الإيمان والخلق القويم يفوق ماعند غيرهم ، كما أنه لم يدفع أصحابه ويحملهم على الخلق القويم والإيمان الراسخ بمن أغناهم .

فلا يمكننا إذن أن نأخذ من غزارة العلم أو كثرة المال عند بعض الناس أو الجماعات دليلا حتميا على صفاء نفوسهم وصحة عقيدتهم .

وأعتقد أن هذا أمر مسلم به .

وتأتى بعد هذا قضية أخرى متصلة بها لابد أن نعرفها .

وهى أن القوة والسلطة والغلبة فى هذه الحياة تابعة لناموس إلهى ، وسنة ربانية ، وضعها الله للخلق ، وهى فى متناول كل إنسان ، سواء كان مؤمنا بالله إيمانا سليما ، أو معوجا مختلطا ، أو لا يؤمن بإله مطلقا ، فهو طريق ، عدة السير فيه ، الخلق والمعاملة الطيبة ، والأخذ بالأسباب ، والجهد المبذول ، وكل من سار فيه متسلحا بعدته ، سار إلى نهايته فى نجاح ، ووصل إلى قمته ، والقمة هنا هى المال — القوة — الغلبة — السيطرة ، إلى آخر ما نعتبره من زينة الحياة ومظاهرها القوية ، وهذا يتحقق بصورة أوضح فى الجماعات لأن مجال التطبيق الكامل المطرد لسنة الله فى هذه الدنيا هو حقل الجماعات والأمم ، لا حقل الأفراد ، فكل أمة التزمت طريق الفضائل الاجتماعية من التعاون والتناصح ، والأخذ بالأسباب ، وحسن المعاملة ، وإتقان الصنعة ، والجد فى العمل . والتكمل بالعلم ، كل أمة تسير على هذه الفضائل يؤتيها الله العزة والسيادة ولو لم تكن تؤمن بدين « ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها » .

(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلا ، ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) فهذه الآيات وأمثالها كثيرة ، تفيد أن الدنيا ميدان مفتوح للجميع

يأكل منها البر والفاجر ، ويسيطر على خيراتها المؤمن وغير المؤمن وكل أمة تتجنب طريق هذه الفضائل فتعوج فى سلوكها ، وتتقاطع وتغش ، وتتحارب فيما بينها ، وتهمل العقل والعلم ، والأخذ بالأسباب تصل بسلوكها إلى النهاية الأثيمة الأليمة ، وإلى الذلة والاستكانة التى قررها الله لأمثالها (سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

هذه سنة الله فى هذه الحياة التى لم تتبدل على مر التاريخ ولن تتبدل .

غاية ما هنالك يمتاز المؤمنون بالله إيمانا عميقا سليما ، الذين يعملون الصالحات ، ويتبعون الفضائل التى دعاهم إليها الإيمان ، يمتاز هؤلاء عن غيرهم فى الدنيا براحة نفسية تنبع دائما من الإيمان ، ويمتازون فى الآخرة بجنان تجرى من تحتها الأنهار ، ورضوان من الله أكبر .

وإذا نظرنا إلى التاريخ نجده ينطق فى جلاء بصدق هذه القاعدة على الأمم مهما كان دينها ، تقوى الأمة حين تأخذ بهذه الفضائل الاجتماعية ، ولو لم تكن مؤمنة بدين ، وتضعف حين تهمل الأخذ بهذه الفضائل ولو كانت تدعى الإيمان بدين لأن إيمانها حينئذ إيمان شكلى لم يتعد المظاهر .

وسنة الله هذه التى نلمسها فى وضوح فى حياة الأمم السابقة ، يمكن أن نطبقها ونحن مطمئنون على الحاضر والمستقبل .

ونخرج من كل هذا بنتيجة واضحة يجب أن يفهمها كل إنسان : وهى أن مظاهر العلم الغزير والمال والقوة والغلبة فى هذه الحياة لا يمكن أن تكون دليلا على سلامة الفكرة وصحة العقيدة .

ولقد هزم الرسول وضرب وجرح فى غزوة أحد ، ولم يكن ذلك إلا لأن بعض أصحابه أهملوا تعاليمه فى التكتيك الحربى ، وتركوا مواقفهم التى أمرهم ألا يبرحوها ، فأهملوا الأخذ بالأسباب فأصابتهم الهزيمة . . ولم يكن ذلك لأن هؤلاء كانوا ضعاف الإيمان ، أو أن الرسول كذلك أو ترك شيئاً مما أمره الله به . ولكن لأن الرماة لم يتبعوا سنة الله فى نظام الحرب ، فتركوا مواقفهم التى انتهزها المشركون وعلوا رءوس المسلمين وظهورهم وأنزلوا بهم الهزيمة .

ويوم حنين والمسلمون كثرة ، أصابهم الغرور والتواكل فانهزموا ، وكان معهم الرسول ، وكان ذلك تطبيقاً لسنة الله فى كل من يتسرب الغرور إلى نفسه ، ويهمل الأخذ بالأسباب .

ونحن المسلمين الآن نملأ المساجد ونتلو القرآن ونتعلم ، ولكن لا يتعدى ذلك المظاهر الشكلية ، أما الفضائل الاجتماعية التى أمرنا بها القرآن ، وأما الأخذ بالأسباب التى أرشدنا إليها القرآن فقد أهملناه ، فأصابتنا سنة الله . . ذلك بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

ونخرج من هذا كله بنتيجتين :

الأولى : أن كل بحث واختراع علمى إنما هو اكتشافات لبعض مظاهر القدرة التى أودعها الله فى هذا الكون ، وهو يخدم الدين ويؤيده إلا عند المعاندين والذين فى قلوبهم مرض .

والثانية : أن القوة والغلبة فى الدنيا فى جميع مظاهرها . تابعة لناموس إلهى، ومقاييس قائمة على فضائل اجتماعية ، وقواعد عامة للسلوك ، دعا إليها الإسلام ، لا على مجرد الفكرة الدينية وسلامتها أو فسادها ومن هنا لا يصح أن نعتبر قوة أمة وغلبتها وتفوقها على غيرها علمياً أو صناعياً أو عسكرياً دليلا على سلامة فكرتها عن الدين وإن كان دليلا على سلامة سلوكها ، ووقائع تاريخ الأمم فى الماضى شاهد صدق على هذه القاعدة أو على هذه السنة الإلهية .

وبناء على هذا — كما يقول رجال القانون — لا يمكن أن نعتبر تفوق روسيا دليلا على صحة مبادئها الإلحادية ، أو أن نعتبر ضعف المسلمين الآن دليلا على فساد المبادئ الإسلامية ، ولكن يمكن أن نقول إن تفوق روسيا دليل على أنها أخذت بالأسباب التى جعلها الله وسيلة للتفوق فى الدنيا ، وضعف المسلمين دليل على أنهم أهملوا الأخذ بالأسباب ، وتركوا تعاليم دينهم التى تهيئ لهم التفوق والغلبة والسلطان (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

١٤ — الدعوة إلى الله بالحسنى

قال تعالى :

« ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ..

« سورة النحل »

هذا التوجيه الحكيم الذى يدعونا إليه القرآن ، إنما هو توجيه الخالق الخبير بنفسيات خلقه ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، يعرف سبحانه ما يثير النفوس ، حتى تبلغ أقصى غايتها فى الثورة ، كما يعرف الطريق إلى إطفاء هذه الثورة . . . وقد أرسل رسله أطباء النفوس البشرية المريضة ، فكان لابد أن يبصرهم بموضع الداء ، وطرق العلاج والدواء ، ويرشدهم إلى الطريقة المثلى التى يصلون بها إلى أعماق النفوس ، حتى يلمسوا فيها مكامن الخير — إن كان فيها خير — ولهذا تجده سبحانه يوجههم إلى إحسان القول ، وبسط الحجج للناس فى تواضع ولين ، ورحمة وشفقة ، لأن الله يعلم أن هـــذه هى الطريقة المفضلة للاقناع ، والتأثير على النفوس ، وجذب القلوب إلى الداعى ، ولو بالعطف إن لم تستجب له بالإيمان .

ولو راجعنا أسلوب الدعوة التى سلكها كل رسول مع قومه — مما قصه علينا القرآن — لوجدنا الدعوات جميعها تصطبغ بهذه الصبغة الربانية ، وتسلك هذا السبيل المهذب الذى اختاره الله لرسله كى يتحلوا به ، ويكونوا قدوة فيه للدعاة من بعدهم ، وقد صاغهم الله فطراً سليمة ، ونفوساً حكيمة ، يؤثرن الكلمة اللينة على الكلمة الخشنة وينفذون إلى النفوس من الطرق السلمية ، التى أرشدهم

الله إلى سلوكها ، فما رأينا من الكافرين برسالتهم ، من يعيبهم بجفوة الخلق أو شذوذ الطبع ، أو فظاظة القلب ، وكان هذا كله من الضرورى لرجال جعلهم الله قدوة خلقه وسفراءه إليهم ، وهداتهم للخير فى الدنيا والآخرة .

وصدق الله العظيم الذى يقول لصفوة خلقه ، وخاتم رسله ، ممتناً عليه ، ومذكراً له ما صاغه عليه من رقة القلب ، ولين الجانب (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) (١) . ومن المفيد فى هذا المقام أن نستعرض سوياً بعض ماقصه علينا القرآن الكريم من الأساليب التى سلكها رسل الله الكرام ، فى دعوة أقوامهم إلى فكرتهم ودعوتهم ، لأننا سنجد فيها حسن العرض ، وهدوء الطبع ، واختيار الألفاظ المؤثرة ، والمجادلة بالحسنى ، كما تدعو آية سورة النحل ، يقول الله تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون) (كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون) ويقول (كذبت ثمود المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون) وهكذا مع لوط وشعيب ، فكان كل منهم عليهم الصلاة والسلام يعرض فكرته على قومه فى هذا الأسلوب المهذب الهادىء اللين (ألا تتقون إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) .

وما كان يخرج الرسول منهم عن هدوئه وخلقه ، ولا عن الطريقة المثلى فى دعوته حتى حين يشتد به الأمر ، ويلقى منهم العنف والتهديد — فكان يتجه حينئذ إلى ربه يناجيه ، وما وجدنا منهم رداً متجهماً على تهديد أو وعيد ، فإذا قالوا لنوح (لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين) لم يغلظ معهم فى القول، بل اتجه إلى الله يقول (رب إن قومى كذبون فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجنى ومن معى من المؤمنين) وإذا قال قوم لوط له (لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين) . رد عليهم لوط رداً هو الغاية فى اللطف والدعة وقال لهم (إنى لعملكم من القالين ، رب نجنى وأهلى مما يعملون) وإذا استمر شعيب عليه السلام يناقش قولهم ، ويحاول أن يجذبهم إليه ويقول لهم (ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله) ويذكرهم

(١) سورة آل عمران .

بما أصاب من قبلهم من قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، لم يجد رداً من قومه على هذا اللين والوادعة إلا أن يقولوا له فى تعنت واستعلاء (يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) ورغم هذا التجبيه والتحقير والتهديد ، يقول لهم شعيب فى أدب زينه به ربه فلا يتخلى عنه حتى فى أشد المواقف (يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربى بما تعملون محيط) .

وهكذا نجد هذه الصورة المتكررة من الأسلوب المهذب فى عرض الفكرة ، وفى المناقشة مهما اشتدت ، وهى الصورة اللائقة بالداعى ، وبربه الذى رباه واصطفاه ، وبالدعوة الكريمة التى يدعو إليها ، والتى تقوم أول ما تقوم على العرض والاقتناع والقبول .

ولعل أبرز مثل للدعوة الكريمة فى الأسلوب المهذب ، ما نجده فى قصة موسى وفرعون ، فقد أرشد الله موسى وأخاه هرون ، حين أرسلهما الى فرعون ، الذى طغى وبغى فى الأرض بغير الحق حتى قال لأتباعه : أنا ربكم الأعلى ، أرشدهما الله إلى هذا الأدب وإلى هذه الخطة القويمة فقال لهما (إذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) ففى الوقت الذى يصف فيه فرعون بالطغيان والفساد ، والتكبر فى الأرض بغير الحق ، يأمر رسوليه أن يسلكا معه طريق الحكمة والموعظة الحسنة ، ويختارا الطريق المهذب ، والكلام اللين الذى يمكن أن يصل إلى قرارة النفوس ، ويلمس ما قد يكون فيها من نواحى الاستعداد ، وكان هذا هو الأليق برسل الله ، كى يكون عملهم فيما بعد قدوة حسنة للدعاة وإن لم يصل إلى قلب هذا الطاغية

وإذا تتبعنا بعد ذلك الطريقة العملية التى نفذ بها موسى عليه السلام وصية ربه نجد الأدب الربانى ، والحكمة البالغة فى دعوته لفرعون ، فحين يترك فرعون المن عليه بالتربية والرعاية ، ويأخذ فى مساءلته عن ربه فى هزء وسخرية . يجيبه موسى هذه الأجوبة التوجيهية بغض النظر عن شتائمه ، اقرأ معى قوله تعالى (قال فرعون وما رب العالمين ؟ قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، قال لمن حوله ألا تستمعون) فيستهزىء فرعون من هذا الجواب ،

ويدعو إلى السخرية به ، ولكن موسى يستمر يتحدث عن ربه ، ويقول (قال ربكم ورب آبائكم الأولين) ويرد عليه فرعون (قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) فيتهمه فرعون بالجنون ، ومع ذلك يستمر موسى فى كلامه ، دون أن يلقى بالا إلى هذه الشتائم ، (قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) وما كان لموسى وهو مشتغل بمهمة تبليغ الدعوة أن تصرفه عنها هذه الشتائم ، وهذا السباب ، فإن ذلك كلام لا يضيره ، ولهذا أهمله وركز كل اهتمامه فى ذكر ربه رب السموات والأرض رب الخلق ورب المشرق والمغرب .

وحين تضايق فرعون من جواب موسى واستمراره فى ذكر ربه بهذا الوضع ، لجأ الى التهديد والوعيد وقال له (لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) وأنت تعرف مصيرهم فأجابه موسى فى هدوء وأدب (أولو جئتك بشىء مبين ؟) وكان هذا الأسلوب الهادىء ، هو الذى جر فرعون الى مناظرته حين جمع السحرة أجمعين فكانت النتيجة أن هؤلاء الذين جلبهم ليستعين بهم ، خروا ساجدين لرب العالمين رب موسى وهرون ، وصاروا أمام قومهم أول المؤمنين وتخلخلت بذلك صفوف فرعون ، وخارت نوعا ما عزائمه ، وإن بقى على دينه وعناده .

هذه القصه قصة الأدب الرفيع فى الدعوة إلى الله ، مهما بالغ المدعو فى جبروته وعناده ، وهى أعلى مثل وأعظم قدوة للدعاة فى كل زمان ومكان ، وبوجه أخص للدعاة الناصحين ، حين ينصحون إخوانهم فى الدين ، وشركاءهم فى العقيدة ، فإذا كان الله قد اختار هذه الطريقة اللينة المهذبة فى حجاج موسى لفرعون الطاغية ، فلأن نتبعها فى مناقشاتنا ونصائحنا ومحاجاتنا نحن المسلمين بعضنا مع بعض أولى وألزم .

وفى توجيه الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فى دعوته للناس الى الإسلام خير قدوة للداعين من أمته ، وهو نفس التوجيه الذى وجه رسله جميعا إليه من قبل يقول الله لرسوله « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى

هى أحسن) ويقول (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم) ثم يقول فى آية مدنية (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) فقد اختار له ربه بهذه الآيات أن يسلك فى دعوة المخالفين سبيل الحكمة والسداد ، ويختار المناسبات والأوقات والألفاظ ، ويدخل الى نفوسهم باللين من القول ، والمؤثر من النصح والتوجيه ، ولا يغلظ معهم حين يجادلهم ، بل ينتقى الحجج القوية ، ويسوقها لهم فى بساطة وجه ، وحلاوة لسان ، فإنه إن لم يكسبهم فى صف المؤمنين المستجيبين لله وللرسول ، فلا شك أنه سيترك فى نفوسهم أثراً طيبا من عذوبة لسانه ، وطيب خلقه .

ولقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاما يتوالى عليه سيل الإيذاء والاضطهاد ، ومع ذلك لم نر خصما من خصومه ، يأخذ عليه أنه كان جاف الطبع ، سىء المناقشة ، بل قالوا عنه من شدة جاذبيته لحديثه ، وتأثيره على نفوسهم بحلو كلامه ، ورقة حديثه ، وبما يتلوه من القرآن ، قالوا عنه إنه ساحر مبين ، وحين أخذ هرقل قيصر الروم يسأل أبا سفيان عن محمد صلى الله عليه وسلم وكان لا يزال مخالفا له ، لم يجد أبو سفيان مغمزا فى رسول الله ، وما كان أشد رغبته فى أن يجرحه أمام هرقل ، ولكنه برغم أنفه لم يقل عنه إلا ما يزينه ، ويرفع من شأنه ، « والفضل ما شهدت به الاعداء » .

وبرغم ما تدعو إليه هذه الآية وأمثالها ، من حسن الخلق فى المناقشة ، وسلوك سبيل الحكمة والموعظة الحسنة ، وهى كلها فضائل قيمة — برغم هذا نجد بعض المفسرين يقولون : إنها منسوخة بآية السيف أى بالآية التى تدعو إلى القتال — وأنا لا أرى رأى هؤلاء ، لأن معنى كلامهم أن الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وسلوك الحجة الواضحة فى المناقشة والاقناع ، قد بطل كل ذلك وحل محله السيف ، فأصبح هو الطريق لدعوة الناس إلى سبيل الله ، وهذا غير مستساغ ، ولا معقول ، فليس معنى الأمر بالقتال أن تمتشق الحسام لكل مخالف ، تهوى به على رأسه ، ولو كان مسالما ، موادعا ، بل لابد أن ندعو إلى الله ونسلك الطرق الحكيمة فى الدعوة ونسوق الحجج الواضحة على ما ندعوا إليه .

أما السيف الذى أمرت الآية باستعماله فلرجل مخالف معاند ، لج فى عناده ولجأ إلى القوة ليعترض سبيل الدعوة ، ويؤذى إخواننا المسلمين ، السيف لهذا فقط لا لكل مخالف ، وتكون القوة حينئذ لتأديب المعتدين مقابلة للقوة بالقوة ، وللسيئة بالسيئة (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) وليس مما يشرف الإسلام ، ولا المنتسبين إليه أن يقال إن الدعوة إليه بالحكمة والحسنى وبالدليل الواضح قد بطلت ، وحل محلها القوة .

نعم ليس هذا مما يزين الإسلام . ويرفع من شأنه ولكن يزينه أنه يعتمد الحجة الصادقة فى أسلوب عف حسن ، وسيلة أولى لإقناع المخالفين ، ولا يرضى حتى بالكلام الخشن الغليظ فى الدعوة ، بل السيف والمدفع ، نعم هذا هو ما يشرف الإسلام بين الدعوات ، لأنه الطريق الطبيعى لكل دعوة وفكرة فى أى عصر من عصورها ، عصر ضعفها أو عصر قوتها ، فلا يستغنى داع مطلقا وفى أى وقت عن أن يتزود بخير الطرق ، وحسن الخلق ، فى دعوته إلى فكرته ومبدئه ، مهما كان وراءه من القوى التى تسنده ، وقد أصبح للدعاة الآن مدارس تقوم بتهيئتهم وإعدادهم وتسليحهم لا بالسيف بل بالطرق السامية اللينة القائمة على أحدث ما عرف من نظريات فى علم النفس كى يعرفوا المداخل السهلة إلى نفوس الناس . ويتجنبوا المزالق التى تعكس عليهم مقاصدهم .

فهل يعقل — وقد وصل الناس إلى هذا بتفكيرهم — أن ينهى الله الخبير بالنفوس عن استعمال اللين والحكمة فى دعوتها إلى الدين ؟ ! هل يعقل بعد أن تفنن الناس فى إعداد الدعاة وتهيئتهم أن نقول : لا داعى لهذا كله فقد أبطلته آية أخرى وشرعت محله شريعة السيف والمدفع ؟ ! .

يكفى أن نستنير فى هذا المجال بقول الله تعالى لرسوله (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) فقد امتن الله على رسوله بأنه ألان جانبه ، ورقق قلبه ، وجعله عذب اللفظ ، سهل التحدث والتخاطب ، حتى كان ذلك سببا لتجمع الناس حوله وحبهم له . وقد رأينا الشعر يتعرض لهذه النقطة ويدلى برأيه ودفاعه ، فهذا شوقى رحمه الله يقول فى قصيدته « نهج البردة » :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحـــلام وسفسطة فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفوا كل ذى حسب تـكفل السيف بالجهال والعمم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

وفى البيت الأخير يضع شوقى نظرية الإسلام فى معاملة مخالفيه ، فإن أثاروا الشر واعتدوا على المسلمين ، قابلهم المسلمون بالمثل ، وتـكفل السيف بهم ، لأن هذا هو الدواء الناسب ، وإن سالمونا سالمناهم ، وعشنا معهم فى أمان وسلام .

« وبعد » فهل نفطن إلى هذا كله نحن الدعاة إلى الله ، لقد تسلمنا مقاليد الدعوة إليه بعد رسله ، وأصبحنا قوامين على دعوته ، فمن واجبنا إذن أن نتخلق بأخلاقهم ، ونسلك الطرق التى سلـكها رسله فى الدعوة إليه ، وأن نـكون فى وعظنا ونصحنا ومناقشاتنا مثلا طيبة للدعاة فننصح فى شفقة وهدوء وتوجه فى لين ويسر ، ولا نجبه الفرد بمعايبه أمام الناس ، فربما يدفعه ذلك إلى العناد ، بل ننصحه فى خفاء فإن ذلك أجدى عليه وعلى الدعوة .

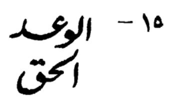
وعلينا كذلك أن نضع كل شىء فى موضعه وأن نزن الأمور كما هى بميزان الحـكمة فلا نبالغ فى الأمر اليسير ، ولا نفرط فى الأمر العظيم ولا نرفع السنة والمندوب إلى مكان الواجب ولا ننزل بالواجب إلى مكان السنة والمندوب .

وعلينا كذلك ألا نتمسك بالقشور ونترك اللباب ونهمل أهم ناحية فى الإصلاح ، وهى اصلاح الخلق وعلاج النفس وحسن توجيهها .

إن كثيراً من الوعاظ والناصحين قد يكون سببا فى تنفير الناس من الدين وخروجهم عن الطريق المستقيم ، لا كراهة فى الدين ، ولـكن كراهة فى الداعين إليه والمدعين حمايته لأنهم لم يدعوا إلى الله بالحـكمة والموعظة الحسنة ، إن العصاة الخارجين عن الطريق القويم ، هم مرضى النفوس ، والواعظون الناصحون هم الأطباء والأساة فعليهم أن يترفقوا بمرضاهم ، ويعطوهم من الدواء

ما يناسب حالهم ، ويداوى أمراضهم ، ويشفى أسقامهم ، حتى يجدوهم أخيرا بجانبهم أصحاء النفوس أقوياء الروح أعضاء صالحين عاملين .

وقد روى عن أسامة بن زيد مرفوعا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا ينبغى لأحد أن يأمر بالمعروف حتى يكون فيه ثلاث خصال يكون عالما بما يأمر ، عالما بما ينهى رفيقا فيما يأمر رفيقا فيما ينهى » وصدق الله العليم الحكيم فى توجيهه لرسوله الكريم (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين) .

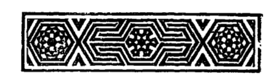


١٥ – الوعد الحق

قال تعالى :

« وَلَنْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً » .

(سورة النساء)



ترتفع أصوات كثير من المسلمين فى هذه الأيام ، ويتساءلون عن أثر الوعد الكريم الذى وعدهم الله فى القرآن ، وكتب على نفسه أن ينصرهم ويحقق العزة لهم ولا يجعل للكافرين سبيلا عليهم ، وهم يرددون قوله فى كل وقت (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) وقوله تعالى (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) وينظرون إلى حالتهم التعسة ، ووقوعهم فى مخالب الدول المستعمرة غير المسلمة ، ويقارنون ذلك بما تلقيه هذه الآيات فى آذانهم ، وتصبه فى قلوبهم ثم يتصايحون : أين العزة التى كتبها الله لنا ؟ وأين هو وعد الله ! ! ؟ وهؤلاء المتسائلون الذين يبحثون عن وعد الله ، ويتظاهرون بالجد فى البحث عن العزة ، وحب الغلبة ، هؤلاء فى حاجة إلى أن نسألهم : من أنتم أيها المتسائلون فى نظر الدين ؟ وهل تعرفون مكانكم الذى تقفون فيه من تعاليمه ؟ قريبون أنتم أم بعيدون ، هل أنتم حقيقة مؤمنون ؟ ! .

فاذا لم يعثروا على نفسية المؤمن فى نفوسهم ، ولا على اتساق مجتمعهم مع روح الإسلام و تعاليمه ، فليس من حقهم أن يتصايحوا حينئذ ويقولوا : أين العزة التى كتبها الله لنا ؟ ! ؟ ؟

إن العزة ليست عطاء ، ولا مائدة تنزل عليهم من السماء ، ولكنها ثمرة مجهود شاق من الأعمال ، التى ترتكز على الإخلاص ، وتنبعث من الإيمان ،

وفى سبيل تحقيقها وجه الله المسلمين إلى العمل المثمر المتقن ، فى كل فرع من فروع الحياة ، وجعل العمل فى الحقل والمصنع والشارع والديوان جهاداً فى سبيل الله ، متى أخلص العامل النية فى الوقت الذى كره إليهم البطالة والكسل حتى يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » ولم ينظر نظرة رضا أو عطف لهؤلاء الذين ينقطعون للعبادة ، تاركين المساهمة فى النشاط الحيوى للسلمين ، ظانين أن ذلك هو الطريق الأمثل فى الإسلام ، لكسب رضا الله ، بل فضل عليهم هؤلاء العاملين الكادحين فى عمارة الكون : القائمين بخدمة أنفسهم ومجتمعهم ، فعن أنس رضى الله عنه قال : « كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فمنا الصائم ومنا المفطر ، قال فنزلنا منزلا فى يوم حار أكثرنا ظلا صاحب الكساء ، فمنا من يتقى الشمس بيده قال : فسقط الصوام ، وقام المفطرون ، فضربوا الأبنية وسقوا الركاب ، فقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله » .

وهكذا يدفع الرسول أمته إلى العمل المثمر ، ويبعدهم عن التواكل ، ويرخص لهم فى ترك العبادة التى تعجزهم عن السعى والعمل لعمارة الكون ، وأكثر من هذا دلالة على هذه الروح الإسلامية المقدرة للعمل ، ما روى عن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه ، فقد مدح جماعة أمامه أخا لهم بأنه يصوم النهار ويقوم الليل وينقطع للعبادة ، فسألهم الرسول عمن يطعمه ويسقيه قالوا كلنا يارسول الله قال : كلكم خير منه .

أرأيت بعد هذا — أيها المسلم الباحث عن العزة أكثر من هذا دلالة على تقدير الإسلام للعاملين وعنايته بأن يكون أتباعه مبرزين فى كل ناحية من نواحى الحياة فلا يكون فيهم عاطل ، ولا كل على غيره ؟ ! .

فهل حقق المسلمون المتصايحون هذا المعنى فى نفوسهم ، وفى أعمالهم ، وهل عملوا على أن يكون المجتمع الإسلامى خلية دءوبة على العمل ، لاتعرف البطالة أو الكسل ، أو أن الأمر على عكس ذلك ؟ ! .

لقد كان عمر رضى الله عنه يضرب بدرته هؤلاء القاعدين المتواكلين الذين

يعيشون كلا على غيرهم ، شعورا منه بمقدار خطرهم على مجتمعاتهم ، وخوفا من أن تتسرب هذه الروح العاجزة إلى الأكثرية من المسلمين ، فيصبحوا أمة واهنة ضعيفة ، فتقع فريسة سهلة مستساغة للعاملين المجدين من الأمم .

والله حين كتب العزة للمؤمنين ووعدهم إياها أراد بهم العاملين المخلصين الذين جمعوا بين صحة العقيدة وجودة العمل ووصفهم فى كتابه بأنهم (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) ولم يرد بهم هؤلاء القوالين الذين يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم ، بل رسم فى صراحة ووضوح طريقة تحقيق وعده وبين من هم هؤلاء الموعودون ، وذلك فى قوله عز من قائل (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا) فالوعد إنما هو للمؤمنين العاملين أعمالا صالحة متقنة ، القائمين بما عهد إليهم بأمانة وإخلاص محققين فى أعمالهم توجيه رسولهم (إن الله يحب من العبد إذا عمل عملا أن يتقنه » .

فأين المتصايحون . . . من هؤلاء ؟ ! .

« ليس الإيمان بالتمنى ولكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل ، وإن قوما خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأخلصوا العمل » هكذا رسم لنا الرسول الصورة الكاملة للايمان والمؤمنين ، ولقد حكى لنا القرآن قصة جماعة قوالين ، أرادوا أن يصفوا أنفسهم أوصافا لم تهيئها أعمالهم ، فلم يرتض الله منهم موقفهم ، وأرشدهم إلى الطريقة التى يستحقون بها ما يطمحون إليه فقال (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم (لا ينقصكم) من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم ، إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) . وقد رد الله عليهم هذا الرد لأن مرتبة الإيمان تقتضى الإخلاص وتفرض على صاحبها حسن العمل ولما يصلوا إلى ذلك بعد .

وليس المسلمون اليوم بأفضل حالة ، ولا أحسن عملا من هؤلاء الأعراب ، فهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم يدعون الإيمان وليسوا أكفاء لهذا الادعاء ، ويلقبون أنفسهم ألقابا ضخمة من العارف بالله ، والمؤمن ، والتقى ... الخ ، دون أن يدفعوا ثمن هذا من جهودهم واخلاصهم فكيف ينتظرون إذن أن يحصلوا على المجد دون ثمن ، ويصلوا إلى العزة ، دون أن يدفعوا مهرها ؟!!!

هل يجد المسلمون فيما بينهم الآن روح التناصر والتناصح ؟! وهل يحرصون على العدل فى أعمالهم وأحكامهم وهل يتواصون بالحق والصبر .. وهل .. وهل .

إن الله قد وضع للمجد أسساً ، وضحها القرآن ، وطبقها الرسول ، وصحابته المخلصون ، فوصلوا إلى القمة ، ومحال أن تتغير سنة الله ، فمن لم يعتمد على هذه الأسس ضل وزل ، ولم يجد له من دون الله ولياً ولانصيراً ولا تنفعه الأسماء ولايجديه الادعاء !!! .

وما لى أتعب نفسى فى الرد على هؤلاء المتصايحين المعترضين ؟ وقد رد الله فى القرآن على أمثالهم من المسلمين ، الذين أصابتهم فترة من الضعف النفسى فخالفوا أمر الرسول وتركوا إرشاداته فى غزوة أحد فنزلت بهم الهزيمة ، وتغلب عليهم المشركون ، فرفع بعضهم صوتهم متصايحين ، أين النصر الذى وعد الله رسوله والمؤمنين ؟! كيف نغلب وفينا رسول الله ؟ وكيف ينتصر علينا عباد الأوثان ؟ ! فحكى الله ذلك فى القرآن ورد عليه ، ليسوق العبرة إلى كل مسلم ويوضح الطريق لكل ضال ، ويحدد المعالم لكل حائر ، ولا يجعل لأحد حجة ولا سبيلا .

قال تعالى فى سورة آل عمران (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قدير) نعم فهزيمة المسلمين يوم أحد فى الميدان كانت بعد أن خالفوا ما أمرهم به الرسول من « البقاء بأماكنهم لا يبرحونها على أية حال » ، وتلاحقوا يجرون سراعا إلى حيث يجمعون أسلاب الكفار المنهزمين ، فانقلب نصرهم هزيمة ، وقوتهم ضعفا ، وتبدل أمنهم خوفا ، ولذا رد الله عليهم حين تساءلوا ـــ غافلين ـــ كيف ينهزمون ، ومن أين تأتيهم المصيبة وقال لهم إنها جاءتكم من أنفسكم ، وبسبب خروجكم عن

الخطة التى وضعها الرسول لـكم ، فلم يخلف الله وعده ، ولـكنكم أنتم الذين خالفتم سلته ، وخرجتم على أوامر رسوله فحقت عليكم الهزيمة (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوعن كثير) (وما ظلمهم الله ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون) وقد قال رجل لابراهيم بن أدهم ، يقول الله عز وجل (ادعونى أستجب لـكم) فما لنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ قال إبراهيم من أجل خمسة أشياء قال وما هى ؟ «قال : عرفتم الله فلم تؤدوا حقه ، وقرأتم القرآن فلم تعملوا بما فيه وقلتم نحب الرسول ، وتركتم سنته ، وقلتم نلعن ابليس وأطعتموه ، والخامسة تركتم عيوبكم ونظرتم فى عيوب الناس » وهذه كلمات رجل حكيم ، وتصوير مؤمن خبير ، نستطيع على ضوء حكمته أن نعرف كذلك لماذا لم يتحقق للمسلمين وعد الله فى نصرهم وتوفير السيادة لهم .

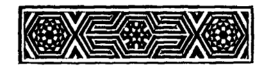
فهل عرف طلاب العزة وهم قاعدون . أنهم داء الحياة ، وأنهم المعتدون الجناة ، حين ضيعوها وأصبحوا حجة على الإسلام الأبى العزيز ؟ هل عرفوا أن وعد الله حق وقوله صدق ؟ (وعد الله لا يخلف الله وعده ولـكن أكثر الناس لا يعلمون) .

١٦ — وكفى بالله شهيدًا

قال تعالى :

«وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ،
وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا » .

« سورة النساء »



يسمع الإنسان أحياناً بعض آيات من الذكر الحكيم فتهتز لها نفسه اهتزازاً قويا وتقع منها موقعا عميقا ، ويحس لها حلاوة وتأثيراً ، كأنه لم يسمعها ولم يقرأها من قبل وقد تكون لهذه الحالة دوافع خاصة فى النفوس أحيانا ، تجعلها — حين تسمع القرآن — أكثر فهما وإدراكا له وإحساسا به منها فى أى وقت آخر . . . ألمس هذه الحالة فى نفسى كثيراً ، وكنت أتهم حسى بالبلادة ، وعدم الرقة ، وأخشى أن يكون ذلك فيها نوعا من عدم التوفيق ، حتى وجدت كثيراً من إخوانى يحدثوننى عن أنفسهم ، بما لمسته فى نفسى من قبل ، ويخشون ما أخشاه وسرى بنا الحديث إلى موقف لعمر بن الخطاب رضى الله عنه يشبه هذا الموقف من بعض الوجوه ، وهو من نعرف فهما وإيمانا وعمقا وإدراكا لكل ما نزل من القرآن تذكرنا موقف عمر حين توفى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذهل وخرج يضرب كل من قال : إن محمداً قد مات ، كأنه استعظم على حبيبه ورسوله وصفى ربه أن يلحقه الموت كما يلحق الناس جميعا ، وكأنه لم يسمع ولم يقرأ من قبل قوله تعالى (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) .

فظل يزجر فى الناس وينهرهم عن هذا القول ، حتى خرج له أبو بكر ، وأسمعه هذه الآية التى سمعها وقرأها مراراً من قبل فأفاق من ذهوله ، وشعر كأنه سمع آية لم يسمعها ولم يحفظها من قبل ، ووقعت الآية على نفس عمر الهائجة الثائرة الفائرة ، كما يقع الماء على النار المتأججة ، فهدأ وعادت إليه نفسه الواعية الذاكرة وهو يقول : كأننى لم أسمع هذه الآية قبل الآن . .

ولئن كان لعمر رضى الله عنه فى هول المفاجأة بعض المبررات فى ذهوله عن الآية لهو على كل حال عمر ، ونحن نحن . . فإن مرت علينا آيات لم تصل إلى أعماق نفوسنا أحيانا ، ثم إذا بها فجأة ولظروف محيطة بالإنسان ، تصل إلى قاع النفس وتملأ جوانبها فنحن الذين شغلتنا الدنيا حتى هجمت علينا ونحن واقفون بين يدى الله فجعلتنا نهيم فى كل مكان أو نفكر فى كل شىء ، بينما الجسم يتحرك تحركات المصلين ومع ذلك فإن الله يتجلى أحيانا على الإنسان ، فيهبه جرعة من الذكر والفكر فيه ، وفى آياته فتغمره سعادة يحس من أجلها كأنه أسعد وأوفر حظا من الملوك وأصحاب الملايين ويفهم حقيقة ما قاله بعض النساك حين شعر بهذه اللذة : نحن فى حالة من السعادة لو شعر بها أصحاب السلطان لقاتلونا عليها !

دفعنى — أخى — إلى هذه الخواطر حالة مرت بى ، وأنا أصلى فى الروضه الشريفة خلف إمام المسجد النبوى ، وهو رجل قد وهبه الله فيما وهب حسن تلاوة القرآن فى الصلاة استمعت إليه وهو يقرأ قوله تعالى : (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً)[1] . . استمعت إلى هذه الآيات ، كأننى أستمع إليها لأول مرة فى حياتى ، فاهتزت نفسى اهتزازاً قويا لقول الله يصف رسوله محمدا بهذه الأوصاف (شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) وأشهد أنه كان لوقوفى بجانب قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وبمكان سعد بالرسول وصحابته من قبل ، أشهد أنه كان لهذا الجو الروحانى الذى يحيط بى ، فضل كبير فى التأثير النفسانى ، الذى استولى على ، وجعلنى أحس هذه الآيات إحساسا جديدا كأننى لم أسمعها

(١) سورة الأحزاب .

من قبل ، وأنا الذى أحفظ القرآن منذ صغرى ، وأكرره كثيرا ، بل كنت فسرت هذه الآيات لطلابى منذ شهور فى معهد المدينة المنورة .

جلست بعد الصلاة ، مأخوذا بهذه الحالة مسرورا بها فى نفسى ، بل مسرورا بنفسى من أجلها ، فالوصول بالنفس إلى هذه الحالة شىء يسر ، وأخذت أتأمل فى ثناء الله على رسوله ، وقد أسعدنى الله ، فجعلنى أعيش شهورا بجواره ، أصلى بمسجده ، وأسلم وأصلى عليه كل يوم مرات ، وأقوم بتفسير القرآن فى أرض القرآن . . جلست أفكر متأثرا بهذه العوامل هذا هو محمد بن عبد الله الذى يثنى عليه الله . يثنى عليه الحق القوى الأعلى ، ما أعظم محمدا !!!.

إن الإنسان لينتفخ ويخيل له وهمه أنه قد ملأ الدنيا إذا سمع كلمة ثناء ومدح ، ولو من منافق كذاب ، ومخاتل جهول ، وإن أحب شىء إلى الناس أن يثنى عليه الناس ولو بالتافه من الصفات .

ولكن هذا محمد يثنى عليه ربه ... فهل تستطيع اللغة بثروتها أن تقدر هذا الموقف الخالد ، وأن تقارن بين عبد من عباد الله يمدحه الله ، ويثنى عليه فى كتابه الخالد ، وبين عباد آخرين همهم فى الحياة أن يمدحهم إنسان بكلمة تمر على شفاههم أو تأخذ طريقها إلى صحيفة تندثر بعد حين ! !

استغفر الله أن مجرد المقارنة اعتداء على هذا المقام الأسمى ، لكنا كلنا مضطرون إليها ، حسب أفهامنا وعقولنا حتى ندرك الفرق الشاسع بين المقامين .

وإنما كانت اللغة عاجزة تماما عن تصوير هذا الموقف لأنه موقف روحانى ، يخص الروح ، هى التى تشعر به ، وتعبر عنه بأساليبها الروحية ، وكلما صفت وسمت كلما كانت أكثر إدراكا لهذه المقارنة ، وهذا التصوير ، وكانت تبعاً لذلك أكثر تأثراً وتقديراً لهذا التقدير الربانى لعبد الله ورسوله حتى لتهتف كل روح من الأعماق ، وهى سعيدة بهذا الهتاف . . ما أعظم محمدا !!!. ؟

إننى أتأمل طويلا فى وصف الله لرسوله « وسراجاً منيراً » رجل من البشر يصفه الله بأنه سراج منير ، ما أبدع هذا الوصف ! وما أجمله حين يضفيه الله العالم بقيم خلقه على عبده ومصطفاه ! وما أعظم هذا العبد الذى حاز هذا العطف وهذا

التقدير . نعم ما أعظمه لا تؤاخذنى يا أخى ترانى ألف وأدور حول هذا العبير الطيب الذى تنفحه هذه الآيات دون أن أغير كثيراً فى الألفاظ . . ألم أقل إن اللغة عاجزة ! ! ؟

* * *

سارت بى تأملاتى إلى آيات أخرى تشبه تلك الآيات وتلوت قول الله عن عبده ورسوله : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) وإلى قوله تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعون يحببكم الله) وقوله : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ثم قفز ذهنى إلى آية تجمع كل ثناء ، وهى شهادة من العلى الأعلى لرسوله : (وإنك لعلى خلق عظيم) إذ ليس بعد هذه الشهادة شهادة ، ولا بعد هذا الثناء ثناء ! !

ولو تجمعت الدنيا كلها بما فيها من الإنس والجان ، ونطقت بكلمة حق وثناء ما وزنت كلماتها كلمات الله : (وإنك لعلى خلق عظيم) .

هكذا يثنى الله على رسوله وهو خالق الخلق ، وباعث الرسل ، العليم بقيم خلقه ومنزلتهم ، يثنى ، وثناؤه حق وتشريف وتعظيم — ويجعل طاعته فى طاعة الرسول — وفوق ذلك كله يتولى حراسته وصيانته ، ويعلنه بذلك ليطمئن ويمضى فى أداء رسالته غير هياب ، مرتكناً على وعد ربه ، حتى يصل إلى غايته (والله يعصمك من الناس) ولم يتركه يدافع عن نفسه ويرد مختلف الاتهامات التى وجهها إليه أعداؤه ، بل تولى الدفاع عنه ، ورد السهام الموجهة إليه ، وسجل ذلك فى كتابه الخالد ، فحينما يتهم الكفار رسوله بأنه صار أبتر لاولد له لايترك الله رسوله ، يرد عليهم بنفسه ، بل يتجلى عليه بعطفه ، ويحامى عنه بكلام ينزله عليه ليتلوه هو وكل من يأتى من بعده ، ويعرفوا غيرة الله على رسوله ودفاعه عنه : (إن أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر) هل ترى لمحمد كلمة فى هذا الرد القوى ؟ كلا إنه كلام ربه الذى يعده الكوثر ، برغم أنوف الشانئين ، ثم يدمغهم بما أرادوا أن يصفوا به الرسول ويرد عليهم سهمهم له . . نعم يرد عليهم سهمهم .

من الذى يرد ؟ محمد .. أولاده أزواجه أصحابه .. كما اعتاد الناس فى دنياهم ؟
لا . لا يا أخى إنه ربه القوى القادر ، الخالق ، مالك الملك ، ومالك يوم الدين .

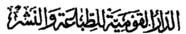
أى شرف وأية منزلة وكرامة لهذا العبد الذى اصطفاه الله وحماه ، وأثنى عليه ، ودافع عنه ؟ (وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا) .

ما أعظم محمدا ! ! !

وما أسعد أمته به لو أطاعته ! وسارت على مناهجه .!!. وما أسعدها به فى الدنيا هاديا ، وفى الآخرة شفيعا ! !

رب : اهدنا بهديه فى الدنيا ... واجعله شفيعاً لنا يوم ترجى شفاعته . آمين .

الفهرس


الدار القومية للطباعة والنشر



نبذة عن المؤلف :

الاستاذ عبد المنعم النمر حائز لشهادة العالمية مع التخصص وهو عضو المكتب الفنى بالأزهر ، وله عدة مؤلفات متداولة منها : الاسلام والمبادىء المستوردة ـ المساواة فى الاسلام والمدنية الغربية ـ الاسلام والشيوعية ـ تاريخ الاسلام فى الهند ، فضلا عن المقالات والأبحاث فى الصحف والمحاضرات فى الاذاعة والتليفزيون والاندية الثقافية والدينية .

هذا الكتاب :

الكتاب دراسات تحليلية تهدف الى بيان منهج الاسلام فى علاجه لمشاكل الحياة ، والى تقديم المبادىء والتعاليم الاسلامية صافية ، والى تصحيح أفكار بعض الناس مما علق بها من تنافر بين الدين والحياة ، والى أن الاسلام يعمل على ايجاد الامة القوية العزيزة فى كل جانب من جوانب الحياة المادية والروحية .

الدار القومية للطباعة والنشر